



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

الإباضية في الفقه والسياسة

عبدكاتب الفاضل في الفقه والحديث

تأليف

علي يحيى محمد

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



سَلْطَنَةُ عُمَانِ
وَزَارَةُ التَّرَاثِ الْقَوْمِيِّ وَالثَّقَافَةِ

الإباضية بين الفرق والامتياز
عند كتاب المفاصل في القديم والحديث

تأليف
علي يحيى معمر

المجلد الأول

الطبعة الثانية

١٤١٥ هـ ~ ١٩٩٤ م

وَاللَّهُ الرَّحِيمُ

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

قرآن كريم
سورة النمل الآية (١٩)

يا أخى فى الله ! !

أخى فى الله ! أرجو أن تقرأ هذه الفصول المعروضة بين يديك فى هذا الكتاب محتسبا أجرك على الله • وأن تأخذ منها ما استبان لك أنه الحق بحفاوة • وأن تتبذ ما استبان لك أنه الباطل على طول يدك ، وأن تزن كل ذلك بالميزان الدقيق الذى لا يخطئ من قوله تعالى : « فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » •

وأن تضع فى اعتبارك أننى أرى أن جميع الفرق والمذاهب الإسلامية تتف متساوية على صعيد واحد ، فليس فيها — بصفتها الجماعية — فرقة أفضل من فرقة ، ولا مذهب خيراً من مذهب • وأن فى المنتمين إلى كل فرقة أو مذهب أتقياء بررة ، وأشقياء فجرة ، وسواداً أعظم وهو وسط بين ذلك •

وأن تعلم أن النقاش الذى جرى على قلمى — فى شدته ولينه ، وفى قسوته ورفقه — لا أريد به الدعوة إلى المذهبية ، ولا الدفاع عن مذهبية ، وإنما أريد به تحطيم المذهبية • وأنا على يقين — فى نفسى — أن المذهبية فى الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ولا تتحطم بالحجة • ولا تتحطم بالقانون فإن هذه الوسائل لا تريدها الا شدة فى التعصب وقوة فى رد الفعل • وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف • فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا يتمسكون به • وبالتعارف يشتركون فى السلوك والأداء الجماعى للمعبادات وبالاعتراف يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحق الذى يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفى ظل الأخوة والسماح تغيب

التحديات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل
الثابت في الكتاب والسنة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت
مذهباً •

ولن نصل الى هذه الدرجة حتى يعترف اليوم أتباع جابر وأبى
حنيفة ومالك والشافعي وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم ممن يقلدهم الناس
أن أئمتهم أيضا يقفون في صعيد واحد لا مزية لأحدهم على الآخرين
الا بمقدار ما قدم من عمل خالص لله •

قيل عن الإباضية

« وكل من يتهم الإباضية بالزيغ والضلال ، فهو ممن فرقوا دينهم ،
وكانوا شيعا ، ومن الظالمين الجاهل ، جمع الله ما فرقوا ورتق ما ففتقوا ،
ومزق شمل أعوان المستعمرين ، والله محيط بالكافرين »

خلاصة الرسائل في ترتيب المسائل طبعة سنة ١٣٥٦ هـ

عضو المجمع العلمي العربي عز الدين التنوخي

« واذا كان الإباضيون أصحاب أمجاد في الماضي ، فلا زالوا كذلك في
عصرنا الحاضر » •

إسلام بلا مذاهب : مصطفى الشكعة

« ومن كل هذا يتبين • اعتدالهم وإنصافهم لمخالفهم » •

كتاب المذاهب الإسلامية : محمد أحمد أبو زهرة

* « قول ابن إباض أقرب الأقاويل إلى السنة » •

الكامل : المبرد

* « ورجال الإباضية يضرب بهم المثل في التقوى والصلاح والزهد » •

تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية : يحيى هويدى

* « إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية — أهل الإستقامة — من الدعابات الفاجرة التى نشأت عن التعصب السياسى أولا ثم المذهبى
ثانيا » •

أبو إسحاق طيفيش

* « يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية فى تأصيل قضايا
العقيدة » •

بيوض إبراهيم بن عمر

مقدمة

اختر بعض من كتب عن عقائد الفرق الإسلامية وآرائها ومذاهبها من الكتاب القدماء — كلمة المقالات — فأطلقها على ما ذهبت إليه كل فرقة في ذلك ، وأحسب أن اختيارهم لاستعمال هذه الكلمة في هذا المجال كان موفقاً جداً ، فإن موافقهم — رغم ما فيها — لا تزيد عن مقالات •

وعندما يرجع الباحث اليوم الى أكثر تلك المقالات التي توزع فيها المسلمون ، وتشتتوا الى فرق لا حصر لها ، يضرب بعضها بالبعض ، حسبما تقتضيه ظروف كل عصر ، يجد أن الجزء الأكبر منها لا يعدو مواضيع سياسية معينة ، تتناول بعض قضايا الحكم ، أو مشاكل التعامل بين المتخالفين في رأى أو وجهة نظر معينة •

والحقيقة أن بعض الأقلام كانت مولعة بتكثير أصحاب المقالات ، فما تسمع بنقاش جرى بين اثنين حتى تسارع فتجعل لكل واحد منهما فرقة وتجعله إماماً أو رئيساً لتلك الفرقة •

والشواهد على ذلك في كتب المقالات كثيرة وقد يجد القارئ في هذا الكتاب صوراً منها •

ولا شك أن أصابع السياسة وراء هذا كله — وسواء في ذلك السياسات الحاكمة أو السياسات المضادة لها — ولا شك أيضاً أن الأقلام التي تناولت ذلك سارت دون وعى — في أكثر الحالات — في ركاب سياسة مخططة فحقت لها كثيراً من المقاصد والأهداف •

ويلاحظ الدراس لهذا الموضوع ، أن كثيراً من الأشخاص الذين اعتبروا أئمة لفرق ، ونسبت إليهم أقوال في قضايا الساعة ليسوا — على

أحسن التقديرات — إلا رجالا من العوام أو أشباه العوام ، يملكون السنة حادة ، أو سيوفا قاطعة ، أو إرادات صلبة ، فهم في نظر السياسة خطر على أمن الدولة ، أى — على كراسى الحكم — • ومع ذلك فقد نسجت اليهم مقالات شاذة في قضايا تشغل فكر الجماهير في ذلك الحين ، فهل كانوا حقا يقولون بها ، وهل كانوا حقا في المستوى العلمى الذى يتيح لهم أن يصدروا أحكاما في مثل هذه المسائل الدقيقة ؟ أم إن السياسة الماكرة هى التى استطاعت أن تقوّلهم أو تدس عليهم ذلك • ثم توجه إليهم الأنظار •• أنظار النفرة والكراهية ، فنجحت في إيدانتهم وإبعاد الناس عنهم •

والباحث اليوم عندما يعود إلى التنقيب عن هذا الموضوع يرى عجبا • فرق كاملة بأئمتها وأقوالها ومواقفها الحاسمة لا يعثر لها على أثر أبداً إلا ما يقصه عنها خصومها في كثير من المبالغات •

عندما كنت أقرأ في كتب المقالات ما يتصل بالإباضية تصادفنى عجائب في العقائد والآراء والأقوال تنسب إليهم ، إما بعبارات واضحة صريحة أو بأساليب ملتوية ، ولكنها معبرة ، وتصادفنى كذلك أسماء لأشخاص كثيرين يعتبرون أئمة لهم ، وأنا على يقين كامل بأن ذلك غير موجود عند الإباضية • فإذا كانت هذه الحال مع فرقة ينتشر أتباعها في كثير من البلاد الإسلامية ، ولا يخلو قطر من أقطارها من كتبهم ، فكيف الحال مع من إنقرض فلم يبق له أتباع ، ولم يترك كتباً مصنفة فيما يختص به ، وإنما عاش — إن صح هذا — يطفح على ميدان الحياة حتى طواه موج الزمن في ذكرى التاريخ المجردة •

لقد أصاب الإباضية من كتاب المقالات كثير من الأذى ، قد لا يكون مقصودا ، ولكنه واقع ، وقد أحدث بالفعل فجوة بينهم وبين إخوتهم في بقية المذاهب ، كانت متسعة في الماضى وأصبحت تضيق • ونرجسوا

أن تتعهد وتزول في هذا العصر الذي يجب أن يتلاقى المسلمون فيه على وحدة العقيدة ، ووحدة العمل ووحدة السلوك ، في مجابهة أعداء الإسلام ، مع مراعاة صادقة لحرية الرأي والفكر ، واحترام كامل لجميع أئمة المسلمين وعلمائهم السابقين • دون تهجم أو انتقاص ، ودون تقديس أو تعظيم (١) •

وفي هذا الكتاب حاولت أن أرافق بعض الكتاب من القدماء والمعاصرين ، لتعاون على وضع هذه الفرقة من المسامين (الإباضية) في مكانها الحقيقي من الأمة الإسلامية • واضعا في اعتباري أن الكتاب القدماء يسعهم من العذر ما لا يسع الكتاب المعاصرين وإن أخطاء أولئك في كثير من الأحيان ينتج عن عدم وجود الوسائل في حين أن جميع الوسائل متوافرة لدى الكتاب المعاصرين • أما المستشرقون فلهم دوافعهم الخاصة للكتابة عن الإسلام والمسلمين • ومناقشاتي في جميع الفصول لجميع هؤلاء قد تتأثر بهذه الإعتبارات فيتغير الأسلوب من كاتب الى كاتب •

يشتمل الكتاب على ستة أقسام غير المقدمات كل قسم يحتوى على عدد من الفصول :

- القسم الأول : مع القدماء •
- القسم الثاني : مع المعاصرين •
- القسم الثالث : مع المستشرقين •
- القسم الرابع : آراء للإباضية •
- القسم الخامس مفاهيم يجب أن تختفى •

(١) المقصود بهذه الكلمة اعتبار أى امام او ولى معصوما او كالمعصوم •

القسم السادس : ملاحظات وتعاليق *

أرجو أن أكون قد استطعت أن أضع بين يدي القارىء الذى يهيمه أمر الأمة الإسلامية جمعاء صورة واضحة لمكان الإباضية فيها ، وأن أصحح بعض الأخطاء عنها توارثتها الأجيال ، وتعاون على تضخمها التعصب من جهة ، والجمود والتفوق من جهة أخرى *

ويهمنى أن أذكر أنه يوجد خلاف بين الإباضية وغيرهم من المذاهب فى عدد من المسائل كما يوجد خلاف بين الحنفية وغيرهم والشافعية وغيرهم والمالكية وغيرهم وكما يوجد خلاف بين بقية المذاهب وبين علماء كل واحد من هذه المذاهب فيما بينهم * ولكن يهمنى أيضا أن أذكر أن هذا الخلاف فى مجموع صورة وموضوعاته إنما نتج عن أساسين *

الأول : فهم الأئمة والعلماء للدلة فى نصوصها الثابتة من الكتاب والسنة *

الثانى : حرص أولئك العلماء والأئمة على إصابة الحق فى الفهم والاستدلال والعمل بالمقاصد الحقيقية للشريعة الإسلامية * وليس فى هذين الأساسين اللذين نتج عنهما الخلاف ما يدعو الى الخصومة أو القطيعة *

نضرع الى المولى تبارك وتعالى أن يلهم هذه الأمة رثسدها ويوحد صفها وينصرها على المتربصين بها *

٢٥ مارس ١٩٧٢

الباب الأول

الإباضية في قفص الاتهام

- * مع القدماء *
- * الإباضية عند الأشعري *
- * تشنيعات الأشعري على الإباضية *
- * مقالات الإباضية عند الأشعري *
- * البغدادى والإباضية *
- * ابن حزم والإباضية *
- * أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية *
- * أبو الفتح الشهرستاني والإباضية *

الإباضية في قفص الاتهام

ان وضع الإباضية بالنسبة الى إخوتهم من المذاهب الأخرى وضع غريب • فبرغم أنهم يعيشون في بعض البلاد مندمجين مختلطين بأخوتهم من المذاهب الأخرى ، يتعاملون معهم في جميع شئون الحياة كما يتعامل بعضهم مع بعض • وتربط الكثير منهم علاقات مودة وصداقة أوثق كثيراً مما تربط أهل المذهب الواحد ، ويتصرف أولئك الإباضيون في المجتمع تصرف المسلم الطبيعي ، لا يخفى ولا يشذ شيء من سلوكهم الديني أو المدني ، ولا ينقم عليهم إخوتهم أولئك الذين يعيشون معهم في السراء والضراء ، بدعة يعرفونها ، أو انحرافاً يرونه ، أو خلافاً يدعو الى سوء الظن • رغم كل هذا فان تلك الكلمة التي أطلقتها عليهم شفة مغرضة مجهولة ، في فترة كانت السياسة تلعب فيها أهم الأدوار في توجيه الفهم لمن ينتقد انحرافها عن منهج المدول من أصحاب رسول الله ﷺ ، منذ ذلك التاريخ في العصر الأموي — فيما يبدو — والإباضية يقفون في قفص الإتهام — يقاسون ألم الجفاء من إخوتهم لأنهم — فيما ترعم تلك التهمة الظالمة — (خولج) ومن المؤسف أن أكثر الكتاب — سواء كانوا كتاب مقالات في العقائد ، أو كتاب تاريخ يتتبعون مجارى الأحداث السياسية — وقفوا بالنسبة الى الإباضية موقف المدعى العام الذي يعتقد أن نجاح مرامته يتوقف على إثبات التهمة أو قاضى التحقيق الذى يهمه أن يضع أوزار الجريمة على من سألته الظروف إليه • ووضعته التصريعات بين يديه •

فهم يضعون هذا المذهب وأتباعه في قفص الإتهام أولاً ، ويحكمون عليهم بأنهم مخطئون لأنهم خوارج ، وبعد ذلك قد يبحثون عن الأدلة ، ولكن لإثبات هذه الهمة • لا لمعرفة الحقيقة •

وعندما يتقدم الإباضية بعرض عقائدهم وآرائهم والأدلة الشرعية التى استندوا اليها ، ويبينون سيرتهم وسلوكهم ، يعتبر كل ذلك منهم

كلاما في موقف الدفاع ، لا يجوز على القاضى الذكى • فهو لا يسمعه ، ولا ينظر فيه ، واذا استمع إليه فلكى يلتقط منه جملا تعزز التهمة ، وقد يحرفها قليلا حتى تكون صالحة كدليل للإثبات •

وقد يعرض الإباضية عقيدة أو رأيا لهم بأدلته وبراهينه وهو في نفس الأمر يوافق عقيدة القاضى • ولكن القاضى يصر مع ذلك أن القوم مخطئون وأن ما يقولونه إنما هو كلام للدفاع • ثم يحكم برفض الدفاع ، وإثبات الدعوى ، لا لشيء إلا لأنهم حسبما بلغ الى علمه (خوارج) وحتى عندما يقول الإباضية عن عقيدة أو رأى أنه عندهم كفر وخروج من الملة ، فإن هذا القول لا يقبل منهم ، ويستمر إثباته لهم ومحاسبتهم عليه • وقد يبرأون من رجل ومن أعماله وأقواله ممن لا ينتمى إليهم ولكن يقال لهم أيضا : بل هذا الرجل من أئمتكم • ولو أنكرتم ذلك •

والمشكلة أن رافعى الإتهام لا يحاولوا أبداً أن يبحثوا عن الحقيقة ، ولا أن يرجعوا في تحقيقهم الى مصادر الإباضية ، وإنما يتناقشون التهمة بنصها من جيل الى جيل دون اعتبار لصراخ المتهم الموجود في القفص أو اهتمام به أو سماع لدفاعه •

وفي عصرنا هذا اهتم عدد من كتاب المقالات ، ومحققى الكتب : بشئون الفرق الإسلامية ، وعرض بعضهم فيما عرض للإباضية ، وبين يديه كتب قيمة لهم يستطيع أن يتخذها مراجع يستقى منها أقوالهم ويستطيع أن يعرف فيها أصول ديانتهم وفروعها ويصحح - متأكداً - ما يجده من أخطاء عنهم في غيرها • والى جانبه علماء فضلاء منهم في إمكانهم أن ييسروا له الوصول الى الحق ولكنه في الواقع يزور عن ذلك ، ولا يرجع الى تلك الكتب ، ولا الى أولئك العلماء ، وإنما يعود بالتفتيش الى كتب ليست لهم وإنما كتبها غيرهم عنهم من ظروف مجهولة ، وهى غالبا لا تسلّم من الأخطاء عن حسن النية إن سلمت من سوء النية ، بل هى عرضة للأخطاء من عدة جوانب منها :

١ — عدم توافر النزاهة الكاملة في الكاتب .

٢ — سيطرة آراء معينة على الكاتب تجعله غير مستعد لفهم غيرها
أو حتى مجرد مناقشتها .

٣ — كفاءة الدراسة والتحقيق قد لا تكون عنده بالدرجة التي يفرق
بها بين الصواب والخطأ .

٤ — المصادر التي يستقى منها ويعتمد عليها — سواء كانت كتباً أم
بشراً — قد تكون مغرضة ، وقد تكون مستغفلة ، وقد تكون مستغلة ، وقد
تكون جاهلة لحقيقة ما تثبت .

٥ — وسائل الإتصال التي تساعد على البحث والوصول إلى الحقيقة
بالإتصال الشخصي المباشر كانت غير سهلة ولا ميسورة .

٦ — النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وسوء الظن ، وشدة التعصب ،
وتمسك كل بما عنده والحكم مسبقاً على الآخرين بالخطأ والضلal ،
هذه المراقيل كلها أو بعضها تجعل الوصول إلى الحقيقة عسيراً حتى
بالنسبة للنزيه الحريص على الحق ، فان سوء الظن يلقي ظللاً من الشك
عليه لا تمكنه من الإطلاع .

٧ — الإشاعات الكاذبة ، والدعايات المضللة التي تنطلق عن دوافع
سياسية غالباً ، فتصل إلى ناس مسوئوق بهم ، فتجرى على ألسنتهم
أو أقلامهم ، فتتلقها منهم الأذان دون معرفة مصدرها الحقيقي ،
والدوافع السياسية الماكرة إلى الإيحاء بها .

هذه بعض الجوانب التي كانت تؤثر على الكتاب الأقدمين ، وقد

انتبه إليها بعضهم ، وعرف مدى تأثيرها على المؤلفين ، وما يتسبب عنها من أباطيل تلتصق بطوائف من المسلمين هم منها أبرياء •

يقول أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري (١) ما يلي :

« ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ، ويصنفون في النحل والديانات ، من بين مقصر فيما يحكيه ، وغالط فيما يذكره من قول مخالفه ، ومن بين معتمد للكذب في الحكاية ، إرادة التشنيع على من يخالفه ، ومن بين تارك للتقصي لروايته فيما يرويه ، من اختلاف المختلفين ، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفه ما يظن أن الحجة تلزمهم به » • فأنت ترى أن أبا الحسن الأشعري — وهو من أوائل من كتب في هذا الموضوع — قد انتقد عدة عيوب في أولئك الذين يتصدون للحديث عن مخالفهم ، كالتقصير في التحقيق ، واعتماد الكذب ، والغلط ، وعدم التقصي في البحث ، والزيادة في الأقوال لإلزام المخالفين بالحجة •

أما الشهرستاني كتابه (الملل والنحل) فهو لم يذكر نقدا بهذه التفاصيل وإنما أشار إليها من طرف خفي ، فقد قال ما يلي (٢) :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم ، ومن غير تعصب لهم ، ولا كره عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » •

وهذا الكلام يشعر أن الشهرستاني رأى كما رأى الأشعري من قبله ، عدم التحقيق فيما يقال عن الفرق ، ولذلك فقد شرط على نفسه

(١) مقالات الاسلاميين طبعة النهضة ١٣٦٩ هـ صفحة : ٣٣ .

(٢) الفصل في الملل والنحل طبعة ١٣٦٨ هـ صفة ٦٠ من الجزء الاول .

أن يأخذ أقوال أصحاب الفرق من كتبهم ، دون التعرض لنقلها أو
تصحيحها •

فهل استطاع أبو الحسن الأشعري أن يتحقق أن ما أورده عن
الفرق قد سلم من تلك العيوب التي ذكرها وعزم أن يتحرز منها ، والتي
انتقدها على غيره من المتحدثين والكتاب بقوة وجرأة تستدعيان أن تجاب !!؟
وهل استطاع الشهرستاني أن يوفى بشرطه ؟ وأن لا ينقل مقالات أهل
الفرق إلا من كتبهم ومصادرهم ؟! وأن يلتزم معها الحياد الكامل فلا
يصوب ولا يخطئ ولا يرجح ؟

ذلك ما سوف نراه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى ، ونحن
نرافق هؤلاء الأئمة العظام وغيرهم في رحلة علمية ، نستمع فيها إليهم
ونقرأ لهم ، ونأخذ عنهم • ونسترشدهم في الوصول الى الحق الذي
هو غاية الجميع •

القسم الأول

مع القدماء :

إن الذين كتبوا عن العقائد الإسلامية ، واستعرضوا مقالات الفرق فيها — من القدماء — عدد كبير ، وليس في وسع الدارس أن ينتبهم جميعاً ولا أن يستحضر كل ما قالوه ، ولكن في إمكانه أن يقوم بدراسات بعضهم ، وأن يأخذهم كأمثلة أو نماذج يستدل بها على الأسلوب أو المنهج الذي سلكوه أو سلكه أكثرهم •

وبعد دراسة لموضوع الإباضية في عدد من تلك الكتب ، واستعراض لمناهجها وأساليبها في البحث ، استقر رأيي على اختيار خمسة من المؤلفين لأقوم معهم بهذه الرحلة العلمية ، التي آمل أن يجد كل قارئ يصحبا فيها بعض المتعة إذا لم يتحصل فيها على فائدة •

وقد فضلت أن أبدأ المسير مع هؤلاء الخمسة الذين اخترتهم كنماذج حسب ترتيبهم الزمني على ما يأتي :

- ١ — أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ٢ — عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ
- ٣ — أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ
- ٤ — أبو المظفر شافور بن طاهر الأسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ
- ٥ — أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ

إننى أعتقد أن هؤلاء الكتاب هم من أشهر من كتب فى هذه
المواضيع ، وكتبهم تعتبر مصادر ومراجع لا يستغنى عنها باحث فى هذا
المجال ، وكل من جاء بعدهم إنما هو عائلة عليهم ، منهم يأخذ ،
أو على منهاجهم يسير •

• وأما الكتب فهامى حسب ترتيبهم السابق •

- ١ — مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين الأشمري
- ٢ — الفرق بين الفرق البغدادي
- ٣ — الفصل فى المسلك والنحل ابن حزم
- ٤ — التبصير فى الدين الأسفرايينى
- ٥ — المسلك والنحل الشورستانى

الإباضية عند الأشعري

قد يعجب القارئ الكريم إذا قلت له : إن أبا الحسن الأشعري رغم أنه كتب عن الإباضية كثيرا ، فإنه لا يعرف عن الإباضية شيئا ، وإن أكثر ما كتبه عنهم لا علاقة لهم به ، ولا علاقة له بهم وليتضح للقارئ الكريم هذا القول فإنني أرجو منه أن يرافقني قليلا ، وأن يقرأ الفصول المعقودة لدراسة أبي الحسن الأشعري مع الإباضية •

يقول أبو الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين) صفحة ١٧١ من الجزء الأول ما يلي :

« ومن الخوارج الإباضية :

فالفرقة الأولى منهم يقال لهم الحفصية كان إمامهم حفص بن أبي المقدام ، زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده ، فمن عرف الله سبحانه ثم كفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار أو عمل بجميع الخبائث من قتل النفس ، واستحلال الزنى ، وسائر ما حرم الله من خروج النساء ، فهو كافر برىء من الشرك » •

واستمر الأشعري يذكر أمثال هذه الشنائع لهذه الفرقة ثم قال : « والفرقة الثانية منهم يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد بن أنيسة » ثم ذكر آراء هذه الفرقة وشنائعها ، ومنها : « وزعم أن الله سبحانه سيبعث رسولا في المعجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة » • ويقول بعد أسطر : « وتولى - أبي يزيد هذا - من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوءة من أهل الكتاب ، وإن لم يدخلوا في دينه ، ولم يعملوا بشريعته ، وزعم أنهم بذلك مؤمنون • ثم يقول :

« والفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا فيه سائر الإباضية » • وبعد أن يذكر لهم جملة من الانتشيعات يقول :

« والفرقة الرابعة منهم ، يقولون بطاعة لا يراد الله بها ، على مذهب أبى الهذيل ، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله ، إذا فعل شيئا أمره الله به ، وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ، ولا أراد به » •

هكذا بدأ أبو الحسن الأشعري حديثه عن الإباضية فبمجرد ما ذكرهم بدأ فى تقسيمهم الى فرق ، وجعل ينسب الى كل فرقة جملة من الآراء والأقوال •

والقارىء الكريم عندما يبدأ فى قراءة ما كتبه الأشعري عن الإباضية يفهم أن الإباضية ينقسمون الى أربع فرق كبرى هى هذه الفرق التى ذكرها ، وأن بعض هذه الفرق قد انقسم أيضا الى فرق أخرى فرعية ، وذكر الأشعري أقوالا أخرى وشنائع أخرى نسب بعضها الى جميع الإباضية ، ونسب بعضها الى احدى تلك الفرق •

وعند الرجوع الى كتب الإباضية التى ألفت فى عصر أبى الحسن والتى ألفت قبله والتى ألفت بعده ، فإن القارىء لن يجد فيها شيئا عن هذه الفرق ، ولا عن أسمائها ولا عن آرائها ولا عن أئمتها • وخذ ما شئت من كتب السير والتراجم عند الإباضية ، التى تتقصى أخبار أئمتها وعلمائها ومشائخها ، فإنك لن تجد ولا إشارة عابرة الى أولئك الأئمة الذين ذكرهم الأشعري واعتبرهم أئمة لفرق كاملة من الإباضية •

والقرأ ما شئت فى كتب العقائد عند الإباضية ، فإنك لن تجد ذكرا لهذه الفرق ولا لآرائها ، وكل ما نستطيع أن نعتذر به عن إيراد أبى الحسن لهذه التفاصيل أنه وقع فريسة لبعض المشنعين ، فكان يتلقى مقالات

الفرق عن ناس يثق بهم ، ولكنهم ليسوا في المحل الذي يراه لهم ويضعهم فيه من الثقة والصدق . سواء كان نقله عنهم عن طريق الرواية والسماع ، أو عن طريق القراءة والإطلاع في كتب مدونة . فهو لم يشر إلى أى ذلك على كل حال .

ويكفى فيما أعتقد لنفى أن يكون ما قاله أبو الحسن عن الإباضية صحيحا جهلهم به ، وعدم ذكرهم لأى شىء منه في مراجعهم العامة والخاصة المكتوبة والمتحدثة .

يقول أبو الحسن : « فالفرقة الأولى يقال لهم الحفصية ، كان إمامهم حفص ابن أبي المقدم ، ومع كثرة ما قلبت في كتب الإباضية ومع العناية والبحث فإننى لم أعر على هذا الإسم الذى اعتبره أبو الحسن إماما من أئمتهم . ولم أعر كذلك على شىء من أخبار فرقته وآرائها . وقد نسب أبو الحسن الى هذه الفرقة وإمامها لقولا يكفى بعضها لإخراجهم من الإسلام ، والحكم عليهم بالشرك والردة ، إذا سبق أن كانوا مسلمين ، منها : إنكار النبوة ، وإنكار الجنة والنار ، ومنها استحلال الزنى وغيره مما حرمه الله ، وأشياء أخرى من هذا النوع . وهى كافية — إذا قال بها حقا — للحكم بخروجه وخروج من تبعه فيها من الإسلام . فكيف يصح أن تنسب هذه الفرقة إلى إحدى فرق المسلمين ؟ وكيف يصح أن يقال فيهم إنهم فرقة من الإباضية ؟ ! »

قد تكون هذه الفرقة موجودة ولها علاقة ما بفرقة أخرى من فرق المسلمين وقد يكون حفص هذا إماما في أية فرقة أخرى . أما أن يكون هو وأتباعه — إن وُجِدَ — وِوُجِدُوا — في الإباضية ، وأن تكون آراؤه التى ساقها أبو الحسن آراء الإباضية ، فهذا هو المستحيل بعينه . ويتصفح أى كتاب من كتب العقائد عند الإباضية سوف يتضح أن ما بها يناقض مناقضة كاملة لهذه المزاعم التى ساقها أبو الحسن على لسان حفص ونسبه ونسبها الى الإباضية .

ويقول أبو الحسن الأشعري «والفرقة الثانية يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد ابن أنيسة » وذكر فيما ذكر من آراء هذه الفرقة ما يلي : « وزعم — أى يزيد بن أنيسة — أن الله سبحانه سيبعث رسولا من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة ، فتترك شريعة محمد ، ودان بشرية غيرها وزعم أن ملة ذلك النبىء الصابئة ، وليست هذه الصابئة التى عليها الناس اليوم ، وليس هم الصابئين الذين ذكرهم الله فى القرآن ، ولم يأتوا بعد ، وتولى من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة من أهل الكتاب وإن لم يدخلوا فى دينه ولم يعملوا بشريعته ، وزعم أنهم بذلك مؤمنون » *

والغريب فى الأمر أن القارىء الكريم اذا رجع إلى مصادر الإباضية من كتب وأسماء علماء منذ أوائل القرن الثانى الهجرى الى هذا العصر فإنه لن يجد عند الإباضية هذا الإمام الذى سماه أبو الحسن الأشعري — يزيد بن أنيسة — ولا يجد عندهم ذكرا لفرقته ولا لآرائه ، بل إنهم يحكمون على من يدين بمثل تلك المقالات بأنه مشرك خارج عن الملة ، ومن كان مشركا خارجا عن ملة الإسلام ، لا يمكن أن يحسب فى فرق المسلمين * ولست أدري كيف ساغ لأبى الحسن أن يزيد — هذا اليزيد — الى الإباضية ، وأن يحشر معهم فرقته * هذا ان وجد حقا ووجدت له فرقة — وكيف ساغ له أن يحسبها فى فرق الإسلام ، وينسبها الى إحدى طوائفه وهو نفسه يحكم عليها بالخروج من الإسلام حين يقول فى الفقرة السابقة : « فتترك — أى يزيد بن أنيسة — شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ودان بشرية غيرها » ويضيف أبو الحسن الفرقة الثالثة الى الإباضية فيقول :

« الفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة وخالفو فيه سائر الإباضية * وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل » *

وهذا الحارث أيضا لم يحصر عند الإباضية ولم يزرع لا آراء ولا حبوبا ولم يحصد الإباضية عنه أو عن فرقته شيئا • ان كان حقا حرث في أى مكان •

ولو أن أبا الحسن حشر هذا الحارث مع المعتزلة لكان أقرب ما دام يقول بقولهم في القدر ، ومسألة القدر هي أم المسائل في النقاش الفلسفى الذى جرى بين المذاهب الإسلامية في وقت مبكر ، وكانت الميز الواضح بين مذاهبهم والمهم الموضوع أنه لا يوجد لهذا الحارث الذى لم يجد أبو الحسن أبا فجاء به هكذا يسوقه حتى أدخله عند الإباضية وتركه • لا يوجد عند أى الإباضية أى ذكر لهذا الحارث أو رأى أو فرقة أو نسب ، ولا حتى مرور ضيافة في مراجع الإباضية مما استطعت الحصول عليه خالية منه ومن آرائه ومن فرقته فإذا كانت حقيقته وحقيقة آرائه في الواقع كما هي عند الإباضية فإنه رجل لا وجود له ولا لفرقته أما آراؤه فهي صورة في مخيلة مشنع على الإباضية ألقاها على أبى الحسن فوثق به وأثبتها في كتابه دون نقد أو تمحيص •

ويستمر أبو الحسن في تعداد فرق الإباضية فيقول :

« والفرقة الرابعة منهم يقولون بطاعة لا يراد الله بها على مذهب أبى الهذيل » ثم يشرح هذه العبارة فيقول : « معنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله اذا فعل شيئا أمره الله به وان لم يقصد الله بذلك الفعل ولا أراد به » •

ويبدو أن أبا الحسن لم يجد لهذه الفرقة إماما ، فلم يذكر لها اماما ، وانما جاء يسوق أتباعها كما يساق القطيع حتى أدخلهم في حظيرة الإباضية وتركهم • ولو أنه سمى هذه الفرقة بالهذلية • ما دامت تقول بقوله ، لكان لذلك وجه ، لأنه لم يذكر لهذه الفرقة قولا غير القول السابق •

وعلى كل حال فهذه فرقة ليس لها امام وليس لها اسم ، وكل ما في الأمر أنه نسب إليها قولاً يناقض مناقضة كاملة ما عند الإباضية في هذا الموضوع ، فكيف تكون من الإباضية وهي تقول بما يناقض رأى الإباضية مناقضة كاملة .

والباحث إذا تأمل ما جاء عن الإباضية في كتاب « مقالات الإسلاميين » لأبي الحسن الأشعري ثم قارنه بما عند الإباضية . سواء كان ذلك يتعلق بأسماء الأئمة والعلماء ، أو بأسماء الفرق . أو بالآراء والمذاهب ، فإنه يخرج بنتيجة غريبة . وهي أن ما أتعب الإمام الكبير به نفسه ، وكتب فيه صفحات طوالاً عن الإباضية فيما يظن . لا علاقة له ألبتة بالإباضية ، وأن أولئك الأئمة الذين زعمهم أئمة لفرق منهم ، ليسوا هم ولا فرقتهم من الإباضية في قليل ولا كثير ، إذا صح هذا التعبير . أما مقالاتهم وآراؤهم فهي ليست أقرب الى الإباضية منها الى الشافعية أو المالكية أو غيرها من المذاهب الإسلامية .

ويستطيع القارئ الكريم أن يعود الى كتب التاريخ وكتب العقائد التي ألفها الإباضية قبل أبي الحسن الأشعري وبعده إذا شاء أن يتأكد ويعرف الحقيقة بنفسه . فقد ألف علماء الإباضية وأئمتهم الحقيقيون كثيراً من الكتب في التفسير والحديث والفقه بجميع فروعها ، وفي التوحيد وعلم الكلام ، وفي أصول الفقه كتباً مختلفة منها القيم الذي يعتبر من أهم مصادر الثقافة الإسلامية التي تشع نورا على مختلف العصور ويعتبر من الذخائر التي تزرع بها المكتبة الإسلامية العامة .

كما ألفوا في السير والتاريخ والتراجم ، ولا سيما سير أئمة الإباضية وعلمائهم . ولكنه ليس في شيء من هذه المؤلفات شيء مما ذكره الإمام الأشعري عن الإباضية في هذا الفصل من كتابه الكبير .

وفي عصر أبي الحسن الأشعري كان الإباضية وعلمائهم منتشرين

في جميع ما يسمى اليوم بالبلاد العربية : كالحجاز والعراق والشام وجنوب الجزيرة ، ومصر • بل إنهم كانوا يكونون أغلب السكان في المغربين الإسلاميين الأدنى والأوسط • ويوجد لهم عدد من كبار العلماء — حينئذ — في كل الحواضر الإسلامية كمكة والمدينة والبصرة وعمان وحضرموت واليمن ومصر وبلدان الشمال الأفريقي •

ومع هذا فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من أئمة الإباضية كجابر بن زيد وجعفر بن السماك العبدى ، وأبى سفيان قنبر ، وصحار العبدى وأمثالهم من أئمتهم في النصف الثانى من القرن الأول ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من أئمتهم في النصف الأول من القرن الثانى أمثال أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وضمام بن السائب ، وأبى نوح صالح الدهان ، وعبد الله بن يحيى الكندى ، والجلند بن مسعود العماني ، وأبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى وهلال بن عطية الخراسانى — وأضرابهم • ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من علماء النصف الثانى للقرن الثانى أمثال الربيع بن حبيب ، وأبى سفيان محبوب ابن الرحيل ، وأبى صفرة عبد الملك بن صفرة ، وعبد الرحمن بن رستم ، ومحمد بن يانس ، وأبى الحسن الأيدلانى وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم في النصف الأول للقرن الثالث أمثال أفلح بن عبد الوهاب وعبد الخالق المفزاني ومحكم الهوارى والمهنا بن جيفر ، وموسى بن على ، وأبى عيسى الخراسانى ، وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم في النصف الثاني من القرن الثالث ، أمثال محمد بن محبوب ، ومحمد بن عباد ، وأصلت بن مالك ، وأبى اليقظان بن أفلح ، وأبى منصور الياس وعمروس بن فتح وهـ-ود بن محكم ، ولم يذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم في النصف الأول من القرن الرابع أمثال ابن خزر يغل بن أيوب ، وأبى القاسم يزيد بن مخلد ، وأبى هارون موسى بن هارون ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم • وقد كان علماء هـ-ذه الطبقة والطبقة التي سبقتها معاصرين لأبى الحسن الأشعري ، لأنه عاش ثلاثين سنة من القرن الرابع فهو معاصر لعلماء النصف الثاني للقرن الثالث وعلماء النصف الأول للقرن الرابع ، ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من هؤلاء الأئمة أو ممن كان معاصرا لهم أو سبقهم من علماء وأئمة الإباضية المعروفين ولم يذكر شيئا من مقالاتهم •

فهو إما أنه لا يعرفهم ولا يعرف شيئا من مقالاتهم ، وإما أنه يعرفهم أو يعرف بعضهم على الأقل ويعرف مقالاتهم ، ولكنه لا يجد فيها شيئا يستدعي النقد والتعليق أو حتى مجرد العرض • فلم يتحدث عنهم وعن مقالاتهم بخير ولا بشر • فترك الإباضية الحقيقيين برجالهم ومقالاتهم ، وألقيت بين يديه مقالات وأسماء لفرق مجهولة عند الإباضية كل الجهل ، وأقوالها تناقض ما عند الإباضية كل المناقضة ، فزعمت المصادر التي استقى منها أن هذه الفرق والمقالات للإباضية باعتبارهم إباضية أو منهم ، والإباضية منها برآء بعداء ليسوا أقرب إليها من أبى الحسن نفسه •

فكيف وقع أبو الحسن في هذا الخطأ الشنيع ، مع أنه من أوائل من انتبه إلى أسباب الزيف عند كتاب المقالات ومن أوائل من شرح الطرق التي يصل منها الخطأ إلى من يكتبون عن الفرق ومقالاتها ومذاهبها ، ومن أوائل من حذر من الوقوع فيها ؟ !!

تشنيعات الأشعري على الإباضية

علمت أيها القارىء الكريم في الفصل السابق أن من ذكرهم أبو الحسن الأشعري تحت عنوان الإباضية بأئمتهم وفرقهم ومقالاتهم ليسوا في الإباضية من قليل ولا كثير ، ونضيف لك في هذا الفصل أن التشنيعات التي نسبها إلى الإباضية لا علاقة لها بهم ألبتة ، فإن كانت تلك الشنائع آراء لتلك الفرق التي ذكرها سابقا ، وأن تلك الفرق كانت موجودة بالفعل ، فإن تلك الفرق أبعد الناس عن الإباضية وأن بعض مقالاتها كاف عند الإباضية للحكم على أصحابها بالشرك .

وإن شئت المزيد من ذلك فاستمع إليه يورد أقوالا عن الإباضية تنسب إليهم قصد التشنيع عليهم .

يقول أبو الحسن :

« وقالوا من سرق خمسة دراهم فصاعدا قطع » .

« وقال بعضهم فيمن دخل في دين المسلمين وجبت عليه الشرائع والأحكام ، وقف على ذلك أو لم يقف ، سمعه أو لم يسمعه » .

« وقال بعضهم : ليس على الناس المشى إلى الصلاة والركوب إلى الحج ولا شيء من أسباب الطاعات ، التي يتوصل بها إليها ، إنما عليهم فعلها فقط » .

« وقالوا جميعهم : إن الواجب أن يستتيبوا من خالفهم في تنزيل

أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل ، كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله » •

« وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتبع فإن تاب وإلا قتل » •

« وقال بعضهم : ليس من جحد الله وأنكره مشركا حتى يجعل معه إلها غيره » •

« وقال بعضهم : بتحليل الأثرية التي يسكر كثيرا إذا لم تكن الخمر بعينها » •

هذه أمثلة من الأقوال التي نسبها أبو الحسن إلى الإباضية وظاهر أن القصد من نسبة هذه الأقوال إليهم إنما هو التشنيع عليهم وتكريههم إلى بقية فرق المسلمين وتأمل قوله « وقالوا جميعهم إن الواجب أن يستتبوا من خالفهم في تنزيل أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل » •

والتناقض واضح بين الأقوال التي ينسبها أبو الحسن إلى الإباضية أو إلى بعض فرق الإباضية حسب زعمه • وقارن إن شئت الفقرة السابقة بما يقوله عن الإباضية (١) • ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين حلال مناكحتهم وموارثتهم « ويقول بعد أسطر :

(١) يزعم هنا أنهم يوجبون استتابة مخالفيهم فمن لم يقبل قتل ثم يقول في نفس الكتاب أنهم يجوزون مناكحة مخالفيهم وموارثتهم وشهادتهم على أوليائهم وحرروا دماءهم • فكيف تقبل شهادة من يجوز قتله وكيف تربط أواصر مصاهرة مع من ترى وجوب قتله : انه التناقض الذي لا يخفى وهو كلام يستط نفسه •

« وحرام قتلهم وسبيهم » التناقض هنا واضح وقصد التشنيع ممن نسب إليهم ذلك واضح . ولست أتهم أبا الحسن كما قلت غير مرة ، ولكنى أتهم المصادر التى استقى منها والمراجع التى اعتمد عليها ، سواء كانت مصادر مكتوبة أو كانت مصادر متحدثه . ونحن نعتب على أبى الحسن وهو الذى يقرر فى أول كتابه أن كثيرا ممن يكتب عن مقالات الفرق يتعرض للكذب ، وعدم التحسرى ، وعدم التقصى فى البحث ، والغلط فى إيراد الأخبار — أن يقع فريسة سهلة رغم معرفته لذلك — وأن يقع فيما وقع فيه غيره ممن خفيت عليهم دسائس السياسة الماكرة ومكائد العصبية الفاجرة ، وأكاذيب الغلاة والمتنطمين . وهم موجودون فى كل مذهب وفرقة بلا استثناء .

ومما يدخل فى هذا الباب من تلفيق الأخبار والقصص ، للتشنيع على الفرق المخالفة ما أورده أبو الحسن فى كتابه السابق فقد قال : فى ص ١٧٥ ما يلى :

« وكان رجل من الإباضية يقال له ابراهيم ، أفتى بأن بيع الإمام من مخالفهم جائز ، فبريء منه رجل منهم يقال له ميمون ، وممن استحل ذلك ، ووقف قوم منهم فلم يقولوا بتحليل ولا تحريم ، وكتبوا يستفتون العلماء منهم فى ذلك ، فأفتوا بأن بيعهم حلال ، وهبتن فى دار التقية حلال ، ويستتاب أهل الوقف من وقفهم فى ولاية ابراهيم ومن أجاز ذلك ، وأن يستتاب ميمون من قوله ، وأن يبرأ من امرأة كانت معهم ، كانت وقفت فماتت قبل ورود الفتوى ، ولن يستتاب ابراهيم فى عذره لأهل الوقف فى جحدهم الولاية عنه — وهو مسلم يظهر إسلامه — وأن يستتاب أهل الوقف فى جحدهم البراءة عن ميمون

— وهو كافر يظهر كفره — فأما الذين وقفوا ولم يتوبوا من الموقف وثبتوا عليه • فسموا الواقفة ، وبرئت الخوارج منهم ، وثبت إبراهيم على رأيه في التحليل لبيع الإمام من مخالفيهم وثاب ميمون » •

ولم تنته القصة عند هذا الحد ، وإنما استطرد الإمام ثم عاد بعد سبعة أسطر فقال :

« ثم رجع بنا القول إلى الإخبار عن الاختلاف في أمر المرأة ، فافتقرت فرقة في الواقفة وهم الضحاكية ، فأجازوا أن يزوجوا المرأة المسلمة عندهم من كفار قومهم في دار التقية ، كما يسع الرجل منهم أن يتزوج المرأة الكافرة من قومه في دار التقية ، فأما في دار العلانية — وقد جازحكمهم فيها — فإنهم لا يستحلون ذلك فيها •

ومن الضحاكية فرقة وقفت فلم تبرأ ممن فعله ، وقالوا لا نعطي هذه المرأة المتروجة من كفار قومنا شيئاً من حقوق المسلمين • ولا نصلي عليها إن ماتت ، ونقف فيها ، ومنهم من برىء منها •

واختلفوا في أصحاب الحدود فمنهم من برىء منهم ، ومنهم من تولاهم ، ومنهم من وقف واختلف هؤلاء في أهل دار الكفر عندهم • فمنهم من قال : هم عندنا كفار ، إلا من عرفنا إيمانه بعينه ، ومنهم من قال هم أهل دار خلط فلا نتولى إلا من عرفنا فيه إسلاماً • ونقف فيمن لا نعرف إسلامه ، وتولى بعض هؤلاء بعضاً على اختلافهم • وقالوا : الولاية تجتمعنا ، فسموا أصحاب النساء ، وسموا من خالفهم من الواقفة أصحاب المرأة • وصارت الواقفة فرقتين ، فرقة تولوا الناكحة ، وفرقة ينتسبون إلى عبد الجبار بن سليمان ، وهم الذين يتبرأون من المرأة الناكحة من كفار قومهم •

وهذا خبر عبد الجبار الذي خطب إلى ثعلبة ابنته ، فسأل ثعلبة أن
بمهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسل الخاطب إلى أم الجارية مع امرأة
يقال لها أم سعيد يسأل هل بلغت ابنتهم أم لا ؟ وقال إن كانت بلغت
وأقرت بالإسلام لم أبال ما أمهرها ! فلما بلغت أم سعيد ذلك قالت :
ابنتي مسلمة بلغت أم لم تبلغ ، ولا تحتاج أن تدعى إذا بلغت ، فرد
مرة أخرى ذلك عليها ، ودخل ثعلبة على ذلك الحال ، فسمع تنازعهما ،
فنهاهما عنه ، ثم دخل عبد الكريم ابن عجرد وهما على تلك الحال .
فأخبره ثعلبة الخبر ، فزعم عبد الكريم أنه يجب دعاؤها إذا بلغت ،
وتجب البراءة منها حتى تدعى إلى الإسلام ، فرد عليه ثعلبة ذلك وقال :
لا ! بل تثبت على ولايتها فإن لم تدع لم تعرف الإسلام ، فبريء
بعضهم من بعض على ذلك » *

هكذا انتهت هذه القصة التي أخذت جهدا غير قليل من الإمام
الكبير ، وحيزا فسيحا من كتابه القيم ، ووقتاً ثميناً من أوقات القارىء
وواضح أنه ليس لهذه القصة أية قيمة ، اللهم الا إذا كانت للتسلية
والضحك ، أو عند من يجمع مشاكل الناس اليومية للتحويل والتشجيع .

يضاف إلى ذلك أن جميع أبطال القصة ناس مجهولون لا يعرف
عنهم شيء * إن أى كاتب يستطيع أن يجد عشرات القصص من هذا
النوع في الأحداث اليومية التي تجرى بين الناس ، فيختلفون
ويتخاصمون ، ويعلن بعضهم بعضاً ، ويدعو عليه بالثبور وعظائم الأمور
وقد يتضاربون فتكون نهاية مشاكلهم عند المحاكم أو حتى في السجون .
وأن كثيراً مما نراه ونسمعه في كل المجتمعات قد تكون أحداثه أكثر

عجبا وإثارة من هذه القصة التافهة التي تمنيت بحق - لو أن الإمام الكبير أبا الحسن أكرم كتابه ، ونزه قلمه عن الخوض في هذه الترهات ، وربما بنفسه عن الاندماج في هذه السفاسف المفتعلات ، والتي تتال من كرامة قائلها أكثر مما تتال من كرامة من تنسب اليهم .

ولو أن أبا الحسن لم ينسب هذه القصة إلى الإباضية لما كان لى بها شأن في الوقت الحاضر . أما وقد نسبها إلى الإباضية فأراني - وأنا أكتب عنهم في هذا الموضوع - مضطرا أن أوضح للقارئ الكريم فيها بعض النقاط .

١ - وردت في القصة أسماء عدد من الأشخاص هم : ابراهيم ، ميمون ، عبد الجبار ، سليمان ، ثعلبة ، عبد الكريم بن عجرد ، أم سعيد . كما وردت فيها أوصاف لعدة أشخاص هم : العلماء ، الإماء ، امرأة ، امرأة ثعلبة إلخ .

وهذه الشخصيات كلها مجهولة ، سواء ما ذكر منها بالإسم أو بالوصف ، ولا يعرف عنها شيء ، فما قيمة هذه المشاجرة التي تقع بين أفراد مجهولين في تحقيق علمي يراد منه إثبات آراء في العقائد ، وتصنيف فرق الأمة على أساس تلك الآراء ، إن أبا الحسن لم يذكر شيئا عن تلك الأسماء المجردة ، فهل يكفى هذا ليكونوا في الإباضية ؟ ولماذا لم يحسبوا من المالكية أو المعتزلة أو الشيعة أو غيرهم من الفرق والمذاهب الأخرى ، ثم إذا فرض أنهم كانوا حقا من أتباع الإباضية أو غير الإباضية من المذاهب فهل يكفى هذا الموقف في الشجار والملاعنة لأن يكون كل فرد من المتشاجرين صاحب رأى ورئيس فرقة ؟

٢ - إنك واجد في جميع الطوائف الإسلامية مشاجرات واختلافات من هذا النوع في كل عصر ، بل ربما تجد أحدٌ منها وأوسع مدى ، فما الذى رفع قيمة هذه المشاجرة حتى اهتم بها الإمام أبو الحسن ، وأثبتها في كتابه ؟

٣ - إن البحث عن أسماء مجردة هكذا كإبراهيم ، وسليمان ، وميمون ، في أحداث التاريخ بحث لا طائل تحته ولا يوصل منه إلى نتيجة ، ومع ذلك فقد حاولت أن أنقصى كل أسماء إبراهيم ، وسليمان ، وميمون ، وثعلبة ، وعبد الكريم ، لعلى أجد ما يربط بين أحد تلك الأسماء وبعض أحداث القصة السابقة - فيما بين يدي من مصادر التاريخ الإباضى وكتب مقالاتهم - فلم أتمكن من تحقيق هذه النزوة الحمقاء التى أخذت منى جهدا غير قليل فى البحث والتنقيب * وحاولت أن أجد قصة عند الإباضية تشبه من قريب أو بعيد أحداث هذه القصة ولو اختلفت فيها أسماء الأبطال فلم أوفق فى ذلك * وعلمت فى كتب المقالات أن بعض هذه الأسماء تنسب إليهم فرق مستقلة تحت العنوان الكبير (الخوارج) ويطلق عليها أسماء منسوبة إليهم كالثعالبة ، والعجاردة ، والميمونية *

ومن المؤسف أن الإباضية لا يعرفون شيئا لا تاريخيا ، ولا دينيا - عن قصة تنسب إليهم كادت تشغل البوليس الدولى ، مما يدل على أنهم فى الواقع لم يحضروا ذلك النزاع الواقع على بيع الإمام ، ولا النزاع الواقع فى خطبة بنت ثعلبة ، ولم يقفوا فى تلك السوق الحامية ، ولا شهدوا ذلك العرس الذى نتج عنه سيل من الشتائم ، وتبادل اللعنات * فنسبة هذه القصة إلى الإباضية من أعجب العجب - ، ونسبة

أبطالها إلى أئمة الإباضية أو علمائهم ، من أكاذيب التاريخ التي لم
تنتسر حتى بقليل من الحياء ، وإن جازت حتى على كبار الأئمة أمثال
أبي الحسن •

ولا شك أن مخترع هذه القصة إنما أراد أن يكثر من عدد الفرق
الفرعية المنسوبة إلى الإباضية حتى يظهرهم بمظهر المتشددین الذين يتنازعون
لأئمة الأسباب ، فيتحالفون ويفترقون إنسياقا وراء العواطف ودوافع
الغضب أكثر مما هو إنسياقا وراء دوافع العقيدة والدين •

وقد استطاع أن يخترع هذه القصة وأن يولد من أحداثها عددا
من الفرق أطلق عليها أسماء : الضحاكية ، أصحاب النساء • أصحاب
المرأة • الواقفة •

ومفهوم بالبداية أن شخصا ما أراد التشنيع على الإباضية فاخترع
هذه القصة ونسجها على المنوال ثم وجد أبا الحسن الأشعري وهو
يهتم بدراسة الفرق وأقوالها وآرائها فألقاها إليه فأثبتها أبو الحسن دون
تمحيص أو تحقيق • وليت أبا الحسن حين كتب هذا نسبه إلى مصدره
حتى تبرأ ساحة الإمام العظيم من أية مسئولية ، وتكون العهد راجعة إلى
أصحابها •

مقالات الإباضية عند الأشعري

لقد علم القاريء الكريم أن أبا الحسن الأشعري كان يحسب أن الإباضية يتكونون من الفرق السابقة التي ناقشناها فيها ، والتي أثبتنا للقاريء الكريم بأنه لا صلة بينها وبين الإباضية • وفي حديثه عن تلك الفرق كان يعرض - حسب ظنه - مقالات الإباضية ونحن في هذا الفصل سوف نحاول أن نكشف أن أبا الحسن في عرضه لتلك المقالات كان أيضا عرضة للانسياق مع قوم غلب عليهم حب التشنيع ، فالتجأوا إلى الغموض والإبهام حيناً ، وإلى عبارات موهمة لمعان غير محدودة أو غير مقصودة حيناً آخر ، كما تساهلوا في إضافة أقوال أو تغييرها لإثبات ما يريدون •

يقول أبو الحسن في كتابه مقالات الإسلاميين (١) وهو يتحدث عن الإباضية : « وجمهور الإباضية يتولى المحكمة كلها إلا من خرج ، ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين ، حلال مناكحتهم وموارثتهم • حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، حرام ما وراء ذلك ، وحرام قتلهم وسببهم في السر ، إلا من دعا إلى الشرك في دار التقية ودان به ، وزعموا أن الدار يعنون دار مخالفيهم - دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر يعنى عندهم •

وحكى عنهم أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ، وحرهوا الاستعراض إذا خرجوا : وحرهوا دماء مخالفيهم حتى يدهوهم إلى

(١) مقالات الإسلاميين الجزء الأول طبع مكتبة النهضة ص ١٧٠ •

دينهم ، وقالوا! إن كل طاعة إيمان ودين ، وإن درتکبى الکبائر موحدون
وليسوا بمؤمنين » ♦

ويقول فى موضع آخر من الكتاب :

والإباضية يقولون إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه
إيمان ، وأن كل كبيرة هى كفر نعمة لا كفر شرك ، وأن مرتکبى الکبائر
فى النار خالدون مخلدون فيها ♦

ووقف كثير من الإباضية فى إيلام أطفال المشركين فى الآخرة ،
فجوزوا أن يؤلمهم الله سبحانه فى الآخرة على غير طريق الانتقام ،
وجوزوا أن يدخلهم الجنة تفضلا ♦ ومنهم من قال : إن الله سبحانه
يؤلمهم على طريق الإيجاب ، لا على طريق التجويز ♦

ويقول فى صفحة ١٨٦ من نفس الكتاب :

« ومن مؤلفى كتبهم ومتكلميهم عبد الله بن يزيد ، ومحمد بن
حرب ، ويحيى بن كامل وهؤلاء إباضية » ♦

ويقول فى صفحة ١٨٩ من نفس الكتاب ما يلى :

« إلا أن الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون
إزالة أئمة الجور ، ومنهم من أن يكونوا أئمة بأى شىء قدروا عليه
بالسيف أو بغيره ♦♦

هذا أهم ما قاله أبو الحسن الأشعري عن الإباضية ومقالاتهم
بالإضافة إلى التشنيعات السابقة التى نقلت للقارىء الكريم أكثرها
فيما مضى ♦ ولعله من المهم أن أوضح للقارىء الكريم فى هذا
الفصل أن جميع الأسماء التى وردت فى الفصل الذى كتبه أبو الحسن

عن الإباضية لا علاقة لها بالإباضية فيما عدا اسمين هما عبد الله بن إباض وهو الإمام الذى ينسب إليه المذهب وعبد الله بن يزيد الفزارى كان من الإباضية وخالفهم فى بعض المسائل فانفصل عنهم وانتظم فى فرقة التكار وقد ذكر ابن النديم عددا من الكتب المنسوبة إليه منها :

كتاب التوحيد ، كتاب الرد على المعتزلة ، كتاب الرد على الرافضة ، كتاب الاستطاعة • ولا أعلم أن شيئا من هذه الكتب قد بقى فى مكان ، أما أصحاب هذه الفرقة فلم يبق لهم وجود فيما أعلم •

أما محمد بن حرب ، ويحيى بن كامل اللذان نص أبو الحسن أنهما من متكلمي الإباضية ومؤلفيهما كأنما كان يشك فى السابقين وهو على يقين فى هؤلاء ، فإنه لا يوجد لهما أى ذكر عند الإباضية فيما اطاعت عليه ، ويؤسفنى أن أرد على الإمام الكبير نصه هذا • وله أن يحشرهما فى أية فرقة أخرى أما عند الإباضية فليس لهما مكان إنه لا يوجد لهما أى أثر فى المكتبة الإباضية الواسعة التى حرصت أن تحتفظ بتراثها منذ القرن الأول فحفظت فتاوى ومراسلات الأئمة جابر وأبى عبيدة وغيرهم وحتى ما ضاع منها حفظت أسماؤها وبعض ما جاء فيها كديوان جابر وتفسير عبد الرحمن بن رستم وتفسير أبى يعقوب الوارجلانى •

إن كتب الإباضية ، التاريخية منها والشرعية لم تذكر لنا شيئا عن هذين الرجلين ولا عن مقالاتهما أو مؤلفاتهما كما لم تذكر ذلك عن سبق أن نسبة أبو الحسن إلى الإباضية • وأنا حين أؤكد للقارىء الكريم هذا النفى فإنما أؤكد فيه وصلى إليه يدى من كتب الإباضية المطولة منها والمختصرة ، ولا أدعى استقصاءها فإن ذلك من المستحيل •

وقد يقول قائل ربما ضاعت هذه الكتب في زحمة التاريخ وهذا شيء مألوف • ولا شك أن ضياع الكتب شيء لا ينكر • ولكن الكتاب إذا ألف وعرفه الناس فلا بد أن ينقل عنه أو على الأقل أن يذكر اسمه ويذكر مؤلفه • سواء أخذت منه آراء أو أقوال أو لم تؤخذ • وهذا ما لم يحدث بالنسبة لهؤلاء • فلم تذكر أسماءهم ولا كتبهم ولا بعض آرائهم ما يجعلنا نجزم بأنهم لم يكونوا من الإباضية مطلقاً بل نجزم أنهم غير معروفين عند الإباضية وحتى الذين ذكروهم في تعداد الفرق كالقبط وعبد الكافي فإنما اعتمد على غير مصادر الإباضية •

ولا شك أن الإباضية من أول المذاهب التي اهتمت بالتأليف وحرصت على الاحتفاظ بآثار الأئمة وتاريخهم وتراجمهم ، وليس فيما اطاعت عليه أى ذكر لهؤلاء الناس ، ومعنى ذلك أنهم من غير الإباضية ونسبوا إليهم خطأ • وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه أولاً في أن أبا الحسن لا يعرف الإباضية في الحقيقة وأن ما كتبه عنهم إنما نسب إليهم خطأ أو جهلاً أو قصداً للتشنيع • أما المقالات التي نسبها إلى الإباضية في عمومها والتي نقلت لك بعضها في أول هذا الفصل ، فهي مزيج مما يقره الإباضية ويقولون به ، ومما ينكرونه ويردونه ، ومما يحكمون على من يقول به بالردة والكفر ، وواضح من هذا أن ما جاء موافقاً لمقالاتهم وعقائدهم فإنما جاء عن طريق الصدفة ، لا عن طريق الدراسة والمعرفة •

ويهمنى في ختام هذا الفصل أن أؤكد من جديد للقارىء الكريم أنني أضع الإمام أبا الحسن فوق الشبهات ، وإنما انجر إليه الخطأ عن طريق من وثق فيه ونقل عنه • في عصر كثرت فيه النزعات •

ونستخلص من مناقشاتنا لأبي الحسن في الفصول السابقة ما يلي :

١ — إن جميع الأشخاص الذين اعتبرهم أبو الحسن إما رؤساء لفرق من الإباضية ومن مؤلفيهم ومنكلميهم لا وجود لهم عند الإباضية •

٢ — الإباضية لا يعرفون شيئاً عن هؤلاء الرجال ولا عن فرقهم •

٣ — الإباضية لا يعرفون أية فرقة من تلك الفرق التي نسبها أبو الحسن إليهم ولا يقولون بأكثر أقوالها •

٤ — المقالات التي نسبها — هكذا على العموم — إلى الإباضية أو إلى جمهورهم هي خليط مما يذهب إليه الإباضية • ومما يردونه ، ومما يحكمون بالشرك على معتنقيه •

٥ — بدأ الإباضية بالفعل في تأليف الكتب منذ القرن الثاني الهجري • وتسلسلت الكتب وتسلسل العلماء والأئمة إلى اليوم وليس في هذه السلاسل شيء مما نسبه إليهم أبو الحسن •

٦ — عاش أبو الحسن الأشعري في القرن الثالث الهجري وعاش ثلاثين سنة في القرن الرابع • وقد كان للإباضية إمامات بالشرق وإمامات بالمغرب واشتهر لهم أئمة وعلماء ومفسرون ومحدثون ومنكلمون ، وفقهاء في أكثر العواصم الإسلامية حينئذ ولكنه لم يذكر أحدا منهم ولم يشير إلى كتاب من كتبهم •

٧ — الفترة التي عاش فيها أبو الحسن كانت فترة ازدهار علمي للإباضية في المشرق والمغرب ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يشير إلى أحد من معاصريه من علماء الإباضية •

ومعنى هذا كله أن الإباضية الذين كتب عنهم أبو الحسن لا وجردهم لهم في الواقع ، وان الإباضية الموجـودين في الواقع والذين كانوا يعيشون كما يعيش سائر الناس لا وجود لهم فيما كتبه عنهم أبو الحسن •
 أى أن أبا الحسن لم يكتب عن الإباضيين الحقيقيين •

ومنذ ألف أبو الحسن الأشعري كتابه « مقالات الإسلاميين » ، أصبح مصدرا يستقى منه الكتاب ، ومرجعا يعود اليه المؤلفون ، فينقلون ما فيه من أخطاء وصواب ، وحق وباطل ، تارة بالنص وتارة بالمعنى ، وتارة يشيرون إليه وأحيانا يغفلون عن الإشارة •

ولقائل أن يقول إن هناك مؤلفين آخرين كتبوا في الموضوع ، في عصر أبي الحسن من قبله أيضا وهذا صحيح • غير أنني أستطيع أن أزعم أن شهرة أبي الحسن ومركزه العلمي ، ومواقفه في مجالات المحاججة والجدل جعلته يطنى على الآخرين جميعا • فأصبح أهم مرجع وأوثق حجة عند المؤلفين الذين جاءوا من بعده •

ولا يسعنى وأنا أختتم هذا الفصل إلا أن أبدي ملاحظة ربما تساعد على تبرير ما بلغ إلى الإمام الأشعري كما بلغه وذلك أنه ربما كان من طلاب جابر أو طلاب أبي عبيدة من عرف بتلقيه العلم عن أحدهما واشتهر بذلك وظنه الناس إباضيا بينما هو لم يكن من الإباضية أو أنه قال ببعض تلك المقالات فأعرض عنه الإباضية ولم يحسبوه منهم ولم يذكره في سيرهم وتوهمه غيرهم أنه منهم رغم ما يقول به •

البغدادى والإباضية

بعد أبى الحسن الأشعري بنحو قرن تقريبا جاء مؤلف آخر اهتم بالحديث عن الفرق والمقاتلات الإسلامية • هذا المؤلف هو :

عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى • وقد اشتهر بنسبته الأخيرة بين المؤلفين •

كتب البغدادى عن الإباضية كما كتب عن غيرهم من الفرق الإسلامية فى كتابه — الفرق بين الفرق — الذى حققه الأستاذ : محمد محيى الدين عبد الحميد وعلق عليه ونشره •

إن القارىء بمجرد البدء فى قراءة مقدمة كتاب البغدادى (الفرق بين الفرق) يحس كأنه داخل فى معمة حامية الوطيس وكأنه يرافق محاربا شديد المراس قد دجج نفسه بجميع أنواع الأسلحة استعدادا لدخول معركة ينبغى له أن يقضى فيها على عدد من الخصوم •

أو كأنه يقف إلى جانب شخص وضعه الله سبحانه وتعالى فى طريق الناس يوم الحساب • وأعطاه صلاحية التحكم فى مصائرهم ، فهو يقف مزهوا يمترض طريق المشورين • وكلما مرت به طائفة وجههم حسب رأيه فيهم حيث يريد ا أو صاح : أيتها الطائفة أنتم من أهل السنة مغفور لكم ، اسلكوا هذا الطريق إلى الجنة • فإذا جاءت طائفة أخرى صاح بهم أنتم من أهل الأهواء اذهبوا مع هذه الطريق إلى الجحيم ، وتبدو له طائفة مقبلة فيصيح بها بأعلى صوته أنتم يا من تسيرون هنالك إنكم معتزلة فأنتم فرقة ضالة ادخلوا النار • أما أنتم أيتها الفرقة التاسعة فقد قيل إنكم خرجتم من الإسلام فادخلوا النار وبئس القرار •

وإذا شئت أن تتضح لك هذه الصورة فما عليك أيها القارئ الكريم إلا أن تقرأ كتاب (الفرق بين الفرق) وإذا شئت أن أضع بين يديك نموذجا فلا بأس وها أنا أنقل لك فقرات مما قاله في مقدمة كتابه (١) السابق الذكر بأسلوبه القوي البليغ :

« سألتكم أسعدكم الله بمطوبكم — شرح معنى الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة ، منها واحدة ناجية ، تصير إلى جنة عالية ، وبواقبها عادية تصير إلى الهاوية ، والنار الحامية ، وطلبتم الفرق بين الفرقة الناجية ، التي لا تنزل بها القدم ، ولا تزول عنها النعم ، وبين فرق الضلال ، الذين يرون ظلام الظلم نورا ، واعتقاد الحق ثبورا وسيصلون سعيرا ولا يجدون من دون الله نصيرا ، فرأيت إسعافكم بمطوبكم من الواجب في إبانة الدين القويم ، والصراف المستقيم ، وتمييزها من الأهواء المنكوسة ، والآراء المعكوسة » .

وفي الصفحة الرابعة من الكتاب ذكر أن كتابه يشتمل على خمسة أبواب :

الأول : في بيان الحديث المأثور في افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة .

الثاني : في بيان فرق الأمة على الجملة ومن ليست منها على الجملة .

الثالث : في بيان فضائح كل فرقة من فرق الأهواء الضالة .

(١) الفرق بين الفرق صفحة « ٣ » .

- الرابع : في بيان الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منها •
- الخامس : في بيان الفرقة الناجية وتحقيق نجاتها ، وبيان محاسن دين الإسلام •

وهكذا استطاع المؤلف في إيجاز أن يقسم الناس ثلاثة أقسام قسم خارج عن الأمة الإسلامية فلا حديث له معه وقسم هو أهل الأهواء وفي هذا القسم ألف الكتاب ليكشف عن فضائهم أما القسم الثالث فهم الفرقة الناجية •

ويقول المؤلف في الفصل الأول من نفس الكتاب صفحة ١٣ بعد أن ناقش معنى كلمة أمة الإسلام وعلى من تدل - ما يلي :

من كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة أو الخوارج أو الرافضة الإمامية ، أو الزيدية ، أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية ، أو المجسمة فهو من الأمة في بعض الأحكام ، وهو في جواز دفنه في مقابر المسلمين وفي ألا يمنع حظه في الفء والغنيمة إذا غزا مع المسلمين ، وفي ألا يمنع من الصلاة في المساجد •

وليس من الأمة في أحكام سواها ، وذلك وأنه لا تجوز الصلاة عليه ولا خلفه ، ولا تصل ذبيحته ، ولا نكاحه لامرأة سنية ، ولا يحل للسني أن يتزوج المرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم •

ولا شك أن القارئ الكريم عندما يقرأ مقدمة الكتاب يتضح لديه أن المؤلف قد قرر أن يقسم الأمة إلى أقسام ثلاثة : قسم حكم بخروجهم من الملة رغم انتسابهم إلى الإسلام ، وقسم ما أوردهم إلا لذكر فضائهم والتشنيع عليهم وتلمس أخطائهم ، وإظهار ما به ضلوا في نظره •

ثم حكم على القسمين بالضلال وقذف بهم جميعا في جهنم •

أما القسم الثالث فقد حكم عليهم بالسعادة مسبقا أيضا لأنهم في نظره من أهل السنة على طريقة الشاعر الذي يقول :

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمذان ادخلوا بسلام

هكذا على العموم دون مراجعة •

وليته حين تلمس أخطاء تلك الفرق التي عزلها عن السنة وفتش عن فضائحهم رجع إلى مصادرهم ولم يأخذها من مصادر خصومهم — إن صح هذا التعبير — وهو ولا شك واجد ما يتشبه به إن كان لا يهمه إلا أن يدفع بتلك الفرق اليائسة إلى النار •

وقد كتب البغدادي عن الإباضية فيمن كتب في الفرق ومن المؤسف ان هذا المؤلف أيضا لم يهتم مطلقا بأن يتصل بأئمة الإباضية الحقيقيين وعلمائهم ولا بأن يطلع على عقائدهم ومقالاتهم في كتبهم • وإنما رجع إلى ما كتبه وقاله عنهم غيرهم ، ويبدو أنه اعتمد على أبو الحسن الأشعري كثيرا فنقل ما قاله عنهم تارة بنفس العبارة ، وتارة بتصرف قليل • على أنه لم يذكر أنه نقل عنه أو اعتمد عليه •

يقول في كتابه الفرق بين الفرق ص ١٠٣ ما يلي :

« أجمعت الإباضية على القول بإمامة عبد الله بن إياض ، واهترقت فيما بينها فرقا ، يجمعها القول بأن كفار هذه الأمة — يعنون مخالفيهم من هذه الأمة — برآء من الشرك والإيمان • وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم ، وجرموا دماءهم في السر واستطوها في العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، وزعموا

لأنهم في ذلك محاربون لله ولرسوله لا يدينون دين الحق ، وقالوا
 باستحلال بعض أموالهم دون بعض والذي استحلوه الخيل والسلاح ،
 فأما الذهب والفضة فانهم يردونها على أصحابها عند الغنيمة •

ثم افترقت الإباضية فيما بينها أربع فرق وهي : الحفصية والحارثية
 واليزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها » •

بعد هذا قال إن اليزيدية غلاة وأنه سوف يعود إليهم فيذكر
 مقالاتهم عندما يتحدث عن الغلاة وتحدث عن الحفصية والحارثية
 وأصحاب طاعة لا يراد الله بها فأوردوا عنها ما أورده أبو الحسن ثم
 قال في نفس الكتاب صفحة ١٠٦ ما يلي •

« وزعمت الإباضية كلها أن دار مخالفهم من أهل مكة دار توحيد ،
 إلا معسكر السلطان فإنه دار بنى عندهم » •

ثم ذكر ثلاثة أقوال في النفاق (١) نسبها إليهم وبعد ذلك قال :

يعد الجملة التي حكيناها عنهم شذوذا في الأقوال انفردوا بها •

منها أن فريقا منهم زعموا أن لا حجة لله تعالى على الخلائق في
 التوحيد وغيره إلا بالخبر وما يقوم مقام الخبر من إشارة وإيماء •

ومنها أن قوما منهم قالوا كل من دخل في دين الإسلام وجبت عليه
 الشرائع والأحكام ، سمعها أو عرفها أو لم يسمعها أو لم يعرفها •

(١) راجع ان شئت هذا الموضوع في الفصل مع عبد القادر شيبية الحمد .

ومنها : أن قوما منهم قالوا بجواز أن يبعث الله تعالى إلى خلقه رسولا بلا دليل يدل على صدقه •

ومنها : أن قوما منهم قالوا : من ورد عليه الخبر بأن الله تعالى قد حرم الخمر أو أن القبلة قد حولت فعليه أن يعلم أن الذي أخبره به مؤمن أو كافر •

وعليه أن يعلم ذلك بالخبر ، وليس عليه أن يعلم أن ذلك عليه بالخبر ،

ومنها : قول بعضهم ليس على الناس المشى إلى الصلاة ، ولا الركوب والمسير إلى الحج ولا شيء من الأسباب التي يتوصل بها إلى أداء الواجب ، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الواجبة بأعيانها دون أسبابها الموصلة إليها •

ومنها : قولهم جميعاً بوجوب استنابة مخالفيهم في تنزيل أو تأويل ، فان تابوا وإلا قتلوا ، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله •

وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استناب ، فان تاب ، وإلا قتل •

وقالوا : إن العالم يفنى كله إذا أمنى الله أهل التكليف ولا يجوز إلا ذلك لأنه إنما خلقه لهم •

وأجازت الإباضية وقوع حكمين مختلفين في شيء أو حد في وجهين ، كمن دخل زرعاً بغير إذن مالكة فإن الله قد نهاه عن الخروج منه إذا كان خروجه منه مفسداً للزرع ، وقد أمره به •

وقالوا : لا يتبع المدبر في الحرب إذا كان من أهل القبلة موحدا ، ولا تقتل منهم امرأة ولا ذرية ، وأباحوا قتل المشبهه واتباع مدبرهم وسبى نسائهم وذرايهم وقالوا : إن هذا كما فعل أبو بكر بأهل الردة » •

وبعد هذا يعيد قصة بيع الإمام وسوقهن الحامية التي نقلتها لك عن أبي الحسن الأشعري • ولعل القارىء الكريم يدرك بعد قراءة ما سبق أن البغدادي قد اعتمد كل الاعتماد على الأشعري ورغم حرصه على التصرف القليل فإن عبارة الأشعري بحروفها كثيراً ما تطل من هنا أو هناك • والذي يدعو إلى التأمل هو أن البغدادي قد اعتبر الإباضية من الخوارج •

وأنهم لذلك فرقة ضالة ويجب أن يقال عنها فضائح ويلتمس لها شنائع وذهب يورد تلك للفضائح أو الشنائع حيناً بدعوى أنها مقالة الإباضية جميعاً وحيناً آخر بدعوى أنها قول بعضهم أو قوم منهم •

إن البغدادي كان يعيش في القرنين الرابع والخامس ، وفي هذا العصر كان الإباضية قد عرفوا في أغلب البلاد الإسلامية من خراسان إلى الأندلس واشتهرت لهم مؤلفات في أغلب فروع الثقافة الإسلامية — لاسيما علم الكلام — ودونت تواريخهم وسيرهم وعرف علماءهم وأئمتهم في طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى أصحاب رسول الله ﷺ • كما أن أكثر المذاهب الإسلامية قد تميز بعضها عن بعض في أصولها وفروعها ، وآرائها ومقالاتها وأئمتها وعلمائها • ومع ذلك فإن أولئك الذين ذكروهم البغدادي هم أولئك الذين ذكروهم الأشعري من قبله حاشرين إياهم

في الإباضية أو الوالإباضية لا يعرفون عنهم شيئاً ولم يذكروهم لا في كتبهم
كتبهم ولا في طبقات علمائهم •

إن البغدادي قد سلك نفس المسلك الذي سلكه من قبله الأشعري
وقد علمت في الفصول السابقة أن أغلب ما كتبه عن الإباضية ونسبه
إليهم — لا يمت إليهم بصلة • وأن البغدادي وهو يسلك نفس المسلك
ويعتمد نفس المصادر هو الآخر لا يعرف شيئاً عن الإباضية • وأن كل
ما كتبه عنهم سواء كان حقاً أو باطلاً فإنما هو تشنيعات وتلفيقات إليه
عن ناس يريدون أن يوقدوا نار الفتنة ضد الإباضية ، وأن يجعلوهم
مكروهين من بقية إخوانهم المسلمين فينسبون إليهم عقائد ومقالات يبرأون
منها ومن يقول بها ، ويسوقون عنهم أقوالاً في غاية الغموض والإبهام ،
لإثارة الرأي العام ضدهم وقد يفسرون بعض الجمل أو الكلمات تفسيراً غير
صحيح ولا مقصود عند الإباضية لزرع وهم في نفوس الآخرين • ولا شك
أن أصابع السياسة الماكرة وراء كل ذلك وأن هؤلاء العلماء الذين يكتبون
إنما تلقوا معلوماتهم عن مصادر مستغلة أو مستغفلة مع العلم أن لديهم
الاستعداد الكافي لتلقى وتصديق كل ما يقال لهم عن تلك الفرق التي حكموا
عليها بالضلال مسبقاً •

ومن نافلة أن نعید هنا ما أشرنا إليه سابقاً من أن البغدادي قد زعم
كما زعم غيره أن الإباضية من الخوارج وأن هذه الفرقة من الفرق التي
لا يجوز للسني أن يصلى عليها ولا أن يصلى وراءها ، وأنه لا يجوز للسني
حسب زعمه أن يتزوج منها ، ولا أن يأكل من ذبائحها • وقد ردد هذا
الكلام في مقدمة الكتاب • وفي الفصول الختامية منه أورد هذه الأحكام
بشيء من التفصيل وزاد عليها ونسب بعض هذه الأحكام إلى أئمة عظام •

وأحسب أنه لا دعوة أشد إيقاداً لنار الفتنة ، وثقلاً لصفوف الأمة ، وتفريقاً لوحدة الكلمة وتمزيقاً لشمل المسلمين — من هذه الدعوة •

وعلى كل حال فقد طوى التاريخ البغدادى فيما قد طوى كثيراً من تلك الفرق التى كانت تملأ فراغاً ضخماً فى حياة المسلمين • وبقي كتابه يحمل آراء شاذة كما تحمل كثير من الكتب فى كثير من المذهب •

وقد عرفت الأمة المسلمة ، وخبرت وأيقنت ، النتائج والآثار التى تسبب عن العصبية المذهبية والجنسية ، والاتباع الأعمى للخطط السياسية • ورأت رأى العين وذاقته فى مرارة ما لحقتها فى جراء ذلك من اضرار •

وهى اليوم تحاول أن تجمع الكلمة ، ترد الشارد وتسكت الداعى الى الفتنة • ولكن من حين الى آخر تقوم أقلام هنا أو هناك فتعود الى ما طواه التاريخ فى اخطاء لترسمه من جديد فى بلاهة وسذاجة وغفلة •

يسر الله للعاملين المخلصين سبيل الوفاق ، وأعانهم على جمع كلمة الأمة التى فرقته المذاهب الدينية والمطامع السياسية فى العهد الماضى وتفرقتهم السياسة ، ومناصب التحكم ومذاهب الاقتصاد ، وفتنة الأسماء والألقاب ، والشعارات الكذابة فى العصر الحاضر •

وفى ختام هذا الفصل يهمنى أن أقول للقارئ الكريم إن بعض الأقوال التى نسبها الى الإباضية تحمل تكذيبها فى نفسها وهى التى نسبها فيما زعم الى فرقة من الفرق التى ألحقها بالإباضية وكذلك الأقوال التى زعم •

أن بعضاً من الإباضية أو قوما منهم كان بها فهذه الأقوال المنسوبة الى بعض أو الى قوم لا تحتاج الى تكذيب لأنها هي نفسها لم تستطيع أن تنتهز فتقف وإنما لاذت بجناح من الإباضية وأما ما نسبته إليهم جميعاً فسوف نعود إليه بالنقاش في آخر الكتاب إن شاء الله مع ما يتحصل لدينا من أقوال غيره فنؤكد ما يقول به الإباضية حقيقة ونؤكد ما لا يقولون به حقيقة ونكشف عما أورد بطريقة موهمة أو مبهمه والله المستعان .

ابن حزم والإباضية

عاش ابن حزم الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، وقد عني هو الآخر بالمذاهب الإسلامية وكتب عنها .

ويؤسفني أن أقول إن العالم الكبير لم يوفق فيما كتب عن الإباضية بل لقد تجنى عليهم في بعض الأحيان * وكلامه أحياناً — يهدم بعضه بعضاً ما كما أن بعض دعاويه لا يمكن أن تصدق — مهما حاول الإنسان أن يجد لها مبررات — والى القارئ الكريم الأمثلة .

يقول في كتابه (الفصل في الملل والنحل) صفحة ١٨٨ ما يلي :

« ذكر بعض من جمع مقالات المنتمين الى الإسلام أن فرقة من الإباضية رئيسهم رجل يدعى فريد بن أبي أنيسة — وهو غير المحدث المشهور كان يقول : إن في هذه الأمة شاهدين عليهما : هو أحدهما ، والآخر لا يدري من هو ولا حتى متى هو . ولا يدري لعله قد كان قبله ، وأن من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله الى العرب لا إلينا كما يقول العيسوية في اليهود ، قال : فإنهم مؤمنون

أولياء الله تعالى وإن ماتوا على هذا العقد ، وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى ، وأن دين الإسلام سينسخ بنبيء من العجم يأتي بدين الصابئين • وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة • »

ويعقب العالم الكبير على هذا بقوله : « قال أبو محمد : ألا إن جميع الإباضية يكفرون من قال بشيء من هذه المقالات ، ويتبرأون منه ، ويستحلون دمه وماله » •

والعجيب في الأمر أن حزم يقرر أن جميع الإباضية لا يقولون بشيء من آراء ابن أنيسة هذا ، ويحكمون على من قال شيء من هذا بالكفر ، ويستحلون دمه وماله ، فكيف ساغ عنده إذن أن يسوق هذا الرجل وطائفة : أولا في فرق المسلمين وهم ينكرون المعلوم من الدين بالضرورة ، ثم لم اختار أن يجعلهم من الإباضية • وجميع الإباضية كما يقرر هو نفسه يكفرون من يقول بذلك • هل بينهم وشيجة نسب ، أو علاقة مصاهرة ، أم نزع عرق أم رابطة صداقة بريئة مجردة •

إنه لا شيء من ذلك طبعاً ولكن بعض المتعصبين المشنعين البذيين لا يزنون ما يقولون ، أطلقوا هذه الأكذوبة فنقلها ناقلون ومنهم العالم الكبير ابن حزم ولكنه اضطر معها أن يقرر موقف الإباضية منها فعقب بملاحظته الصائبة ربما استناداً إلى معرفته الشخصية أو إلى ما ذهب إليه من سبقه كالبغدادي الذي اعتبر هذه الفرقة خارجة عن الإسلام •

والحقيقة أن أمثال هذا التخليط والتناقض سبق أن أوردنا له أمثلة عن بعض كتاب المقالات السابقين • كان المفروض من ابن حزم بما اشتهر به من الذكاء ، ودقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع ، ولذاغة النقد

الذى يبلغ الى حد القسوة أحيانا — ألا ينزلق فيما انزلق فيه غيره ،
وأن ينظف كتابه من هذه الترهات الفارغة التى تكذب نفسها ، وليس لها
من قيمة اللهم إلا زيادة الصفحات فى الكتاب الذى ترد فيه * .

وليت ابن حزم اكتف بهذه الفقرة بعد أن كذبها ولكنه استمر فى
الطريق * .

قال ابن حزم فى نفس الكتاب :

« وقالت طائفة من أصحاب حارث الإباضى أن من زنى أو سرق
أو قذف فإنه يقام عليه الحد ، ثم يستتاب مما فعل ، فان تاب ترك ،
وإن أبى التوبة قتل على الردة » * .

وقد سبق أن ناقشنا هذا القول الذى نقله ابن حزم ولم يسندده
وأوضحنا بما فيه الكفاية أن الإباضية لا يعرفون هذا الحارث ولا فرقتة
وأن حكم الإباضية على الزانى والسارق والقاذف هو حكم
الله وحكم رسوله عليهم * رجم للمحصن وجلد لغير المحصن ، وقطع
من الرسخ للسارق ، وجلد للقاذف * بشروط مفصلة فى كتب الفقه * وقد
وقعت حوادث أقام فيها أئمة الإباضية الحدود على من وجبت عليه ، أثناء
إماماتهم * المشرق أو المغرب ذكرتها كتب التاريخ والوقائع مفصلة فى
مناسباتها * ولم يذكر أحد أن أئمة الإباضية تجاوزوا حدود الله فى إقامة
الحد فقتلوا من لا يلزمه القتل * والإباضية لا يحكمون على من لزمه
الحد بالردة تاب أو لم يتب * وإسناد هذا القول إليهم كذب عليهم *
وكل ما عند الإباضية فى الموضوع أنهم يبرأون من مرتكب الكبيرة سواء
كانت من الكبائر التى تقام عليها الحدود أو كانت من الكبائر التى
لا حدود عليها * والبراءة إنما يوقعونها على مرتكب المعصية (الكبيرة)

• مادام مصرا عليها ولم يتب • فإذا تاب منها أسبغوا عليه ثوب الولاية •
 وأعتقد أن هذا الموقف هو الموقف الذي يتخذه كل مسلم حريص على
 إسلامه وكيف يستطيع المسلم التقى الورع أن يضى محبته وولاءه على
 إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر عليها

والشخص الذى يقام عليه الحد لا يخلو إما أن يقام عليه الحد
 بعد اعترافه وإعلانه للتوبة (كما عز) مثلا فهذا لا يختلف اثنان فى
 صدق توبته ووجوب ولايته • وإما أن يجب عليه الحد ويقام وهو مصر
 على معصيته ولا يعلن التوبة مما ارتكب وهذا لاخلاف بين اثنين من
 الإباضية فى وجوب البراءة منه فما كان لمؤمن صادق الإيمان أن يضى
 محبته وولاءه على إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر على ذلك • ولنا
 أظن أن الحد فى حالة التوبة تطهير وفى حالة الإصرار عقوبة وفى كلتا
 الحالتين لا يتجاوز تقدير الشارح فيه • ولا فرق بين من أقيم
 عليه الحد من العصاة ومن لم يقم عليه بل إن الكبائر كلها ما كان عليه
 حد وما لم يكن — عند الإباضية موجبة للبراءة وليس أكثر من البراءة
 ومعنى البراءة هى البغض والجفاء فى الله بسبب ارتكاب المعصية وعدم
 الدعاء بالمغفرة والرحمة للعصاة وليس أكثر من ذلك •

ولو عنى الإمام ابن حزم نفسه قليلا لعرف حقيقة أحكام الإباضية
 وسيرتهم — ولا سيما وقد عاش فى الأندلس — وقد كانت الدولة
 الرشيدية قائمة فى الجزائر قبل ذلك بقليل وسيرة أئمتها كانت حينئذ
 لا تزال متناقلة بين الألسنة ، وطرق إقامة الحدود وإجراء الأحكام فى
 تلك الدولة كان مما يقصه الناس بعضهم على بعض ويتحدثون به ، كما
 كان فى إمكان الإمام ابن حزم أن يحصل فى ذلك الحين على بعض

الكتب الفقهية ويعرف منها رأى الإباضية الحقيقى • إقامة الحدود ولكن الإمام ابن حزم انساق فى التيار السابق ، تيار المسخط على ما حسبه فرقا مخالفة بدافع شديد لا شعورى يقويه المسخط ورغبة ملحة فى التشنيع على تلك الفرق • وقد أضاف إلى ما ذكره فى كتابه من تلك الشنائع المختلفة شنائع أخرى زعم أنها من مشاهداته •

قال فى كتابه (الفصل فى الملك والنحل) صفحة ١٨٩ ما يلى :

« وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ، ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ، ويوجبون القضاء على من نام نهارا فاحتلم ، ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها ، إلا قليلا منهم » •

لا شك أنه يقول هذا الكلام إرادة للتشنيع على الإباضية وسوف نناقش هذه المسائل فى فصل « مسائل فقهية اجتهادية » وفى باب التشنيع أيضا ما يقوله فيما بعد فتأمله فيما يلى :

قال ابن حزم : فى (الفصل فى الملك والنحل) ص ١٩١ ما يلى :

« وإلى قول الثعالبة رجع عبد الله بن إياض فبرىء منه أصحابه فهم لا يعرفونه اليوم ، ولقد سألت من هو مقدمهم فى علمهم ومذهبهم عنه فما عرفه أحد منهم •• » وهذا القول من ابن حزم من أغرب الأقوال وإن كان قد تردد على كثير من الألسنة والأقلام ، من هم الثعالبة ؟ وما هو قولهم الذى رجع إليه عبد الله بن إياض ولماذا رجع ؟ وهل رجع فى قول واحد أو فى عدد من الأقوال ؟ وما هى تلك الأقوال

التي رجع فيها ابن إياض إلى قول الثعالبة ؟ وهل رجع إليهم في قول واحد أم أنه رجع إليهم في جميع أقوالهم ؟ أسئلة حائرة وليس لها جواب عند ابن حزم ولا عند غيره ممن أورد هذه الدعوى من أولئك الكتاب الذين يختطفون الإشاعات دون تثبيت ثم يروجون لها وهي من أقوى الأدلة على أنهم يكتبون عما لا يعرفون أو على الأقل عما لم يتحققوا من صحته • كيف عرف ابن حزم أن ابن إياض رجع إلى قول الثعالبة ؟ أين وجد أن أصحابه برئوا منه : ومن هو هذا المقدم الذي معه ابن حزم بالتحقيق فوجده لا يعرف شيئا عن إمامته ؟ إنها سلسلة من الدعاوى والادعاءات الواهية المتداعية يهدم بعضها بعضا • والمؤلف فيها جميعا لا يشير إلى المصادر التي اعتمد عليها •

ابن حزم يزعم أنه سأل من هو مقدمهم في علمهم ومذهبهم فلم يعرفوا شيئا عن ابن إياض • فكيف علم أنهم يبرأون منه ، وهل يعقل أن يبرأ ناس من شخص لا يعرفونه ولا يعرفون عنه شيئا !

هل اهتم العالم الكبير حقا بالتثبت أو ذهب يسأل عن الإباضية وإمامهم ؟ أم هي صورة من نسج الخيال يقصد منها التشنيع دون معرفة شيء حقيقي ؟ لو أراد ابن حزم التحقق لاستطاع الاتصال بعلماء الإباضية بالفعل ولذكر أسماء أولئك العلماء أو المقدمين الذين يعتبر قولهم حجة في الموضوع • أو أن يطلع على كتبهم ويستمد منها الحقائق التي تناقش ولا تنكر وفي الصورة السابقة يبدو لى أن ابن حزم سمع عن ينتسب إلى الإباضية في الأندلس وقد يكون من سمع عنه من العوام وقد يكون صاحب سسطة أو ثروة اشتهر بسببها بين الناس فذهب إليه ابن حزم يسأله عن إمامه ابن إياض فلم يجد عنده شيئا •

ولو سلطنا هذا المسلك اليوم - على انتشار الثقافة - مع ثمانين في المائة من أتباع المذاهب لكانت النتيجة واحدة شبيهة بما توصل إليه ابن حزم فلو أنك أخذت تردد السؤال من هو محمد بن إدريس ؟ على من يصادفك من أتباع الشافعي بل على بعض المقدمين من التجار وأصحاب المزارع الكبيرة وغيرهم لما وجدت عند الكثير منهم ما تريده من المعارف ، ولا يزيد الكثير منهم على أن يردد ذلك السؤال في لهجة فيها استغراب وأحسنهم حالاً من يضيف إلى ذلك فيقول لك هو إمامنا العظيم أو هو الإمام العظيم أو إمام المذهب الشافعي أو ما يشبه هذا مما لا غناء فيه . فهل نستطيع أن نبنى على ذلك حكماً ونقول لقد سألنا عن الشافعي أتباعه أو بعض المقدمين من أتباعه فلم يعرفوا عنه شيئاً .

لم يزعم أحد من الإباضية أن عبد الله بن إباض رجع الى قول الثعالبة ولا يوجد أحد من الإباضية يبرأ منه فهم مجمعون على ولايته ويعتبرونه من أئمة المسلمين ومن كبار التابعين ويحفظون سيرته وقد دونوها في كتبهم ويعرفون الكثير من أقواله في القضايا الشرعية وهم مع ذلك لا يرفعونه الى مكانة التقديس ، كما لا يرفعونه الى مكانة التقديس أى شخص غير معصوم . ويرون أن في أقواله كما في أقوال غيره من الأئمة مأخوذاً ومتروكاً . صواباً وخطأ . ولا ينزهونه عن هذه المرتبة أى إمام سواء كان من أئمتهم أو أئمة غيرهم ويحتكمون في كل شيء الى الدليل حتى اشتهرت بينهم هذه العبارة (يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال) فدعوى أن ابن إباض رجع الى قول الثعالبة وإن الإباضية يبرأون منه هي الأخرى دعوى تحاول أن تلحق بركب التشنيمات التي تنسب الى الإباضية وأئمتهم . الغريب حقاً من كتاب المقالات أنهم

ينسبون الى الإباضية من ليس منهم ويعتبرونهم أئمة ورؤساء فرق لهم
ويحونون أئمتهم الحقيقيين فيلحقونهم بطوائف أو فرق أخرى ولعله مما
يرفه على القارىء أن نختم هذا الفصل بما يلي :

قال ابن حزم في كتابه (الفصل بين الملك والنحل) ص ١٩١ ما يلي :

« ومن حماقاتهم قول بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد ، فانه كان
يقول : كل ذنب صغير أو كبير ، ولو كان أخذ حبة من خردل بغير حق ،
أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهي شرك بالله » .

هذه كما يرى القارىء الكريم ليست من حماقات الإباضية ، وإنما
هي من حماقات العالم الكبير ابن حزم الأندلسي ، وللعلماء الكبار
حماقاتهم . من هو هذا البكر الذى لا يعرف أبوه ولا أمه ولا حتى
عصبة أبيه وإنما ينسب الى أخواله . ثم يكون هذا البكر المجهول النسب
إماماً له أقوال يعتمد بها وتذكر في الكتب ثم إن العالم الكبير ابا محمد
ابن حزم وهو يصنف المسلمين على فرق يعثر على هذا الرجل فلا يجد
له مكاناً ثم يأتى به يسوقه حتى يجد فراغاً بين صفوف الإباضية فيلقيه
هناك ثم ينسبه إليهم ثم يلقى عليهم تبعة حماقاته .

الواقع أنه لا أسخف في التشنيع على الناس من هذا المستوى ، إن
الإباضية لا يعرفون هذا الشخص المجهول ، ولا يعرفون أقواله ، ولا
يسودون بها بياض صحفهم ، وينزهون كتبهم عن مثل هذه الأضاليل .
والدعاوى الفارغة ، والمقالات الشاذة ، وهم أحرص على أوقاتهم وأوقات
قراءتهم أن تضيع في مثل هذه الحماقات التى تعاون على نسج خيوطها :
التعصب والانغلاق ، والدعاوية الفاجرة ، والخيال السقيم ، وعدم الأمانة في النقل

والشهادة ، ثم توجيه السياسة الماكرة بأساليبها المختلفة ، فوقع ضحية لذلك جماعة من أفذاذ العلماء أمثال ابن حزم الذي نتحدث عنه وبعض من سبقه أو سوف نشير إليه ، وجازت عليهم تلك الأخطاء كلها رغم ادعائهم الحذر والحيطه •

ونحن في الواقع قد نلتمس للأقدمين عذرا إذا قصرُوا في الوصول الى الحقائق بسبب ما أشرنا إليه من العوائق • أما المعاصرون الذين يعنون أنفسهم للكتابة عن غيرهم فليس لهم أى عذر في التقصير ، لسهولة المواصلات ، ويسر المراجع ، وزوال الضغوط المادية والمعنوية من طرق الباحثين ، مشاهداتهم عيانا للأضرار التي لحقت الأمة المسلمة بسبب التشتت والفرقة ، وإدراكهم أن التشتت والفرقة إنما نتج عن تشدد أصحاب المذاهب الفرق في استمسكهم بأراء أئمتهم ، ونقمتهم ومحاربتهم لكل من يخالفهم ، مما يولد رد الفعل الأشد عصبية والأكثر انغلاقاً •

عسى الله أن يلهم الأمة المسلمة رشدها ، ويجمع صفها ، ويعيدها الى المحجة البيضاء ، تحافظ على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقتدى بأصحابه في هديهم ، وتعتبر بقية الأئمة والعلماء إنما هم جنود خدموا الشريعة الإسلامية حسب اجتهاداتهم وفهمهم ، يصدر منهم الصواب والخطأ ليس من حقنا أن نزيد أعمالهم أيهما أرجح ولا أن نفاضل بينهم ، وإنما علينا أن نأخذ من أقوالهم ما أيده الدليل من كتاب أو سنة باعتبار قوة الدليل لا باعتبار صدوره من إمام معين • وليس لنا أن نخرج غيره ممن لم نأخذ بقوله ، لأننا لا نأخذ بأقوال الناس وإنما نأخذ بأحكام الله • ولسنا على أحد ممن مضى بمسيطرين •

أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية

من علماء القرن الخامس الذين كتبوا عن فرق الأمة الإسلامية :
 أبو المظفر الاسفرايينى • وقد كتب عن الإباضية فيمن كتب عنه من
 الفرق والقارىء الكريم حين يقرأ كتاب أبى المظفر يجده صورة أخرى
 باهتة للبغدادى • فهو يدخل الموضوع كما يدخل محارب متحمس الى
 ساحة معركة حربية حاسمة يتقابل فيها خصمان عنيدان • وهو يعد قبل
 ذلك كل ما يستطيع من أسلحة ، أو كل ما أوتى من قوة لينتصر الفريق
 الذى يريده ويحطم خصمه تحطيماً لا يقوم من بعده •

بهذه الروح يبدأ أبو المظفر كتابه (التبصير) وفي المقدمة قسم
 الأمة الإسلامية الى قسمين : حكم بالهدى والاستقامة ثم الجنة لقسم
 وحكم بالزيغ والضلال ثم النار للقسم الآخر • وهى صورة تكاد تكون
 طبق الأصل مما عند أستاذه البغدادى • وليس يهمنا فى هذا الفصل —
 بطبيعة الحال — إلا حديثه عن الإباضية •

قال فى كتابه التبصير طبعة ١٩٥٥ ص ٥٦ ما يلى :

« الفرقة السادسة الإباضية ، وهم أتباع عبد الله بن إباض • ثم هم
 فيما بينهم فرق ، وكلهم يقولون إن مخالفتهم من فرق هذه الأمة كفار
 لا مشركون ولا مؤمنون ، ويجوزون شهادتهم ، ويحرمون دماءهم فى
 السر ، ويستبيحونها فى العلانية ، ويجوزون مناكحتهم ويثبتون النوارث
 بينهم ، ويحرمون بعض غنائمهم ، ويحللون بعضها • ويحللون ما كان من
 جملة الأسلاب والسلاح ويحرمون ما كان من ذهب أو فضة ،
 ويردونها الى أربابها » •

بعد هذه المقدمة الصغيرة التي سبقه إليها البغدادي وأبو الحسن
 انتقل الى ذكر الفرق السابقة التي ذكرها من قبله أبو الحسن والبغدادي
 والعبارة في الغالب عبارة البغدادي مع تصرف بسيط ووضح التصنيع بعد
 أن ذكر تلك الفرق ومقالات كل منها بما فيها من شذاعات وأباطيل كما
 عرضناها من قبل . عرض الى قصة الجارية التي نقلناها بتفاصيلها عن
 أبي الحسن . وقد اختصرها الاسفراييني ولم يهتم بها اهتمام الأشعري
 والبغدادي . والإسفراييني فيما كتبه عن الإباضية في هذا الكتاب لم
 يبذل هو الآخر أى مجهود لمعرفة أى شئ حقيقى عن الإباضية .
 وإنما انساق مع تيار من سبقه ممن كتب عنهم من غيرهم فاعتبرهم فرقة
 من فوق الخوارج كما فعل الأشعري والبغدادي وابن حزم من قبله ثم
 نسب إليهم تلك المقالات التي رأيتها عند الأشعري ، وجعل من أئمتهم
 أولئك الأشخاص الذين نسبهم إليهم من سبق دون تحقيق أو تمحيص
 أو تعليق هو كل ما امتاز به عن سابقيه أنه تتملكه — أثناء كتابه — من
 حين الى آخر ثورة غضب عارمة فيصب على تلك الفرق وأصحابها سيلا
 من الشتائم واللعنات .

وقد أحس محقق الكتاب الشيخ محمد زاهد الكوشى بملاحظتين
 عن مؤلف الكتاب — قال في مقدمته للكتاب من ١٣ ما يلى :

« والمصنف رحمه الله استوفى في هذا الكتاب — في غير إملال ولا
 إخلال — بيان عقائد أصحاب الملل والنحل ببعض عنف في بعض المواضع » .
 ويقول بعد أسطر :

« وقد غمز الرازى في الأجيبة النجارية أبا منصور البغدادي

بالتعصب والقسوة ، وأبا الفتح الشهرستاني السارى وراءه بذلك أيضا ،
ولكن الثانى ألطف لهجة بكثير » •

ويقول بعد أسطر :

وقصارى ما يؤخذ به علماء هذا الشأن عدم التثبيت فى « عزو الأقوال
كما سبق » • والقارىء الكريم حين يقرأ هذه الفقرة الأخيرة من كلام
الشيخ الكوثرى يدرك أن الشيخ قد رأى أن أقوالا تنسب الى غير أصحابها ،
وأن ناسا يقولون ما لم يقولوا كما أنه اقتنع بملاحظة الرازى على بعضهم
شدة التعصب وعبارة شيخنا الكوثرى الناعمة التى تشير الى الملاحظات
السابقة تحمل معنى الاعتذار عن هذا التصرف من علماء هذا الشأن وكأنه
لا يرى فى ذلك كبير يأس بل إنه حاول أن يبرر موقفهم العنيف ضد الفرق
المخالفة • ويبدو لى أن هذه النقطة بالذات — نقطة عدم التثبيت فى عزو
الأقوال — نقطة مهمة • فان عدم التثبيت فى نسبة الأقوال الى
أصحابها وعدم التحقق من معرفة ذلك معرفة صحيحة • يؤدى الى نسبتها الى
قوم هم برآء منها • وقد يؤدى ذلك الى الحكم على ناس بالفسق أو الكفر
أو البدعة أو الضلال • وهم أبرياء من ذلك وأصح عقيدة ممن يرميهم
بذلك •

وفى الصفحات السابقة أوضحت للقارىء الكريم أمثلة كثيرة فى
عدم التثبيت والتحرى فيما نسبه بعض الكتاب الى الإباضية وأن بعض
ما نسبوه إليهم على أنه من مقالاتهم يحكم الإباضية على القائلين به بأنه
مرتد كافر ، أبو المظفر كما أثرت فى السابق كان متأثرا بالبغدادى متأثرا
كبيرا ويظهر هذا واضحا جليا فى أسلوب الكتابة وفى المنهج الذى سلكه
وفى الحنق الشديد على أصحاب الفرق والمقالات التى تناولها • وفى

العنف الذى طبع أحاديثه به • وفى عدم التحرز من الحكم عليها بأحكام
المشركين الى درجة التبجح بذلك • ثم المغالاة فى مدح الفرق الموافقة
الى درجة الإعتزاز والافتخار بالملوك الظالمين وما شادوه من أبنية وأزهقوه
من أرواح •

يقول الاسفرايينى فى كتابه التبصير ص ١٧٦ وهو يعدد ماثر أهل
السنة ما يلى :

« وأما أنواع الاجتهادات الفعلية التى مدارها على أهل السنة
والجماعة فى بلاد الإسلام فمشهورة مذكورة ، مثل المساجد والرباطات
المتبته فى بلاد أهل السنة • إما فى أيام بنى أمية وإما فى أيام بنى العباس ، مثل
مسجد دمشق المبني فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان سنيا قتل فى
أيامه ، ما شاء الله من الخوارج والروافض » •

ويقول بعد أسطر :

« وكان بعض المصريين يتغلبون ويسعون فى عمارة شىء منه ولكن
لا موقع لسا كانوا يفتونهم مع سوء اعتقادهم » •

وبقطع النظر عن دين الوليد بن عبد الملك الذى يقول عنه أكثر
المؤرخين أنه كان جبارا عنيدا كما جاء فى مروج الذهب للمسعودى
ص ١٦٦ من الجزء الثالث ما يلى :

« وكان الوليد جبارا عنيدا ظلوما غشوما » •

فإن الوليد توفى سنة ٩٢ والمذاهب التى يطلق عليها لفظ أهل السنة

لم توجد بعد فإن أبا حنيفة كان حينئذ غلاما ومالك كان ابن سنة واحدة • أما الشافعي وأحمد فلم يولدا بعد • فلو فرض أن الوليد قدم من أعمال الخير ما يعتز به المسلمون أو يذكرونه في مقام الاحتجاج فإن ذلك يكون سابقا لمنشأة المذاهب والفرق ولا حق فيه لهم ودعوى أنه كان سنيا دعوى لا تقوم على أساس ، ولو صح هذا لكان الاعتزاز بعمر بن عبد العزيز أولى وأحق • وإذا افتخر أهل السنة بما قام به الملوك والأمراء ونسبوه إلى أنفسهم فهل يعتبر من أعمال أهل السنة المنجنيقات التي وجهت إلى الكعبة والأعمال الوحشية التي قام بها قادة الدولة الأموية في المدينة المنورة مثلا • لا شك أن القارئ الكريم يلحظ هنا أصابع السياسة الماكرة وهي توجه أقلام العلماء في دهاء لما تريده فتزين أعمال الدولة الأموية وتعتبرها من أمجاد أهل السنة بينما تتثنى إلى ما يشابه تلك الأعمال لما قام به العبيديون فأسقطوه من الحساب بدعوى فساد نياتهم •

هذا بعض ما تفعله السياسة الماكرة في توجيه الأقلام •

أما تعبير المؤلف عن الوليد : « وكان سنيا قتل في أيامه ما شاء الله من الخوارج والروافض » فيوهم أنه إنما اعتبر الوليد سنيا لأنه آمن قتل الروافض والخوارج • ولا شك أن الإمعان في قتل المسامين لمخالفتهم في قول أو رأى يناقض السنة ولا يكون دليلا على التمسك بما ما لم يكن إقامة لحد من حدود الله • وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » • وإذا جاز له أن يعتبر الوليد بن عبد الملك سنيا وأعجبه أنه قتل في أيامه

(م ٥ - الاباضية)

ما شاء الله من المسلمين الآخرين أفلا يعتبر الحجاج أيضا سنيا ويعجبه أيضا العدد الهائل الذى قتله الحجاج قال المسعودى فى مروج الذهب صفحة ١٧٥ من الجزء الثالث ما يلى :

« وأحصى من قتله سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا ، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد » .

أبو الفتح الشهرستانى والإباضية

اشتهر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد ذاع صيته بين كتاب المقالات فى العقائد ، ويعتبر كتابه (الملل والنحل) من أهم المراجع فى هذه المواضيع وكثير من كتاب اليوم يعتمدون عليه كصدر محقق ثابت لا يناقش . ويهمنى أن نرافق هذا المؤلف الكبير بعض الوقت لنستجلى موقفه ، ونرى هل استطاع أن يتجنب الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه ؟

يقول أبو الفتح فى كتابه (الملل والنحل) الجزء الأول من الطبعة الأولى لمكتبة الحسين التجارية ص ٤ ما يلى :

« ومن المعلوم الذى لا مرأى فيه أنه ليس كل من عبر عن غيره بمقالة ما فى مسألة ما عد صاحب مقالة » .

ويقول : صفحة ٦ ما يلي :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته
كتبهم من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من
فاسده ، وأعين حقه من باطله » .

فهل وفى أبو الفتح لما خطه لوضع كتابه . وشرطه على نفسه
من استقاء الآراء والعقائد من مصادر أصحابها ؟

يؤسفنى أن أقول أنه لم يفعل ذلك ، وأنه سلك نفس المسلك الذى
متر به سابقوه ، فهو يبحث عن أسماء الرجال وينسب إليهم الأقوال
ليبلغ بعدد الفرق إلى اثنتين وسبعين فرقة يدفعها جميعا — محسنها
ومسيئها — إلى النار ويستخلص منها الثالثة والسبعين فيقودها إلى
الجنة . وقد اعتمد فى ذلك كله على من سبقه من أصحاب الكتب التى
ناقشنا بعضها وإن كان قد خالفهم فى جزئيات يسيرة ربما عرضنا لبعضها
فى نهاية هذا الفصل .

وعد أبو الفتح أنه سيذكر الفرق بتجرد ، وأنه لا يصحح ولا ينتقد ،
ولا يصوب ولا يخطئ ، ولا يميز بين الصحيح والفاسد ، والحق
والباطل ، ولكنه ناقض نفسه من الخطوة الأولى . ومن مقدمة الكتاب
جرد سيفه وجعل ينظم صفوف الفرق ويصفها فى طوابير طويلة تمتد
جذورها فى أعماق التاريخ من عصره إلى عهد إبليس متخذة فى كل
عصر مظهرا مناسباً من موقف إبليس إلى موقف المشركين المنافقين إلى
موقف الفرق الضالة ، ويحاول أن يربط العلاقات الوثيقة بين هذه الفرق
الضالة وأسلافها فى نظره من المنافقين أو المشركين أو الشياطين . وهو

يرجع جميع الفرق الضالة في نظره إلى أصول أربعة • يقبول في صفحة ١٠ من كتابه ما يلي : « فاللعين الأول لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل لزمه أن يجرى عليه حكم الخالق في الخلق أو حكم الخلق في الخالق ، والأول غلو والثاني تقصير ، فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية والتناسخية والمشبهة والغلاة من الروافض حيث غلوا في حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات الجلال • وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة حيث قصرُوا وصفه تعالى بصفات المخلوقين ، فالمعتزلة مشبهة الأفعال والمشبهة حلولية الصفات وكل واحد منهم أعور بأى عينية شاء ، فإن من قال إنما يحسن منه ما يحسن منا ، ويقبح منه ما يقبح منا ، فقد شبهه الخالق بالخلق • ومن قال يوصف البارئ بما يوصف به الخلق ، أو يوصف الخلق بما يوصف به البارئ تعالى عز اسمه فقد اعتزل عن الحق •

وسنخ القدرية طلب العلة في كل شيء وذلك من سنخ اللعين الأول إذ طلب العلة في الخلق أولاً والحكمة في التكليف ثانياً • والفائدة تكليف السجود لآدم عليه السلام ثالثاً • وعنه نشأ مذهب (الخوارج) إذ لا فرق بين قولهم لا حكم إلا الله (١) ، ولا يحكم الرجال ، وبين قوله لا أسجد إلا لك • أسجد لبشر خلقته من صلصال • وبالجملة (كلا طرفي قصد الأمور ذميم) (فالمعتزلة) غلوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات (المشبهة) قصرُوا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام (والروافض) غلوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول

(١) هذه الكلمة متبسة من القرآن الكريم في قوله تعالى : « ان الحكم الا لله » في سورة الانعام وفي سورة يوسف كل ما لمعه من قال هذه الكلمة انه اتى بما النافية بدلا من ان النافية .

(والخوارج) قصروا حيث نفوا تحكيم الرجال وأنت ترى أن هذه الشبهات كلها ناشئة من شبهات اللعين الأول • وتلك في الأول مصدرها ، وهذه في الآخرة مظهرها » •

وهكذا ترى من أول الأمر أنه حاول أن يربط بين إبليس وأصول الفرق بتلك الخيوط الضميفة التي توهم صلاحيتها للربط فهو قد حكم عليها مسبقا بالضلال والزيغ واتباع الهوى وإنما يوردها ليحدد بها الإحصائية ويلتمس لها المبررات التي تجعلها ضمن الموكب الضخم الذي يدفعه كتاب المقالات إلى الهاوية •

وفيما يتعلق بوعده ألا يكتب عن أية فرقة إلا بناء على ما يجده في كتب علماء تلك الفرقة فيؤسفني أن أقول أن الإمام الشهرستاني قد أدخل بوعده ولم يوف به ، ولم يعمل بالشرط الذي شرطه على نفسه ، هذا على الأقل بالنسبة إلى الإضية • ولست أدري موقفه من كتب الفرق الأخرى وإن كنت أحسب أنه لا يختلف •

والحقيقة أن هذا الموقف من نسبة الآراء والعقائد إلى مصادر أصحابها موقف خطير • فالكااتب حين يعد قراءه بأنه يعتمد في نسبة الأقوال على مصادر أصحابها ، يضع الثقة به في الميزان ، فإن وفى كان أهلا للثقة والتصديق في كل شيء ، وإن أدخل بوعده ، كان موضعاً للشك بجري البحث من ورائه لتحقيق ما يقول :

قال أبو الفتح الشهرستاني في كتابه الملل والنحل الجزء الأول ص ٢١٢ ما يلي :

« الإباضية أصحاب عبد الله بن إياض الذي خرج في أيام مروان

ابن محمد فوجه إليه عبد الملك بن محمد بن عطية فقاتله ببثالة وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضي كان رفيقا له في جميع أحواله وأقواله » .

وقال (أى ابن إياض) إن مخالفتنا من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حلال ، وغنيمه أموالهم من السلاح والكرام عند الحرب حلال ، وما سواه حرام — وحرام قتلهم وسبهم في السرغيلة إلا بعد نصب القتال . وإقامة الحجية .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ، وقالوا في مرتكبي الكبائر أنهم موحدون لا مؤمنون .

ثم ذكر عدة مقالات قال إن الكعبى حكاهما عنهم ويهمنى أن يعرف القارئ الكريم الملاحظات الآتية عن مرافقتنا لأبى الفتح الشهرستانى :

١ — ذكر أن عبد الله بن إياض خرج أيام مروان بن محمد وقتل ببثالة . وهذا خطأ تسرب إلى أبى الفتح وإلى جملة ممن كتب عن الموضوع . لأن عبد الله بن إياض لم يعيش إلى زمن مروان وإنما توفى في أواخر أيام عبد الملك ولعل الذين ذكروا هذا القول اشتبه عليهم بأحد الرجلين : المختار بن عوف ، أو بلج بن عقبة ، من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهم جميعا من الإباضية .

٢ — والمقالات التى نسبها الى الإباضية هى بعض ما نسب له من تحدثنا عنهم سابقا وسوف نعرض لها فى بعض فصول هذا الكتاب ونوضح فيها ما كان منها موافقا لمقالات الإباضية ، وما كان مخالفا لها ، وما صيغ بغموض وإبهام يحتاج إلى شىء من الإيضاح والبيان .

٣ - ذكر جملة من المقالات المنسوبة إلى الإباضية ، ونص على أن الكعبي حكاها عنهم • وهذا موقف سليم من أبي الفتح حين تخلص من عهدة تلك الأقوال ونسبها إلى من حكاها بما فيها من صدق أو غيره •

٤ - حسب الحفصية والحارثية واليزيدية فرقا مستقلة ولم يدخاها في الإباضية وهو موقف فيه تمحيص وتحقيق خالف فيه السابقين ممن كتبوا في الموضوع •

٥ - لم يذكر قصة ثعلبة ولا قصة بيع الأمة وما بنى على ذلك ، فسلم كتابه من تلك النزعات الفارغة • والأباطيل الجوفاء •

ويتضح من هذا أن أبا الفتح وإن سلك طريق الآخرين في تقسيم الفرق والحكم عليها إلا أنه كان أكثر دقة واجتهادا وتحريا من سابقيه ، وخالفهم في عدد من الواقف تقدر له ، ولا نأخذ عليه شيئا غير ما ذكرناه سابقا في تورطه كما تورط غيره في حكمه على مجموعة من الفرق بالضلال مسبقا مع شرطه على نفسه أنه سيقف من الجميع موقفا سلبيا لا يصوب ولا يخطيء ، ثم وعده بالرجوع إلى مصادر الفرق في نسبة الأقوال وعدم وفائه بذلك • وبالنسبة إلى الإباضية بدلا من أن يرجع إلى علمائهم أو كتبهم التجأ إلى الكعبي • وغيره ممن لم يذكره فوقع في أخطاء كان حريا ألا يقع فيها • أما خطؤه في تاريخ عبد الله بن إيباض فهذا خطأ قد لا يسلم من مثله الكثير من الكتاب •

وعلى كل حال فأبو الفتح عندما كتب عن الإباضية لم يأخذ مقالاتهم من مصادرهم وإنما أخذها من مصادر غيرهم ولكن ذكره لتلك المقالات

كان يتسم بدقة الملاحظة والمعرفة لآراء الفرق ، ولذلك فقد نسب ما قيل له عن الإباضية الى روايته ، وجعل بعض من ما كان يحسب على الإباضية وليس منهم فرقا مستقلة وأغفل قصة النزاع على الأمة والطفلة ، وهذا وحده يعتبر منه نقدا وردا على كتاب المقالات السابقين • وهي خطوة تستحق الثناء والتقدير •

الباب الثاني

مع المعاصرين

- * مع الأستاذ على مصطفى الخوالي
- * مع أبي زهرة
- * مع عبد القادر شبيبة الحمد
- * مع الدكتور هويدي
- * مع الدكتور هويدي أيضا
- * د + هويدي في تبعية المستشرقين
- * مع عز الدين التتوخي
- * مع الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي
- * مع الأستاذين : التتوخي وإبراهيم عبد الباقي

الباب الثاني

مع المعاصرين

المكتب التي تحدثت عن الفرق الإسلامية في هذا العصر - سواء كانت تعنى بالفرق جميعها أو ببعضها - كثيرة ، ومناهجها في البحث مختلفة ، والإحاطة بها غير ممكنة ، والأساليب تناولتها بها تختلف من كاتب إلى كاتب ، منهم التقليدي الذي يرجع إلى المصادر القديمة ، فيأخذ عنها بالنص أو بالمعنى لا يخرج عن دائرة تلك المصادر المحدودة التي عرضها ووثق بها ، وهو في ذلك لا يستخدم فكرا ، ولا يعمل رأيا . ومنهم من يميل عن المصادر العربية إلى المصادر الأجنبية ، يصطنع أسلوبهم ويتخذ منهجا - في بحثه - شبيها بمناهجهم ، ويقتبس منهم الآراء والنظريات ، ويبينى على مقتضاها الأحكام . ومنهم من يبذل الجهد ويطلع على مختلف المصادر . ولا يبينى حكمه على فرقة إلا بعد الرجوع إلى مصادرها هي نفسها ، ومقارنتها بما قيل عنها .

وبعد دراسة لموضوع الإباضية في عدد من كتابات المعاصرين واستعراض لمناهجهم وأساليبهم استقر رأبي على أن آخذ نماذج منهم تمثل الاتجاهات السابقة :

وكان اختياري لمن يمثل الاتجاهات السابقة كما يلي :

١ - الأستاذ على مصطفى الغوابي

٢ - الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة

— ٧٦ —

٣ — الأستاذ عبد القادر شيبية الحمد

٤ — الدكتور يحيى هويدي

٥ — الأستاذ عز الدين التنوخي

٦ — الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي

أما كتبهم التي كانت مرجعا للدراسة في هذه الفصول فهي حسب الترتيب السابق :

١ — تاريخ الفرق الإسلامية الأستاذ الغوابي

٢ — المذاهب الإسلامية الأستاذ أبو زهرة

٣ — تاريخ المذاهب الفقهية الأستاذ أبو زهرة

الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة الأستاذ شيبية الحمد

تاريخ فلسفة الإسلام من القارة الإفريقية دكتور هويدي

مقدمات على مجموعة في الكتب الأستاذ عز الدين التنوخي

الدين والعلم الحديث الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي

أرجو أن يجد القارئ الكريم متعة في مرافقة هؤلاء الكتاب المعظم .

مع الأستاذ علي مصطفى الغوابي

هذا مؤلف معاصر كتب عن الفرق الإسلامية ، وهو في كتابته عن هذه

الفرق كان يبذل جهداً مشكوراً ليظهر بمظهر الاعتدال وعدم التعصب ، واستعمل في كتابته أسلوباً غاية في الرقة واللطف .

وكان يحاول أن يجمع فرق المسلمين جميعاً على صعيد المحبة والاحترام والتعاون ، وأن يذكر ، لكل منها - على الأقل - مزاياها الظاهرة في سلوكها العام ، وفي خدمتها للإسلام . ولكنه مع كل ذلك لم يسلم من عدد من الانزلاقات . سببها له اعتماده المطلق وثقته الكاملة في جانب واحد من كتب المقالات فقد اعتمد في جميع ما كتبه عن الإباضية - وهم في نظره وفي مصادره فرقة من فرق الخوارج - على المصادر الآتية :

المقالات للأشعري

والفرق بين الفرق للبغدادي

والممل والنحل للشهرستاني وكتاب التبصير للإسفراييني

وهذه الكتب الأربعة قد سبق أن تحدثنا عنها وعرفنا موقفها من الإباضية كما أشار أحياناً قليلة إلى الرازي ، واعتمد في معرفة مواطن الإباضية في العصر الحاضر على المستشرق جولدتسيهر . ومعروف بالبداية أنه مادامت هذه مصادره فإنه لن يخرج في تكوين رأيه عن نطاقها ، اللهم إلا باللهجة والأسلوب . ومع كل هذا فقد كانت له وثقات جديدة بالنتيجة لأنها تدل على نزعة حرة في التفكير فعمل بوعى ، وأنه لا ينساق مع التيار دون أن يرى ما في طريقه من تعرجات وأخاديد .

قلت : إنه يعتبر الإباضية فرقة من الخوارج ولذلك فإنه من المهم

— فيما أرى — أن أصحابه قليلا حينما يعرض لهم حتى أستطيع أن أحدد
جوانب النقاش على أسس واضحة •

يسوق ثلاثة تعاريف لمعنى كلمة الخوارج فيقول :

- ١ — « إنهم سموا خوارج لخروجهم عن علي بن أبي طالب » •
ويعزو هذا التعريف إلى أبي الحسن الأشعري •

٢ — يرجح في هامش الصفحة أن التسمية مأخوذة من قوله تعالى
(ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد
وقع أجره على الله) وعلى هذا تكون التسمية لقب مدح لازم وتكون
منهم لا من مخالفهم ، وأن حياتهم التي صبغت بالتفاني في القتال
تحقيقا لمبادئهم تساعدنا على هذا الاستنتاج •

٣ — « إن كل من خرج عن الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه
يسمى خارجيا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة في كل
زمان ، وعلى هذا التعريف يكون تسميتهم بالخوارج من مخالفهم
لامنهم ، وأن الخوارج مستمرون في كل وقت مادام يوجد من يخرج
على رؤساء الحكومات » وينسب هذا التعريف إلى الشهرستاني •

ورغم أنه يرجح التعريف الثاني إلا أنه يقول : « ولكن هناك فرق
بين الخوارج بهذا الاصطلاح — أى الاصطلاح الذى نسبه إلى
الشهرستاني — والخوارج للذين تؤرخ لهم • وهو بعد أن يذكر هذا
يحاول أن يلخص حركتهم في مجرى التاريخ ولكن هــوة عميقة تعترض
طريقه فلا يستطيع أن يتخطاها — كما فعل المؤرخون وأصحاب المقالات

من قبله — دون وقفة رائعة من التفكير والتأمل • ثم يستعرض آراء الخوارج في الجملة — كما تصورهما مصادره ثم ينتقل إلى استعراض فرقهم الأصلية فرقة فرقة حتى يصل إلى الإباضية متبعا في ذلك نفس المنهج الذي سارت عليه تلك المصادر ولكنه فوجيء مفاجأة أخرى — لم يهتم لها السابقون — تركته يقف في حيرة وتأمل •

ولكى نوضح للقارئ الكريم هذين الموقنين يجدر بنا أن نعود إليهما بشيء من التفصيل • كان الأستاذ الغواص يخلص حركة الخوارج في مجرى التاريخ حسب مصادره السابقة وتتبعها حتى ذكر أن أهل النهروان قتلوا جميعا ولم ينج منهم إلا تسعة أشخاص من أربعة آلاف وتذكر تلك المصادر أن الأربعة الآلاف لم يستطيعوا أن يقتلوا من محاربيهم إلا تسعة أشخاص كأنما كان أولئك الناس مقيدين لا يحملون سلاحا • وأن أولئك التسعة الذين نجوا من تلك الجزيرة الرهيبة تفرقوا في البلاد ولا شك أن من كان على مثل هذه الحالة لا يستطيع أن يقوم بحركة في مدى قريب • ولكنه فوجيء وهو يستعرض أحداث التاريخ بأن العصر الأموي ابتداء من معاوية — وبعد أن تمثّل المحكمة كلهم على ضفة النهر — كان مشحونا بحركة دائبة للخروج فلم يظهر له كيف يربط الصلة بين المحكمة الذين قضى عليهم حسبما تذكر المصادر وبين حركة الخوارج فيما بعد ويتساءل عن هذه العلاقة فيما بينهما في حيرة ولكنه لا يحظى بجواب لأن المؤرخين السابقين لم يقدموا أى شيء عن ذلك بل إنهم لم يهتموا أو لم يحسوا به ولذلك فهو يستسلم في ارتياب وحيرة ثم يتخذ موقفا ظن أنه يقدم بعض الحل إذا لم يقدم الحل كله فاعتبر المحكمة سلفا للخوارج ولو أنه لم يستطع أن يوضح هذه الرابطة السلفية أو يقدم لها تفسيراً اللهم إلا إذا كان يراها — فيما بينه وبين نفسه — بوراشة

فكرية أو نسبية غير مباشرة • ذلك أن المحكمة إنما كان الخلاف بينهم وبين أمير المؤمنين على وقد انتهوا في سنة ٣٧ من الهجرة أما الخوارج فقد وضع موقفهم بمبادئهم الخاصة ضد الأمويين في سنة ٦٤ للهجرة بقيادة الأزرق والنجدات كما يرى الأستاذ الغوابي وإذن فهناك انفصام تاريخي على بين حركة المحكمة وحركة الخوارج وهناك انفصام فكري بينهما أيضا وإن لم يشر إليه الأستاذ الغوابي صراحة ولكنك تحسه وأنت تقرأ وذلك أن الميدان الذي يشتغل فيه الخوارج غير الميدان الذي اشتغل فيه المحكمة •

وحين كان يستعرض مبادئ الخوارج وأفكارهم عامة وجد أن المصادر التي يعتمد عليها ترميهم بالشذوذ والتشدد وضالسة الفهم والعقل ، فلما استعرض فرقتهم فرقة فرقه واستعرض الإباضية — كفرقة من الخوارج حسب المصادر التي يعتمدونها — لم يجد فيها تلك الصورة الشرسة البغيضة التي ترسم عن الخوارج — سواء كان القصد من الرسم إعطاء صورة عنهم أو إعطاء صورة لهم — فوقف وقفته الثانية من التأمل والتفكير ، والمؤرخون — كالعادة — لا يقدمون له الحل وهو لا يستطيع أن يتهم المصادر التي يعتمد عليها ، فهي من الكثرة والتعدد بحيث لا يسهل اتهامها • وخطر له الحل فهو قد افترض أن للخوارج سلفا وخلفا فما يمنع أن يكون الخلف قد غيروا موقفهم عن سلفهم فتساهلوا بدل التشدد الذي كان عند سلفهم ولما كانت آراء الإباضية لا تحمل شيئا من طابع الخوارج الذي تصفه المصادر ، وموافقهم لا تتفق مع مواقف أولئك المتشددين فما يمنع أن يكون الإباضية هم خلف الخوارج ولكنهم تساهلوا وعدلوا عن موقفهم المتزمت • ولا شك أن هذه الفكرة كانت في مبدأ الأمر خاطرة خطرت في ذهن الأستاذ الغوابي وهو يقرب وجوه الرأي للخروج من الهوة التي تركها المؤرخون وكتاب المقالات دون

أى اهتمام ، وانتقلت الخاطرة فصارت فرضاً ثم صارت حقيقة حلت المشكلة في ذهن الأستاذ وبني عليها بحثه فيما بقى • ولكن هذه الخاطرة أو الفرضية كالفرضية الأولى تبقىان متأرجحتين كالخشبنة التي توضع للعبور فترق هوة عميقة ما تطوؤها قدم حتى تهتز ويحس المر بالحقيقة المختفية تحته • وأحب هنا أن أذكر للقارئ الكريم أن الكتاب الذين تناولوا الخوارج في أبحاثهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول هم أولئك الكتاب المتشددون الناقمون الذين يخرجونهم من الإسلام أو يكادون ، وهم يرمون عليهم كل أوزار التاريخ الإسلامى يقول مؤرخ معاصر (١) : « ومنذ أن خرجوا على سيدنا على انفتح باب الفتنة فلم يسد بعد • ولن يسد مادام لهم أنصار على وجه الأرض » •

القسم الثانى هم أولئك الذين ينقلون ما يجدونه في المصادر دون دراسة أو تفهم أو تحليل وآراؤهم تكون حسب الصدفة فإذا وقعوا على مصادر تميل الى الخوارج أو تعطف عليهم كان لهم رأى وإذا وقعوا على مناوئة لهم كان لهم رأى آخر مغاير •

القسم الثالث هم أولئك الذين يقفون منهم موقف الاعتدال يحسبونهم من جملة المسلمين ويتحدثون عنهم بلطف وسماحة وقد يلتسمون لهم الأعذار وربما أيدهم في بعض آرائهم ومبادئهم وفي هذا القسم الأستاذ على مصطفى الغوابى وقد حاول أن يعتذر للخوارج بأعذار سبق أن اعتذر لهم بها كتاب سابقون وفي إمكانى أن أخصها لك في عدد من النقاط مستخلصة من فصله « الحكم عليهم » كما يأتى :

١ - كان إدراكهم للتعاليم الدينية إدراكاً سطحياً •

(١) انظر كتاب الفتح العربى في ليبيا الطبعة الاولى ص ١٠٤ •

٢ — كان يصاحب إدراكهم إخلاص لما عرفوه من الدين حسب فهمهم •

٣ — إخلاصهم لعقائدهم جعلهم ينكرون على كل من يخالف أمراً من أمور الدين — حسب فهمهم وإدراكهم — •

٤ — هذا الإنكار جعلهم يحكمون على مخالفيتهم بالشرك أو الكفر •

٥ — عدم الدقة في الأحكام كانت عند أوائل الخوارج •

وهكذا ترى أن الاعتذار عنهم — حتى ممن يعطف عليهم ويتسامح معهم — هو الآخر اتهام بصورة أخرى قد تكون أقسى وأشد •

والمشكلة الحقيقية في كتاب المقالات ان الواحد فيهم حين ينتصب للكتابة يعطى لنفسه حقين ثابتين ينطلق من خلالهما :

الحق الأول أن المفرقة التي ينتسب إليها هي التي تمثل الإسلام حقيقة فهي غير خاضعة لا للتقويم ولا للمنقد ولا للمقارنة وحكمها على غيرها هو حكم الإسلام نفسه وآرؤها وعقائدها هي الميزان الذي توزن به عقائد وآراء الآخرين •

الحق الثاني يرى أنه ما دام ينتسب الى فرقه محقة تمثل الإسلام فمن صلاحياته أن يحكم على الفرق الأخرى وأن يقرر بعدها أو قربها من الإسلام بمدى الخلاف الذي بين تلك الفرق وفرقته •

وهو لا يجد أى حرج في أن يصدر أحكاماً عامة أو خاصة على الآخرين بهذا الاعتبار على هذا الأساس •

ولذلك قال الأستاذ الغوابي رغم اعتداله ومحبته لوحدة المسلمين فهو قد حدد لنفسه موقفا في فرقة محقة لا تخضع للتقويم ومن موقفه العالى ذلك يرى الفرق الأخرى وهى ترتكب أخطاءها ولما كان من طبعه اللين والتسامح فقد راح يعتذر عنها - تأليفا - وثانيا - بأنها فرق ساذجة بسيطة ليس لها ملكة الفهم ولا التعمق والتفكير ومن كانت هذه حالته فينبغى ألا يؤاخذ وإنما يستأنس ويستجلب ويفرق به *

أو هذا على الأقل بالنسبة لما رآه عن الخوارج وقد أطلت النقاش في موضوع الخوارج لأنه يعتبر الإباضية فرقة منهم وأغلب ما يقال عن الخوارج يشمل الإباضية *

بعد هذا يسرنى أن أنقل إليك بعض ما قاله في الإباضية خاصة * فقد جاء في كتابه القيم (تاريخ الفرق الإسلامية) في فصل الخوارج ما يلى :

« وأما الإباضية وهم إحدى الفرق الأصلية (١) عند الأشعرى وينسبون لرئيسهم عبد الله بن إياض فإن فروعهم هى :

١ - الحفصية وإمامهم حفص بن أبى المقدم *

٢ - اليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة *

٣ - الحارثية أصحاب حارث الإباضى *

(١) يقصد انها فرقة اصلية من فرق الخوارج لان ابا الحسن الاشعرى يرى ان الخوارج ينقسمون اولا الى فرق اصلية وان كل واحدة من الفرق الاصلية تنقسم الى عدد من الفرق يعتبرها الاشعرى فرقا فرعية للخوارج *

٤ — ومنهم من يسمون أصحاب طاعة لا يراد بها وجه الله ومنهم الواقفية ومن الواقفية الضحاكية « واقفية أخرى » وسبب تسمية الأولى والثانية بالواقفية أن كليهما وقفت بين فريقين اختلفا على حكم فلم ينضما الى أحد الفريقين المختلفين وقالوا نقف فسموا واقفة لهذا » •

وقد سبق أن اطلع القارئ الكريم على هذه الفرق المزعومة عند الكتاب الأقدمين كأبي الحسن ومن ذكر بعده بتفصيل أكثر • وعلم هناك أنه لا أساس لمنسبة هذه الفرق الفرعية الى الإباضية وأن ما ينسب إليها من المقالات لا يقول به الإباضية ومنه ما يحكمون على قائله بالكفر •

وقال الأستاذ الغوابي في نفس المصدر ما يلي :

« أما الإباضية فقد تساهلوا في كثير من الأحكام التي كان يشدد فيها سلفهم فقالوا إن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين (١) ، وأن مناكحتهم جائزة ، ووراثتهم حلال ، وأن أموالهم إذا غنمت من الحرب حلال ، إذا كانت مما يعين على الحرب كالسلاح ، وما عدا هذا في الأموال فهو حرام ، ويحرم قتلهم غيلة وفي السر ، وإنما يجوز القتل إذا أقاموا على خصومهم الحجة ، وأعلنوهم بالقتال ، وقالوا إن جميع ما افترضه الله سبحانه على خلقه إيمان فعندهم الإيمان تدخل فيه الأعمال ، والأعمال جزء منه ويظهر أن هذا الرأي هو الغالب على فرق الخوارج ، فتلك لطائفة تنقدس الأعمال وترفع من شأنها ، ونعم هذا الرأي • وليت المسلمين يتمسكون به ، إلا أنه إذا ارتكب مؤمن كبيرة من

(١) انساق الغوابي مع التيار فاستعمل هذا التعبير المتلوى وله ما اختار .

الكبائر فهو كافر كافر نعمة لا كفر شرك ، ولكن مع قولهم بهذا فإنهم يقولون بتخليده في النار .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد لا دار كفر ، وهذا أيضا من نواحي تساهلهم . حيث أن سلفهم كانوا يقولون إن دار مخالفيهم دار شرك ، ومما خالفوا فيه سلفهم وكانوا أكثر تساهلا منهم فيه أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم ، وأما أطفال المشركين فبعضهم يلزمهم على غير طريق الانتقام ، وجوز أن يدخلهم الله الجنة ، وبعضهم يقول إن إسلامهم واجب لا جائز ، ومن هنا نرى أن متأخري الخوارج كانوا أكثر تساهلا مع مخالفيهم أكثر من متقدميهم ، وأن هذا التساهل بدأ يزداد شيئا فشيئا ولا ندري هل سبب هذا التسامح هو أنهم ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئا فشيئا حتى لا تقوم بينهم الحرب أم أنهم لما اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم الذين كانوا من عرب البادية ، وفيهم سذاجة وعدم عمق في التفكير ، كانوا أكثر تسامحا مع مخالفيهم من سلفهم ولا مانع من أن يكون قد اجتمع لديهم السببان معاً . فالحروب قد أضعفت من حماسهم ، وأن مداركهم قد اتسعت عن مدارك سلفهم ، وأصبحت نظرهم فاحصة وعميقة في نواحي الدين أكثر من سلفهم » .

ويقول في موضع آخر من الكتاب ما يلي :

« ولكن يظهر أن عدم الدقة في الأحكام كانت عند أوائل الخوارج — كما قلت — وأما متأخروهم فإنهم قد دققوا في الأحكام ، وفرقوا بين عمل وعمل ، ولم يشتموا في أحكامهم ، كما اشتط سلفهم وكما لاحظنا

فيما تقدم صارت أحكامهم على مخالفيهم فيها تسامح وفيها تساهل • ليس كل مخالف لهم كافرا أو مشركا ، وليس أطفال المشركين مخلصين في النار • وليس حكمهم حكم آبائهم ، ويلاحظ أنه لما ضُففت قوتهم الحربية اتجهت نفوسهم نحو الإنتاج العلمي ، حتى أصبحت لهم مؤلفات فقهية وكلامية ولغوية وأدبية ، ويلاحظ أن فرقهم لم يبدهم أعداؤهم تماما بل بقى منهم إلى عهدنا هذا جماعات يسكنون في إفريقيا الشمالية من خوارج الإباضية وهؤلاء يقيمون في إقليم جبل نفوسة بطرابلس الغرب ، ويوجد كذلك فريق آخر بزَنْبار بأفريقيا الشرقية » •

هذا ما قاله الأستاذ الغوابي عن الإباضية خاصة وواضح أنه استقى جميع معلوماته عن الخوارج عامة وعن الإباضية خاصة من مصادر غيرهم فهو لم يذكر أي كتاب من كتب الإباضية كما لم يذكر أي كتاب للخوارج إن بقيت لهم كتب بعد هذا أود أقف مع الأستاذ الغوابي وفتات قصيرة لمناقشة بعض النقاط الواردة في بحثه •

النقطة الأولى : مخالفوهم :

من المؤسلف أن الذين كتبوا عن الإباضية — وهم يحسبونهم من الخوارج كانت تسيّر أعلامهم عقدة مستحكمة لم يكدر يتخلص منها واحد منهم ذلك أن بدا في يوم ما كانت قد رسمت ببراعة الخط الذي يسير عليه من يكتب عن الخوارج وأن يكون هذا الخط لا يخرج في طبيعة سيره عن معاملتهم لمخالفهم وسار كتاب المقالات في الخط المرسوم لا تكاد كتاباتهم عن الخوارج تخرج عن معاملتهم لمخالفهم ومحاسبتهم عليها الحساب العسير ، ولم يسمح أولئك الكتاب لأنفسهم أن يبحثوا ويناقشوا الجانب الثاني من الموضوع وهو معاملة مخالفهم لهم ولم يخطر

لهم أن يفرضوا حتى مجرد فرض أن هذا السلوك ربما كان رد فعل أو من باب الدفاع •

وقد خضع الأستاذ الغوابي لهذا التوجيه وسار مع نفس الخط فذكر — في الفقرات القليلة كلمة مخالفيهم نحو عشر مرات صراحة فوق دلالة الضمير عليها • ولكثرة ما ترددت على ما في كتب المقالات ولأنها المتجه الأساسي للكتاب ومركز لبحوثهم سميتها عقدة الكتاب عن الخوارج •

٢ — الانسياق مع التيار :

انساق الأستاذ الغوابي مع تيار كتاب المقالات فذهب يعدد فروع المسألة الواحدة كما كانوا يفعلون هم للتهويل والإكثار ولو تأمل قليلا لوجد أنه قد ذكر للإباضية في الفقرات السابقة إحدى عشرة مقالة منها ثمانى مقالات تتعلق بمخالفهم • « هم غير مشركين ، مناكحتهم جائزة • وراثتهم حلال ، غنيمة أموالهم غير جائزة ما عدا السلاح (١) ، لا يجوز قتلهم غيلة أو في السر ، لا يجوز قتال خصومهم إلا بعد الإعلان وإقامة الحجة ، دارهم دار إسلام ، شهادتهم جائزة على موافقيهم» وهذه المقالات كلها مسائل فرعية لموضوع واحد وهى شروع تنبى على أصل واحد هو الإسلام فما دام الإباضية يرون أن جميع من نطق بكلمة التوحيد هو مسلم سواء وافقهم أو خالفهم وأنه بنطقه بكلمة الشهادة قد اكتسب جميع الحقوق التى عند غيره من المسلمين أو التى

(١) الإباضية لا يبيحون شيئا من أموال المسلمين حتى السلاح خوفا لما ينسبه إليها كتاب المقالات •

يمنحها للإسلام للمسلمين فلا داعى لأن نبدأ فى تعداد تلك الفروع فرعاً فرعاً • لأنها من حقوق المسلمين جميعاً ولا تسقط عنهم إلا بأسباب حددتها الشريعة كما يسقط حق الباغى وقاطع الطريق فى عصمة دمه و لايباح ماله ولا سبى عياله • بل إن تلك الحقوق والحرم مصونة لكل مسلم لا تسقط أبدا مهما ارتكب ولا تضيع منه إلا بالخروج من الإسلام • والشئ الوحيد الذى يفقد الإنسان حق صيانتته مع أنه مسلم إذا وجدت أسبابه هو دمه وذلك كالباغى والزانى •

٣ - تساهل الخلف :

يقول الأستاذ الغوابى - إن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم وقد أعاد هذه الفكرة عدة مرات • ولست أدرى على أى مستند بنى حكمه هذا ، فهو فيما يبدو لا يعرف أى كتاب من كتب الإباضية لأنه لم يذكر منها شيئاً فى مراجعه ومع ذلك فأنا أقول له إن تغير الاجتهادات فى غير القطعيات من محاسن هذه الشريعة ولم يخل منها مذهب من المذاهب الإسلامية وقد يتغير رأى عالم واحد فى قضية واحدة فيكون له فيها رأى أو آراء ولم يكن ذلك دليلاً على أن صاحب الرأى الأول ، أو أن العالم فى رأيه الأول ، كان سطحياً أو ضيق التفكير •

ومع هذا فأنا أؤكد للأستاذ الغوابى أن المسائل التى أوردها لم يتغير فيها رأى خلف الإباضية عن سلفهم فيما عدا مسألة واحدة هى مسألة أطفال المشركين فقد كانت عند السلف خلافية ورجح الخلف أنهم من أهل الجنة خدماً للمسلمين طبقاً للأحاديث الواردة فى الموضوع • أما المسائل الثمانية التى ذكرناها سابقاً فهى فروع لأصل واحد كما قلنا ورأى سلف الإباضية فيها هو هذا الرأى الذى سجلناه وتكاد تجمع كتب التاريخ أن

أول من حكم بالشرك على مخالفيه من المسلمين فعاملهم معاملة المشركين وأسقط عنهم تلك الحقوق السابقة هو نافع بن الأزرق • وتكاد تجمع كتب التاريخ أن عبد الله بن إباح كان من أوائل من رد على نافع رأيه هذا إذا لم يكن أولهم على الإطلاق وقد سجلت منذ ذلك التاريخ حوالى سنة ٥٦٤ مواقف حاسمة لعبد الله بن إباح وجابر بن زيد في مقارعة الخوارج في موضوع الحكم بالشرك على المخالفين والقعدة وفي موضوع الحكم بالشرك على مرتكب الكبيرة • بل لقد كان الإباضية من أشد المسلمين على الخوارج في هذا الموضوع بالذات حتى أنهم كلنوا يطردون من يرى رأيهم من حضور مجالسهم واجتماعاتهم ويمنعونهم من الحديث بآرائهم تلك خوفاً على ضعفاء الناس وعوامهم • وأود الآن أن يعرف الأستاذ الغواي ومن يرى رأيه أن سلف الإباضية — بعد الصحابة الذين هم سلف لجميع فرق الأمة ومنهم الإباضية — هم هؤلاء جابر بن زيد وعبد الله بن إباح وجعفر بن السماك العبدى وصحار بن العباس العبدى ثم من أخذ عنهم •

وليس فوق هؤلاء سلف غير الصحابة كما قلت آنفاً أما التابعون من طبقة جابر كالحسن والسعيدين وعطاء وغيرهم ممن هو في درجتهم فهم أيضاً سلف لجميع الأمة والإباضية يضعونهم في مكانهم بعد أصحاب رسول الله ﷺ يأخذون عنهم جميعاً •

وبهذا يتضح أنه لا معنى لما يراه من أن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم في المواضيع التي عرضها أما في غيرها من المواضيع الاجتهادية في الفقه العملى فهم فيه كبقية الأمة قد يذهب أحد مجتهديه من الخاف الى التيسير في مسألة كان السلف يرى فيها التشديد ويحصرنى في ذلك مثلان قريبان :

الأول في قضاء رمضان فإن المعمول به عند الإباضية أنه يجب التتابع في القضاء كما يجب في الأداء • وذهب الأستاذ باكلي عبد الرحمن من علماء الإباضية المعاصرين الى عدم وجوب التتابع تيسيراً على الناس واستناداً الى ما ذهب اليه بعض الأئمة من غير الإباضية •

الثانى : يرى علماء السلف من الإباضية أن طعام أهل الكتاب يحل إذا كانوا تحت الذمة أما إذا لم يكونوا كذلك فلا يحل طعامهم ولا نكاح نسائهم • وكأنما يرون أن هذا مرتبط بالجزية والجزية تدل على وجود رقابة اسلامية عليهم فإن انعدمت الجزية انعدمت الرقابة وإذا انعدمت الرقابة انعدم هذا الإكرام أو الشرف الذى يعطى للكاتب دون غيره •

وقد زار أستاذنا إبراهيم بيوض أحد أئمة الإباضية ومجتهديهم في العصر الحاضر • أوروبا ورأى العنت الذى يتكبده طلبة العلم بصفة خاصة في موضوع الأكل فذهب الى تحليل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً سواء كانوا تحت الذمة ولم يكونوا كذلك تيسيراً على الناس واعتماداً على العموم في الآية الكريمة واستناداً الى ما ذهب اليه بعض أئمة المسلمين في مختلف العصور •

والمشكلة التى تركت الأستاذ الغوابى يضطرب هذا الاضطراب • ويفترض خلفاً متساهلاً وسلفاً متشدداً في قضايا انتقلت عبر القرون بالمفاظها وحرورها هو ربطه للإباضية في عجلة الخوارج اعتماداً على كتاب المقالات من غير الإباضية ودون الرجوع إليهم في كتبهم •

٤ - بحث عن الأسباب :

يختار الأستاذ على الغوابى في أسباب تساهل الإباضية عن سلفهم

وتسامح المتأخرين منهم عن المتقدمين وبعد الحيرة والتساؤل يستنتج أن ذلك كان للأسباب الآتية :

١ — ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئاً فشيئاً حتى لا تقوم بينهم الحروب •

٢ — اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم •

٣ — سلفهم كانوا من عرب البادية وفيهم سذاجة وعدم عمق في التفكير •

لا شك أن هذه الأسباب التي ذكرها الأستاذ الغوابي هي افتراضات قدمت لحلول مشاكل هي الأخرى افترضت افتراضاً ولا يعنينا في شيء ، ما إذا كان يوافق الأستاذ الغوابي في هذه الافتراضات أحداً من المستشرقين أو من الكتاب الآخرين • ولقد كان بوجدنا لو أن الأستاذ الغوابي بنى استنتاجاته وفروضه بعد أن يكون اطلع ودرس تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم •

أشار الأستاذ الغوابي إلى ضعفهم بسبب كثرة حروبهم وربما يفاجأ القارئ بعكس الصورة إذا وضعت بين يديه الحقائق الآتية :

إن كتب التاريخ الإباضية — وهي أعلم بهم وبحروبهم — لم تذكر لهم حرباً في الجزيرة العربية غير حرب واحدة هي الحركة التي قام بها عبد الله ابن يحيى الكندى المشهور — بطالب الحق — طيلة عهد الدولة الأموية رغم أن الإباضية كانوا منتشرين في جميع أنحاء البلاد العربية

وكان مركز تكوينهم وتجمعهم هو البصرة ورغم أن إمامهم عبد الله بن إيباض كان شخصية مليئة بالنشاط والحركة وكان شديد العنف في نقده للوك الدولة الأموية وسجلت له مناظرات مع عبد الملك بن مروان كما كان شديد العنف في نقده للخوارج وسجلت له أيضاً في ذلك مواقف ورسائل إلا أنه لم يشترك في عملية حربية لا ضد هؤلاء ولا ضد هؤلاء بل لما طلب إليه عدد من الناقمين على الحكم الأموي أن يبايعوه رفض في شدة ثم أثار إلى عمران المساجد بالذكر والصلاة وقال في لهجة احتجاج أعلى هؤلاء يجوز الخروج؟! وينصح من هذا أن تلك الفترة التي كانت مليئة بالدماء أمسك الإباضية أنفسهم فلم يلوثوها اللهم إذا كان من أفراد متطرفين ينتمون إلى الإباضية بالإسم لا بالمبدأ ٠٠

وقد قام باسم الإباضية عدد من الدول في أربعة مواضع من البلاد الإسلامية هو:

١ - دولة في عمان استقلت عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ولا تزال إلى اليوم ٠ ولم تبدأ أهداً بهرب ، ولم تحاول أن تتوسع ، ولكنها هوجمت عدة مرات فردت الاعتداء وحاولت الرد ، كما قامت فيها صراعات داخلية بين الإمامة والملكية ثم كان لها شرف دفاع الاستعمار الغربي نحو أربعة قرون فقد اتجه الاستعمار الغربي منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى الشرق وكانت دولة عمان من أهم الدول التي وقفت لصدده ومحاربتة منذ ذلك الحين إلى اليوم وقد كانت زنجبار شبه إمارة تابعة لعمان ثم استقلت بنفسها وبقيت كذلك حتى أزالها تعاون الإلحاد والعنصرية الإفريقية ضد العروبة والإسلام ٠

٢ — دولة قامت في ليبيا ١٤٠ هـ ولم تعمر طويلا فقد انتهت بعد نحو ثلاث سنوات •

٣ — دولة قامت في الجزائر سنة ١٦٠ هـ وقد بقيت إلى حوالى ١٩٠ هـ ثم قضت عليها الدولة العبيدية ومنذ ذلك الحين لم يرفع الإباضية السلاح في المغرب الإسلامي ضد المسلمين ولم تمتد أيديهم لإراقة الدماء اللهم إلا تلك المواقف النبيلة الشريفة التي وقفها أهل جزيرة جربة ضد الغزو الأسباني عدة قرون وكانت لهم في ذلك مواقع بطولة يعتز بها الإسلام والمسلمون أو مواقفهم مع كل مواطن تونسي ضد فرنسا في حروب الاستعمار • وما عدا المواقف الحاسمة من جميع إباضية المغرب الإسلامي في ليبيا وتونس والجزائر — ضمن جميع المواطنين في هذه البلاد لصد الاستعمار الغربي عند هجومه وفي حروب التحرر عند إخراجة •

٤ — دولة قامت في الأندلس ولا سيما في جزيرتي ميورقة ومينورقة وليس لدينا من أخبارهما الكثير • وقد انتهت يوم انتهت الأندلس وأطفاً التعصب الغربي شعلة الإسلام في تلك الديار •

ومن هذه الصورة الموجزة يتضح أن الإباضية كانوا بعداء جداً عن الموقف الذى تصورهم فيها الأستاذ الغواي من كثرة الحروب أما من حيث تقربهم إلى غيرهم من المسلمين فلا شك أن هذا واقع ولكن ليس على الأساس الذى ظنه الأستاذ الغواي ولكن على الأساس الذى أشار إليه رسول الله ﷺ « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن أخلاقكم » أو كما قال:

أما من حيث اتساع المدارك ومعرفة خلف الإباضية ما ليس يعرفه

سلفهم فهم في هذا كبقية المسلمين • ولا شك أن العلوم في تقدم والفكر في اتساع وهذا في جوانب علوم الحياة أما من حيث علوم الشريعة ، فربما يكون العكس هو الصحيح • وهذا ليس بالنسبة للإباضية فقط وإنما بالنسبة لجميع المسلمين ، ذلك أن السلف — لقربهم من عهد النبوة — أعلم بمصادر التشريع في كتاب وسنة وأقرب إلى فهمها فهما أصح ، وما يقال في السنة يقال في الإجماع ، ذلك أن الإجماع بمعناه المعروف عند الأصوليين لم يقع بعد عهد السلف فهو وإن اعتبر من مصادر التشريع إلا أنه لم يقع بعد ذلك العهد ، أما الإجماع الذي سبق عهد السلف وأعنى به الإجماع الذي وقع زمن الخلافة الرشيدة وهو إجماع الصحابة فهم أعرف به لأنهم هم الذين نقلوه إلى الخلف • بقيت مصادر التشريع الأخرى كالقياس والاستدلال مما هو مجال للاجتهاد واستنباط الأحكام في الحوادث والنوازل • فلا شك أن ثروة المتأخرين منه أكثر من ثروة المتقدمين وكلما امتدت الحياة بالإنسان أضيف إلى هذا الباب كثير من الأحكام • وينضح من هذا أن خلف الإباضية لم يكونوا أوسع مدارك من سلفهم وكذلك بقية مذاهب الأمة وهذا من حيث استيعاب مصادر التشريع الأساسية التي هي الكتاب والسنة والإجماع •

أما الفقرة الثالثة من الأسباب التي افترضها في سلف الإباضية وهي اعتبارهم من عرب البادية وفيهم سذاجة وعدم عمق في التفكير • فهي صورة قد ترددت كثيرا على أقلام المستشرقين عندما يكتبون عن الفتوح الإسلامية بأيدي العرب • فهم يصورون حركة الفتوح بأنها هجمات مجموعات بشرية من بدو الصحراء ضاقت بهم الحياة وحملهم شظف العيش على المغامرة بغزو العالم المتحضر لكاسب مادية • وأن هذه المجموعات البشرية البدوية من السذاجة وسطحية التفكير بحيث استطاعت

« قيادة ذكية » أن توجههم حسب مظامها فتستفيد منهم وتحصل بسببهم على انتصارات رائعة •

هذه النعمة أو هذه الصورة التي يرسمها المستشرقون — لهوى في نفوسهم — للمسلمين الفاتحين هي نفس النعمة التي رددتها بعض المصادر في وصف الخوارج عموماً وهي نفس الصورة التي أضفاها الكاتب المحترم على الإباضية •

وقد يحق لنا أن نتساءل كيف استطاع الأستاذ الغوابي أن يحكم بأن أفق خلف الإباضية أكثر انفساحاً من أفق سلفهم وهو لم يذكر أنه قرأ شيئاً من آراء السلف أو آراء الخلف في مصادرهم وإنما ما أخذ عنهم من مصادر غيرهم ثم من أين عرف أنهم بدو وفيهم سذاجة وسطحية تفكير وهو لم يتح له أن يقرأ لهم ولم يتح له أيضاً أن يعرف تاريخهم اللهم ما عدا الصورة الصغيرة المشوهة التي يعرضها غيرهم لتنفير الناس منهم •

إن أحكام الأستاذ الغوابي على الإباضية كانت مبنية على أسس غير سليمة وأعتقد لو أنه عرف تاريخهم من مصادر صادقة واطلع على مقالاتهم كما قالوها وكما نسبت إليهم لتغير كثير من أحكامه ومع هذا كله فأنا أعتذر عن الأستاذ الغوابي بما يشبه اعتذاره عن الإباضية فهو ولا شك مخلص في دعوته محب لجمع كلمة المسلمين جميعاً مقدر لهم في كل فرقهم معتز بهم بأخطائهم وإنما وقع في عدد من الانزلاقات بسبب جهله بحقيقة تاريخهم وجهله بحقيقة مقالاتهم وجهله بالفروق الحقيقية بين المذاهب التي تحدث عنها ونسبها جميعاً إلى الخوارج • لم يبق لى

في ختام هذا الفصل إلا أن أذكر أن خلف الإباضية كسلفهم يحاولون بكل ما أوتوا من جهد أن يتقربوا من بقية المسلمين ، وكلمة المسلمين تجمع كل من أقر بالمجمل الثلاث مهما كان مذهبه • وإذا سعى إليهم أحد منهم ذراعا سعوا إليه باعا • وهم يتعاملون مع جميع المسلمين على مدى التاريخ كما يتعاملون مع أنفسهم • ويدعون كامل الحق لغيرهم من المسلمين أن يكيّفوا عقائدهم وعباداتهم على ما صحّ عندهم من طرقهم التي وثقوا بها واعتمدوها ، وليس يطلب الإباضية من غيرهم هـذا الحق وهو أن يتركوا في عقائدهم وعباداتهم على ما صحّ عندهم ووثقوا به واعتمدوه •

مع أبى زهرة (١)

يقول الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة في كتابه (المذاهب الإسلامية)
صفحة ١٢٧ ما يلي :

« الإباضية هم أتباع عبد الله بن إياض وهم أكثر الخوارج اعتدالا ،
وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيراً ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ،
ولذلك بقوا • ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ، ويقيم طوائف
منهم في بعض واحسات الصحراء الغربية ، وبعض آخر في بلاد -
الزنجبار - ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية في المواريث
بعض آرائهم ، وذلك في الميراث بولاء العتاقة ، فإن القانون المصرى
آخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحد الزوجين ، مع أن المذاهب
الأربعة كلها تجعله عقب العصبة النسبية ، ويسبق الرد على أصحاب
الفروض والأقارب » •

وجملة آراء الإباضية :

١ - إن مخالفهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم
كفاراً • ويقولون عنهم أنهم كفار نعمة لا كفار في الاعتقاد ، وذلك لأنهم
لم يكفروا بالله ، ولكنهم قصروا في جنب الله تعالى •

(١) عند كتابة هذا الفصل كان الاستاذ ابو زهرة حيا يملأ الدنيا علما
وعملا وثناء الله ان يختاره الى جواره قبل ان يطبع هذا الكتاب ويطلع على
ما قلناه عنه .

(م ٧ - الإباضية)

٢ — دماء مخالفيهم حرام ، ودارهم دار توحيد وإسلام ، إلا
معسكر السلطان ، ولكنهم لا يعلنون هذا ، فهم يسرون في أنفسهم أن
دار المخالفين ودماءهم حرام .

٣ — لا يحل من غنائم المسلمين الذين يجاربون إلا الخيل والسلاح
وكل ما فيه من قوة في الحروب ، ويردون الذهب والفضة .

٤ — تجوز شهادة المخالفين ومناكحتهم والتوارث معهم .
وفي هذا كله يتبين اعتدالهم وإنصافهم لمخالفهم . . .

ويقول الأستاذ أبو زهرة في كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية)
الجزء الثاني في تاريخ المذاهب الفقهية صفحة ٥٣ مايلي :

« فرق لها مذاهب فقهية :

هذه الفرق السياسية منها ما ليس له مذهب فقهي قائم بذاته ،
ومنهم من ليس له مذهب فقهي ، ويتبع مذهب طائفة أخرى قريبة منه
في الاعتقاد .

وأن الفرق التي لها مذاهب فقهية معتبرة ثلاثة هي :

الإثنا عشرية : فلها مذهب فقهي مقرر ، وله منطق فكري وديني
وينسبون مذهبهم إلى الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وسيكون له
بعض البيان عندما نتكلم عن الإمام الصادق .

والثانية : فرقة الزيدية . ولهم مذهب فقهي يقرب في منطقة من

مذهب أهل السنة والجماعة ، وإمامها هو الإمام الجليل زيد بن علي زين العابدين رضى الله عنهما •

والثالثة : الإباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، ولهم فقه مدون ، ولالإباضية جهود فى تحرير مذهبهم •

الأستاذ أبو زهرة من كبار علماء هذا العصر ، الذين تتجه إليهم الأنظار فى المسائل الإسلامية وتسمع منهم الكلمة ، وتلمس عندهم الحجة • ورغم أنه أبدى كثيراً من الاعتدال ، واستعمل الرقة واللفظ ، وسجل له آراء جديدة سلمية فى موضوع الفرق وعن الإباضية بالذات ، إلا أنه لم يسلم من التأثير بالأقوال السابقة التى ينقصها التحقيق والتدقيق فى التعبير وجلاء المعانى لكشف الحقائق كشفا لا يحتل الإيهام أو الإبهام •

ومع أننا كنا ننتظر من أبى زهرة خاصة — مكانته العلمية الرفيعة — أن تكون كتاباته فى جميع المواضيع الإسلامية متجردة ، غير متأثرة بأى مؤثر عدا الدراسة العلمية الموضوعية المبنية على الاطلاع الشخصى لاستخلاص الحقائق من مصادرها الثابتة والتى تتحرى مصلحة الأمة المسلمة والتقريب بين وجهات النظر المختلفة فى مذاهبها وطوائفها • إلا أن الأستاذ أبا زهرة — على مكانته السامقة فى المعارف الإسلامية — قد انساق — فيما يبدو — كما انساق غيره فى تيار تاريخى جارف قد كونه — فيما مضى — عوامل تحكمت فيها السياسة والعصبية والفتنة الناتجة عنهما أكثر مما تحكمت فيه العقل والعلم والدين ، وكانت الشفاه والأقلام التى تعمل بتوجيه وإيحاء أكثر سيطرة وعلنية من الأقلام والشفاه المستقلة •

كما انساق أيضاً مع بعض الكتاب المعاصرين ممن يتناولون بحث هذه المواضيع ويناقشونها كما يتناولون ويناقشون القضايا السياسية العالمية في هيئة الأمم المتحدة ، أو كما يدرسها ويخطط لها المستشرقون . فإن المستشرقين وهم يدرسون القضايا الإسلامية لا ينظرون إليها إلا من خلال مناظيرهم الخاصة التي يعرفون بها الحياة عندهم والحياة عندهم تتحرك بالحزبية . فلما وجهوا تلك المناظير إلى قضايا الأمة الإسلامية خيل إليهم أن أسلوب الحياة واحد ، وتراءى لهم أن يطلقوا على بعض الفرق الإسلامية كلمة أحزاب دينية فأطلقوا هذه التسمية على فرق الشيعة وفرق الخوارج . وفي مقابل هذا رأى أولئك المستشرقون أن يطلقوا على غير الأحزاب الدينية حسب نظرهم كلمة المذاهب الإسلامية أو الجماعات الإسلامية وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى معسكرين كبيرين أحدهما الأحزاب الدينية والثاني الجماعات الإسلامية وقد راققت هذه التسمية لبعض الكتاب المعاصرين فاستعملوها ، كما راققت لأستاذنا الكبير أبو زهرة فاستساغها واستعملها في كتبه . وكان منتظرا منه أن ينظر بدقة في مثل هذه التسميات وما وراءها والدوافع إليها فيستعمل الصحيح الأصيل الذي لا يحمل أى غرض تبشيري أو استعماري ويدع الدخيل الهزيل الذى تكمن وراءه مقاصد أو هو مستوحى من بيئة بعيدة عن الإسلام والمسلمين .

تبع الشيخ أبو زهرة من تأثر بهم فجعل الإباضية فرقة من الخوارج أى فرقة من الأحزاب الدينية ، ولا شك أن الذين قسموا الأمة الإسلامية إلى أحزاب ومذاهب كانوا يقصدون أن يضعوا فى أذهان أصحاب المذاهب أن أصحاب الأحزاب الدينية لا شأن لهم بالفقه ، وأنهم حتى لو بذوا فيه جهودا مشكورة ، فهى جهود مهدورة لا تستحق النظر .

ورغم أن الأستاذ أبا زهرة يعترف أن الإباضية يتسمون بالاعتدال وينصفون مخالفيهم ، وأن لهم فقها جيداً مدوناً ، وأن لعلمائهم جهوداً في تحرير مذهبهم فإن هذا كله لم يشفع للإباضية عند أبي زهرة أن يخرجهم من نطاق الخوارج ، أو حتى من هذه التسمية الجديدة « الأحزاب الدينية » ورغم أن مثل هذه الصفات أو أقل منها للزيدية والجعفرية من الشيعة فاعترف بهم الأستاذ أبو زهرة وكتب عن فقههم ومذاهبهم • إلا أن موقفه من الإباضية كان — فيما يظهر لى — موقف الرجل الذى يعرف الحق فى قضية من القضايا فيدور حوله ، ويصفه من بعيد ، لا يجسر أن يعلنه فى صراحة ، لأن رواسب معينة تحول دون ذلك •

قد يعذر الأستاذ أبو زهرة عندما يكتب عن فرق منقرضة لم تخلف وراءها كتباً فيلتجئ إلى ما كتبه عنهم غيرهم ، ويستند إلى ما قالوه عنهم ولكن ما عذر الكاتب المحقق عندما يكتب عن الإباضية فى هذا العصر معتمداً على مصادر قد ألفت فى عصور بلغت فيها التوجيهات السياسية ، والتعصب المذهبى أسوأ ما يبلغه التوجيه فى التشنيع على المخالفين ؟

الأستاذ أبو زهرة يعيش فى القاهرة • وفى القاهرة يعيش معه عدد كبير من علماء الإباضية الموثوق بعلمهم ، وفيهم أصدقاء للشيخ أبى زهرة ، وفى القاهرة « دار الكتب » وفى دار الكتب مجموعة قيمة من كتب الإباضية ما بين مطبوع ومخطوط ومصور — منها فى العقائد ، ومنها فى الفقه ، ومنها فى الأصول ، ومنها فى التاريخ ، ومنها فى الشغب الخاصل بين فرق الأمة والاحتجاج والرد ، ولا شك أن الأستاذ أبا زهرة اطلع على بعضها ، ومن ذلك الاطلاع عرف أن للإباضية فقهاً جيداً مدوناً ، وحكم بأنهم معتدلون منصفون لمخالفهم •

وكنا نتوقع منه عندما يريد أن يذكر جملة من مقالاتهم أن يسلك أحد منهجين : إما أن يعبر عن مقالاتهم بلغته وأسلوبه هو وأن يقررها بعباراته بعد أن يستوعبها من مصادرهم •

وأما أن ينقل نفس عباراتهم ، ويثبت نفس النصوص التي استعملوها وهذا المنهج أدق وادعى إلى الاطمئنان بالنسبة للقارىء العادى الذى لا يعرف مقالاتهم •

فلماذا لم يعتمد الأستاذ أبو زهرة على كتب الإباضية ؟ وإذا كانت المصادر التى بين يديه من كتبهم غير كافية أفلا يكون من واجبه — وهو يقف موقف المحقق — أن يعمل على الحصول على ما يكفيه منها ولو ناله من أجل ذلك بعض التعب المسمى أو البدنى ؟ •

لقد رجع الأستاذ أبو زهرة الى مصادر قديمة لم يتوفر لها التحقيق ، ولم يتيسر لها الوضوح ، ولم تتصف بالنزاهة إزاء جميع من تكتب عنهم • فنقل كلام تلك المصادر دون تصرف بعض الأحيان ، أو بتصرف قليل ، كأنما يريد هو الآخر أن يلجأ إلى الغموض ، لأن التحقيق العلمى ، والتعبير الواضح قد يكشف أن الحق بجانب فرقة يراد وضعها فى إطار معين مهما كانت الظروف •

يقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلته عنه سابقا :

« يرى الإباضية أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا ، ويقولون عنهم إنهم كفار نعمة لا كفار فى الاعتقاد » •

لقد بقيت هذه العبارة بحروفها أو بتصرف قليل تنتقل بين كتاب المقالات عن الإباضية عشرة قرون كاملة ، ولست أعرف على التحقيق أول من قالها ولكنك تعثر عليها عند أوائل من كتب في هذا الموضوع كالأسعر والمطى وغيرهما ، وقد كانت تأتي على أقلام الكتاب السابقين وألسنة المتحدثين منهم من أصحاب هذا الفن . إما عن حسن نية وجهل بحقيقة مقالات الإباضية ، وإما بقصد التشنيع عليهم وزرع كراهيتهم في قلوب بقية المسلمين . ولا شك أن أى مسلم إذا قيل له أن الإباضية يعتبرونك غير مسلم ويرونك كافرا يمتلكه الغضب ويثور على الإباضية ويعتبرهم فرقة ضالة ظالمة تستحق اللعنة ولن ينتظر منك أن تشرح له الفرق بين معانى الكفر . ولقد وصل أولئك الذين يسعون إلى هذه النتيجة إليها بالفعل وربما إلى أكثر مما أرادوا أو توقعوا في بعض الأحيان .

وغريب جدا أن يسير أبو زهرة في هذا الطريق ، فيجرب قلمه السلس البليغ بتلك التعابير الملتوية التي لم يقصد بها الحق في يوم من الأيام .

إنه كان حقا عليه أن يقف وقفة تأمل وتحقيق كما وقف زميله الأستاذ ابراهيم محمد عبد الباقي حين عرض للموضوع فقال في كتابه القيم (الدين والعلم الحديث) وهو يتحدث عن الإباضية صفحة ٢٦٩ ما يلي :

« رابعا : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أخل بالاعتقاد الإسلامى كإنكار ما علم من الدين بالضرورة وكأن ينكر إنسان صفة من صفات الله تعالى أو نبيا من الأنبياء أو حرفا من القرآن الكريم » .

قارن أيها القارىء الكريم بين مقالى الأستاذين الكبيرين وهما

يعيشان في بلد واحد ، وعصر واحد ، وبيئة واحدة إلا أن أحدهما جرى على ما وجدته في مصادر تناوىء الإباضية وتلجأ إلى الغموض في التعبير عن مقالاتهم حتى توهم الناس بضلالهم وتغريهم بعداوتهم ، فاعتمد على تلك المصادر ونقل عنها ، وترك ما عرفه بنفسه ، وابتعد عن المصادر التي تصور مقالاتهم بصدق وتعتبر حجة عليهم لأنها لهم .

أما الثاني فقد كان يكتب كتابة رجل يسعى إلى توحيد كلمة المسلمين وتقريب وجهة النظر بينهم ، وتوضيح آرائهم المبنية على حجج وبراهين يمكن للباحث أن يتجاهلها أو يستهين بها . ويحاول - ما وسعه الجهد - أن يزرع الغشاوة التي وضعتها القرون المتعاقبة على أعين الأمة الإسلامية بقصد وبدون قصد . وهو لم يكتب عن الإباضية حتى قرأ مجموعة من كتبهم ، ومنها استخلص آراءهم التي عبر عنها ، والتي سوف نعرض لها في فصل مقبل إن شاء الله .

على أن هذا الموضوع الذي عبر عنه الأستاذ إبراهيم عبد الباقي بجملة قصيرة واضحة « لا يكفرون أحداً من أهل القبلة إلا إذا أدخل بالاعتقاد » رأى الأستاذ أبو زهرة أن يرتبط بالتمعيد اللفظي الذي تناقله كتاب المقالات ولم يتمكن أن يتحرر منه فقال : « إن مخالفهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا » فترك القارئ الحادى في حيرة وارتيباك لا يعرف منزلة نفسه عند الإباضية ولا منزلتهم عنده .

على أن ذلك الموضوع الذى جرى فيه الأستاذ أبو زهرة الكتاب الأقدمين في حديثهم عن مقالات الإباضية شىء من الغموض والإبهام والإيهام . أهم جانب فيه كلمة الكفر والإباضية حين يطلقونها على من

يستحقها لا يفرقون بين موافقيهم ومخالفهم لأنها في الحقيقة إنما تدل بوضعها على معان لغوية محددة نقلها الشارع أحيانا فاستعملها للدلالة على حقائق شرعية باعتبارات محددة فلا أساس لحشر الإباضية ومخالفهم في الموضوع •

والواقع أن كلمات الكفر ؛ والإيمان ، والنفاق ، والعصيان ، والشرك ، والكبيرة ، والإسلام • من المباحث اللغوية والمصطلحات الشرعية أو الحقائق الشرعية التي تناولتها أقلام أكثر علماء الإسلام واختلفت أنظارهم فيها حيناً واتفقت حيناً آخر • وطال فيها الجدل حتى بلغ حد المرء في بعض الأوقات ، ولالإباضية في هذه المواضيع مفاهيم كما لغيرهم والذي ساعدتهم أن يطلقوا كلمة كافر على آكل الرشوة من الإباضية ومن غيرهم هو قول الرسول ﷺ : « الرشوة في الحكم كفر » وعلى من أتى كاهنا أو عرفا فصدقه ، قوله ﷺ : « من أتى كاهنا أو عرفا فصدقه فيما يقال فقد كفر بما أنزل على محمد » وعلى من تهاون بصلاة ، قوله ﷺ : « من ترك الصلاة كفر » وعلى من وجب عليه الحج فلم يؤده ، قوله تبارك وتعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » • وعلى من يتعامل بالربا قوله تبارك وتعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » • إلى كثير من هذه النصوص التي وردت بهذا المعنى والتي إذا أمكن تأويل بعضها بالشرك أو الردة فإن بعضها الآخر لا يمكن تأويله إلا على كفر النعمة الذي هو بمعنى العصيان أو الفسوق ، أما ما يطلق عليه أصحاب الحديث : كفر دون الكفر •

إن الرسول ﷺ وصف المرتضى ، ومصداق الكاهن والعرف والمراعى

والمتهاون في أداء الفريضة ، والمسلمين المتقاتلين : « إلا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » بالكفر فما ذنب الإباضية إذا استعملوا هذه الكلمة في وصف العصاة الذين يرتكبون تلك الموبقات أو ما يشبهها — وهم على يقين أن الرسول ﷺ حين وصف المرتشى والمرابي ومن بعدهما بالكفر لم يحكم عليهم بالشرك أو الردة والخروج من الملة • فاستعمل الإباضية كلمة الكفر في المواضيع التي استعملها رسول الله ﷺ وفيما يشبهها ولم يريدوا بها في ذلك الحكم بالشرك أو الردة والخروج من الملة • ولو حكم بالشرك والخروج من الملة على كل من ارتشى وكل من رابى وكل من صدق كاهناً أو عرافاً ، وكل من تهاون في صلاة أو حج فريضة • وكل من ارتكب معصية من المعاصي التي وصف رسول الله ﷺ مرتكبها بالكفر لما بقى من المسلمين إلا العدد اليسير • ولو سرنا مع هذا المنطق لحكمنا على جميع المسلمين بالشرك أو الردة لقوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وقد بدأ ضرب الرقاب بعده بقليل ولم يتوقف حتى اليوم • بل إن رقاب المسلمين لتطير بأيدي المسلمين في كل يوم حتى هذا العصر ولا يبدو أنها ستتوقف فهل نصكم على هؤلاء كلهم بأنهم مشركون مرتدون ، وهل نحكم على أولئك البسطاء السذج الذين يصدقون كل شيء حتى العراف بأنهم مشركون مرتدون •

إن الإباضية في استعمالهم كلمة الكفر على العصاة ، لا يفرقون بين مخالفاتهم وموافقهم فليس من حق الأستاذ أبي زهرة أن ينساق مع الأقدمين فيقول : « إن مخالفهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا » •

بهذا التعبير الملتوى الغامض الذي يثير الحفاظ ، ويجلب السخط ،

ويروم أن الإباضية يحكمون على غيرهم من جميع المسلمين بالشرك لأن الكلمة التي يبقى صداها في ذهن المسلم بعد أن يقال له إن الإباضية يقولون عنك أنك لست مشركا ولست مؤمناً ولكنك كافر أنه حكم عليه بالخروج من الإسلام وهذا ما لا يتقبله مهما تورط في ارتكاب الموبقات •

لقد حرص الأستاذ أبو زهرة أن يأتي بهذه العبارة الملتوية من المصادر التي استقى منها ، والتي كانت تكتب تحت إيعاءات وإيعازات ، وأن يقرر أن الإباضية يسمون مخالفيهم كفارا ، وليته — إذ فعل — شرح المعنى الذي تدل عليه كلمة الكفر عند الإباضية إذن لخفف في وقعها وحدتها قليلا • وهو يعلم معناها عندهم ولا ريب ولكنه لم يفعل وإنما علق عليها ببعض كلمات لا تزيدها إلا غموضا عند من لا يعرف الاصطلاحات الشرعية ومدلولاتها الخاصة فليت أستاذنا أبا زهرة ، حاول إسكات هذه النعرة ، وسدّ هذه الثغرة ، وأطفأ هذه الجمرة ، ودعا إلى التسامح والانفتاح بين طوائف المسلمين جميعا •

ويقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلناه عنه سابقا « فهم يسرون في أنفسهم أن دار المخالفين ودماءهم حرام » • هكذا بالحرف الواحد • وليت شعري إذا كانوا يسرون ذلك في أنفسهم فكيف اطلع عليه الأستاذ أبو زهرة ، ثم أية نفس هذه التي يحتفظون فيها بهذا السر العظيم ؟ هل هي نفس فردية أم نفس جماعية ؟ ثم من هذا الذي أخرج هذا السر وباح به ؟ من هذا الذي أفشى سر الإباضية ؟ إنهم لو عرفوه لقطعوا لسانه !! ما كنا نتوقع من قلم مثل قلم أستاذنا الكبير أن يخط هذا الكلام الذي لا يصدقه عقل يحترم نفسه ، ولكن ما الحيلة والأستاذ يريد أن يعيش في تلافيف عصر ، يلعب بالكلام ، ويحارب بالإيهام ، ويناقش

بالإبهام • ولو رجع إلى كتب الإباضية وهي ليست منه بعيدة لعرف منها أن الإباضية يلتزمون بقوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » • إن الإباضية عملاً بتشريع الله الذي بلغه الرسول ﷺ يعلنون ولا يسرون — في كتبهم ودروسهم ومجالسهم — أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام بكلمة التوحيد ، وأن أصداء خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع لا تزال ترن في جنبات صدر كل مسلم « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » لقد أعلن النبي ﷺ هذا الحكم يوم الحج الأكبر فلماذا يسره الإباضية في أنفسهم • والإباضية في تاريخهم الطويل لم يخالفوه ، وليس إسراره من مصلحتهم ولا من مصلحة أحد من المسلمين •

ويقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلناه عنه في أول هذا الفصل : « ولهم فقه مدون ، وللبابضية جهود في تحرير مذهبهم » • ويقول في موضع آخر من كتابه مما نقلناه عنه ، « ولهم فقه جيد ولهم علماء ممتازون » •

أطلق الأستاذ أبو زهرة هذه الأحكام على الإباضية وفقهم ثم انصرف عنهم كأنما كان يفر من ملاحقة لعنة تاريخية ، ولم يقف إلا حينما بدأ يكتب عن المذاهب الفقهية ، فكتب عن الحنفية ستاً وأربعين صفحة ، وكتب عن المالكية خمسين صفحة ، وكتب عن الشافعية ستاً وخمسين صفحة ، وكتب عن الحنابلة ثمانين صفحة ، وكتب عن الظاهرية سبعمائة وستين صفحة ، وكتب عن مذهب ابن تيمية سبعمائة وخمسين صفحة • وكتب عن الزيدية ستاً وخمسين صفحة ، وكتب عن الجعفرية أربعين

صفحة • ولكنه لم يكتب عن الإباضية شيئاً ، فما الذى أطلق قلمه هناك وقيده هنا ؟ لقد اعتبر الزيدية والجعفرية أحزاباً دينية كما قال ذلك عن الإباضية ومع ذلك فقد ألحقهما بالمذاهب الفقهية ولم يعط هذه الدرجة للإباضية • لماذا كان الاعتراف بذينك الحزبين ولم يكن بهذا الحزب ؟ رغم أنه حينما كان يعدد الأحزاب الدينية جعل هذه الفرق الثلاث تشترك في صفة الحزبية الدينية ، أما المقومات التى أهلتها - في نظر أستاذنا - لأن تدخل ضمن المذاهب أنها لها فقه مدون •

لماذا يقف شيخنا أبو زهرة من الإباضية هـذا الموقف ؟ أكل ذلك لأن أقلما يحترمها ذكرت أن الإباضية فرقة من الخوارج ؟ وماذا يضرب أبا زهرة لو بحث بنفسه عن معنى الخارجية في عقائدهم وسلوكهم ليتحقق من الحكم عليهم ، ولعله لو فعل لوجد معنى الخارجية بالعقيدة والسلوك أوضح وأظهر في كثير ممن يرمى الإباضية بذلك مصداقاً للمثل العربى القديم « رمئى بدائها وانسلت » ولما وجد في عقائد الإباضية وسلوكهم أى أثر للخارجية •

بيدو أن الأستاذ أبا زهرة لا يريد أن يخالف المصادر التى استقى منها والننى قد اكتسبت بقدورها جلالاً وقداًسة ، ولا يريد أن يعترف بالواقع الذى عليه الإباضية ، لأن ذلك يهدم كثيراً من الأحكام التى أطلقت عليهم ، ولا يريد أن يعتمد على كتبهم ومصادرهم لأن حكاية « يسرون في أنفسهم » تتردد بين عينيه وتثير الشكوك في نفسه •

وهكذا فضل أن يعتمد على مصادر غيرهم ممن سبقه بقرون ، وأن ينقل ذلك مهما كان موقعه من الصدق والحق ، وأن يتغاضى عنهم رغم

اعترافه — على الأقل في الجانب الفقهي — بأنهم في مستوى غيرهم من المذاهب الأخرى التي كتب عنها وأطال الكتابة •

ويعد كل هذا ألا يحس أستاذنا أبو زهرة بأن اعتباره الإباضية فرقة من الخوارج أمر يدعو إلى التساؤل حين يحمل آراءهم في تلك الفقرات التي سبق أن ذكرناها والتي هي ليست خاصة الإباضية وإنما هي آراء جميع الأمة الإسلامية فهي ليست قضايا غير مجموعة من الناس باعتبارها خاصة بهم لا يقول بها غيرهم ، وإذا تجاوزنا الفقرة الأولى التي نقلها الأستاذ بحروفها والتي وضعها واضعوها بقصد الإبهام والإيهام فإنه يقرر أن الإباضية يحرمون دماء مخالفيهم ويعتبرون دارهم دار إسلام ولا يستحلون من غنائم المسلمين أثناء الحرب معهم إلا السلاح ويجوزون شهادة مخالفيهم والتزوج منهم والتوارث معهم وهل غيرهم من المذاهب يرون غير هذا الرأي ؟ ويقولون بغير القبول إذا إستثنينا بعض الشواذ من جميع المذاهب الذين تتغلب عليهم العصبية ويوجههم الغلو كما ذكرنا أمثلة من ذلك في بعض الفصول السابقة • ويبدو لي لو أن الأستاذ أبا زهرة أراد أن يتبع أسلوباً واضحاً يتخلص من روااسب الماضي ويتحرر من أصابع السياسة التي صنعت كثيراً من ذلك الماضي لسهل عليه من بادية الأمر أن يشرح كلمة الكفر بالمعنى الشرعي لها والذي حرص الإباضية على استعماله فقال إن الإباضية يستعملون كلمة الكفر بمعنى كفر النعمة أو المعصية أو الفسوق فإذا أطلقوا كلمة كفر على أهل التوحيد فالقصد كفر النعمة أو العصيان كما يعبر بعض المذاهب • وإذا اتضح هذا المعنى لكلمة الكفر لم يحتاج للأسلوب المتلوى الذي يستعمله الأقدمون كما أنه لا حاجة به إلى كلمة المخالفين التي دستها السياسة الماكرة في هذه المباحث وحرص عليها كتاب المقالات دون اهتمام

بصدرها ومدلولها • والعصيان قد يكون بسبب المخارفة وقد يكون بسبب الإهمال وقد يكون بسبب الخطأ في التأويل • والإباضية قد يطلقون كما قلنا آنفاً كلمة الكفر على العاصي من هؤلاء وهم يقصدون معنى العصيان ويتعاملون معه سواء كان من الإباضية أو من غيرهم على الأسس التي ذكرها أستاذنا أبو زهرة • فهذا العاصي بالمخارفة أو بالإهمال أو بالخطأ في التأويل — يسميه الإباضية مسلماً ويسمونه موحدًا ولكنهم لا يسمونه مشركاً ويرون أن دمه حرام فلا يسفك إلا بما تحل به دماء المسلمين ويرون أن ماله حرام إلا بالطرق التي تحل بها أموال المسلمين ويرون أن داره دار للمسلمين وإذا حاربهم لم يستحلوا شيئاً من أمواله حتى السلاح خلافاً لما ذكره أستاذنا أبو زهرة ويتعاملون معه كما يتعاملون مع بقية المسلمين • الشهادة والنكاح والميراث وغيرها •

ولسنا نشك أن الأستاذ أبا زهرة يعرف من حقيقة الإباضية ما يعرفه الإباضية أنفسهم عن آرائهم ومقالاتهم ولو تحرر من رواسب الماضي لما ذكرهم في الخوارج ولا في الأحزاب الدينية •

والآن أستطيع أن أخص ما عتبنا فيه على شيخنا الكبير في النقاط الآتية :

١ — اعتماده على مصادر الآخرين عند الكتابة عن الإباضية ومقالاتهم وكان في إمكانه أن يعتمد على كتب الإباضية أنفسهم •

٢ — استعماله لنفس التعبيرات الملتوية الموهمة التي كانت تستعملها كتب المقالات المتميزة منذ قرون •

٣ — تغافله عن دسائس السياسة بحيث أصبح التركيز على معسكرين فكانت كلمة « مخالفين » هي محور الحديث .

٤ — انسياقه وراء آراء المستشرقين أو من أخذ عنهم في تقسيمهم الأمة إلى قسمين كبيرين : مذاهب فقهية ، وأحزاب دينية .

٥ — إهماله للكتابة عن المذهب الإباضي وفقهه وقد كتب عن كل من المذاهب الفقهية وما يسميه بالأحزاب الدينية .

٦ — إرضاء أصحاب المقالات السابقين ومن يترسوم خطاهم ، أخرج الأستاذ أبو زهرة الإباضية في فرق الخوارج ولما لم يجد شيئاً يربطهم بالخوارج أو يجعل لهم مواقف منفردة شاذة تميزهم ذكر عنهم تلك الفقرة الأولى التي أعتقد أنها تميزهم كما ذكر لهم عدداً من الأقوال هي ليست خاصة بهم بل على قدر مشترك بين جميع الأمة الإسلامية غير الخوارج فيما يقال عنهم . أو بعض الشواذ حتى من أهل السنة .

٧ — كنا نطمح من أستاذنا الكبير أن يكون موقفه في هذه القضايا الهامة أوضح وأصرح ، وأن يكون أكثر تحملاً ، وأن تكون مساعيه أكثر جدية ونشاطاً وجهداً في التقريب بين طوائف المسلمين ، وإزالة الجفاء الذي اصطنعته السياسة والتعصب قديماً والاستعمار والجهل والتعصب أيضاً حديثاً . ويسرنى في ختام هذا الفصل أن أعتذر إلى أستاذنا الكبير أبي زهرة عن أية عبارة قد يستشعر منها سوء أدب معه . فأنا على جميع الأحوال أكن له من الاحترام والتقدير ما يستحقه هو وأمثاله من فضلاء علمائنا الاجلاء الذين خدموا الإسلام في هذا العصر خدمة لا تنساها الأجيال . وإذا عتبت عليه في النقاط السابقة فإنما هو موقف المتعلم الجسور الصريح مع العالم العزيز المسادة الواسع الاطلاع المنفسح الصدر الحليم الذي يحتمل شغب المتعلمين بصبر وحب .

مع عبد القادر شيبية الحمد

في سنة ١٣٨٧ هـ تشرفت بزيارة مدينة رسول الله ﷺ وكان من أهم ما يشغل بالي - بعد السلام على رسول الله ﷺ ، والصلاة في الحرم النبوي الشريف ، ثم الوقوف في منازل الوحي ، ومواطن العبادة والذكرى من مقامات رسول الله ﷺ ومقامات أصحابه رضوان الله عليهم - هو زيارة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، والتعرف بطوائفها الأجلاء . وسنحت لي الفرصة في يوم فزرتها ، وتشرفت بمعرفة كثير من مشايخها العظام ، وأسأذتها الفضلاء . ولم يتح لي اللقاء بفضيلة رئيسها لأنه حينئذ كان ينجز لبعض المهام كما قيل لي .

تجولت في رحاب الجامعة العامرة . ودخلت بعض فصولها ، واستنمت إلى بعض المحاضرات في بعض الفصول . وعندما أردت الانصراف أهدت إلى إدارة الجامعة مشكورة مجموعة من النشرات والمناهج والكتب مما تضعه الجامعة أو تتولى الإشراف عليه ونشره . وخرجت منشرح الصدر مثلوج الفؤاد . فهذه جامعة إسلامية ، تقوم في دار هجرة النبي ﷺ . توالى إرسال أشعة النور والهداية إلى حوالى سبعين بلداً - فقد قيل لي إن بالجامعة طلاباً من حوالى سبعين بلداً - وهذا فضل من الله عظيم .

فلو نجحت الجامعة في إحكام رباط المودة والأخوة بين أبنائها لقام بعد زمن وجيز دعاء مسلمون في كل جنبات العالم يعتقدون أوامر الأخوة بين الطوائف المتناهرة ، ويربطون علائق المحبة بين شعوب تدين بالإسلام ولكن فرقت بينهم السياسات والقوميات والعصبية والأهواء . وعساهم

يعودون بها إلى وحدة متماسكة كالوحدة التي أنشأها سيدنا رسول الله ﷺ ، وتلاميذه الأذكياء الأصفياء النجباء البررة ، ورجعت إلى البيت أقلب الهدايا الثمينة التي أخذتها من الجامعة العامرة فإذا هن بينها كتاب اسمه « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » والكتاب مقرر على طلاب الشهادة العالية بكليتى الشريعة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

أما المؤلف فهو الأستاذ عبد القادر شيبية الحمد الأستاذ بالجامعة وقد لقيته بالجامعة لقاء عابرا ، كما استمعت إليه وهو يلقي دروس الوعظ والإرشاد فى مسجد الرسول ﷺ بين المغرب والعشاء وقد أعد له هناك كرسى مرتفع ، ومكبر صوت مسماع .

والأستاذ عبد القادر شيبية الحمد رجل يعيش فى عصر الصواريخ والأقمار وقد أتيج له أن يقيم فى مدينة رسول الله ﷺ ملتقى المسلمين من كل بلد ومن كل فرقة ، ومن كل مذهب ، وضعت له الدولة كرسيا فى الحرم النبوى الشريف ، ليلقى منه رسالة الإسلام ، ويعرف الناس بدينهم ، ويدعو أبناء هذه الأمة إلى لم الشمل ، وجمع الكلمة . وهذه الظروف المساعدة التى تحيط بالأستاذ شيبية الحمد لم تتيسر لأولئك الذين كتبوا عن الفرق الإسلامية فى العصور السابقة .

لقد كان من اليسير على الأستاذ شيبية الحمد أن يتصل بعلماء الفرق وهم يتوافدون على مسجد رسول الله ﷺ فى موسم الحج وفى غيره فيعرف منهم آراءهم وعقائدهم فيما يريد أن يكتب عنه وفيما يريد أن يقدمه فى محاضراته لطلابه ، وكذلك يستطيع أن يعرف منهم أئمتهم وكتبهم

ليتخذها مراجع لأبحاثه ، حتى تكون أدنى إلى الحقيقة ، وأقرب إلى الصحة ، وأدعى لإرضاء أصحابها •

ولكن الأستاذ شيبية الحمد - الذى التجأ إلى الس-عودية فأوته وأكرمته وفتحت له دور العلم والتحقيق ، وسلمت إليه جيلا من شباب الأمة الإسلامية ليزودهم بالعلم ويسلحهم بالإيمان ويربط بينهم بالمحبة والأخوة - لم يفعل شيئا من ذلك ، فلم يكبد نفسه عناء البحث عن المصادر الحقيقية للفرق ، ولم يتنازل إلى الاستفادة من العلماء ، وإنما عمد إلى كتب ألفت قبل عدة قرون فلخص ما فيها بما فيها كخاطب ليل وصاغها بأسلوب ينبىء عن الاستعجال تبدو فيه كثير من عبارات البغدادى التى اقتسرت من أماكنها كأنما اختيرت لما تحمله من عنف وقسوة ثم جمع كل ذلك بين دفتين ، وجاء به إلى الجامعة الإسلامية كأنما جاء يجرء أسدا من أذنيه ثم طفق يلقي ذلك الخليط على طلبة الجامعة • لقد حدثنى بعض طلاب الإباضية فى الجامعة • أن أستاذهم حين يتحدث عن الإباضية • لم يكن يهتم بهم ولا بقولة الحق فى مذهبهم • ولم يكن يستمع إلى أحد إذا أراد مزيدا من المناقشة ، وعندما أخبروه فى بعض ما ينسبه إلى الإباضية أنه ليس من مقالاتهم وأظهروا له استعدادهم لتزويده بالمراجع التى يستطيع بها التحقق من الموضوع ، رفض الرجوع إلى كتبهم وإذا حاول أحدهم أن يتجه إليه بسؤال أسكته بتلك النظرة المتعالية التى يحسها بعض الأساتذة المتعرفين ، وقد ينبزه بتوبيخة جارحة يضحك لها بعض الطلاب ويتألم لها آخرون •

وهكذا يستمر الأستاذ شيبية الحمد يحاضر لأبناء المسلمين من سبعين بلداً فلسفة تنسب إلى فرق إسلامية لا وجود لتلك الفلسفة عند تلك

الفرق ويتخذ لها أئمة وعلماء لا تعرفهم ولا تعرف عنهم شيئاً بل قد تتبرأ من تلك المقالات ومن يقول بها •

وأعجب ما في الموضوع أن الأستاذ شيبه الحمد وهو يسبح بين كتب ألفت قبل عدة قرون - ويتحدث عن فرق ومذاهب قد انقرضت هي وأصحابها ونخر السوس عظامها ومع ذلك فهو يسميها « المعاصرة » ومن تلك المذاهب أو الفرق ما لا يعرف عنها شيء البتة غير الاسم الذي أورده كتاب المقالات الناقدون عليها وما نسبوه إليها من شنائع فكيف صارت تلك المذاهب والفرق التي انقطعت حركتها في مجرى التاريخ وركم عليها الزمن عدداً من القرون • كيف صارت فرقاً معاصرة؟؟ والمؤلم في الموضوع كله أن الكتاب مقرر في أكبر جامعة إسلامية في الوقت الحاضر ، وهو يدرس في المدينة المنورة ، وفي جامعة ترعاها دولة هي الدولة التي أناط الله بها في هذا العصر خدمة الحرمين الشريفين ورعاية مقدسات الإسلام ، ثم استقبال حجاج المسلمين من جميع أصقاع الأرض بمختلف طوائفهم ومذاهبهم في كل سنة ، ودعوتهم إلى التفاهم والتعاون والتناصر • وإلى الاتحاد والعمل المتواصل للقيام بأعباء الرسالة التي أنزلها الله تبارك وتعالى لسعادة البشرية •

فكيف تسمح إدارة الجامعة العامرة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدرس أباطيل عن فرقة من فرق المسلمين على طلاب سبعين بلداً من مختلف بقاع العالم وفي أولئك الطلاب من ينتمى إلى تلك الفرقة فإذا طلبوا تصحيح الخطأ عن مقالات فرقته وهم أعرف بها لم يسمع منهم بل لم يسمح لهم وربما اتخذت ضدهم عقوبات صارمة منها الحرمان من الدراسة وذلك كله بمساعي الأستاذ شيبه الحمد الذي يريد أن تكون

كلمته عن الفرق نافذة وحكمه على أصحاب المذاهب لا راد له
ولا معقب عليه •

إذا كان التقليد الأعمى أوجب الراحة ، أو عدم العناية بالبحث
والتنقيب • أو حتى سوء النية هي الأسباب التي حملت شبيبة الحمد على
نك المواقف فكيف ساغ للجامعة العامرة أن تغفل عن مراقبة ما يجرى
فيها في أهم ركن من أركان رسالتها ، وهي القوامة على كلمة الحق ،
المسئولة عن العمل لجمع كلمة الأمة ؛ المطالبة بالتحقيق والتثبت والصدق
في جميع ما تقدمه لأبناء الأمة في مجال العلوم الشرعية وإذا غفلت
الجامعة عن تتبع ما يقدم للطلبة ومعرفته معرفة تفصيلية فكيف ساغ
للدولة من ورائها أن تسمح لأفراد بتخطيط مناهج وتنفيذها دون أن يخطط
لها تخطيط دقيق من أجهزة مسئولة مكلفة بالمراقبة تقدر خطوات العمل
وتوحى بها حتى يتسنى توجيه أبناء المسلمين في أهم مادة - مادة
الشرعية - توجيهها سليما مبنيا على الصدق وقائما بالحق •

إننى ما كنت لأعرض للأستاذ عبد القادر شبيبة الحمد لو لم يحمل
كتابه اسم الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وهذا النقد الأخرى
لا نرسله إليه فقد ثبت مما قصه علينا طلابه ومن بعض المواقف مع
غيرهم أنه يملك من الجرأة ما يحول بينه وبين الرجوع إلى الحق
وإنما توجه كلمة العتب الأخرى أو الالتماس الأخرى إلى إدارة الجامعة
العامرة ، ورئيسها الوقور وأساتذتها العظام •

كنا نأمل أن تعمل الجامعة الإسلامية على التحقيق فيما يقال عن
فرق المسلمين وأن تأخذ آراءهم ومقالاتهم من كتبهم وعلمائهم وبذلك

يمكن للجامعة أن تعلن كلمة الحق ، وتجمع الشمل ، وتوحد الصف وتكون في مركز القيادة الروحية لهذه الأمة بجميع مذاهبها لأنها مهدت اللقاء بينهم على نور العلم وجعلت كل واحد منهم يعرف ما عند الآخر في يقين . وإذا عسر على المؤلفين الأقدمين أن يعرفوا مقالات المذاهب والفرق من مصدرها فأخذوها من حيث ما اتفق فتسرب إليهم الخطأ والأباطيل . فقد تيسرت الوسائل اليوم - والحمد لله - للمؤلفين والعماء للاتصال والاطلاع ولا سيما لعلماء ومؤلفي الدولة السعودية ، فهي تملك من الإمكانيات البشرية والمادية والروحية ما يمكنها من الاتصال بأصحاب جميع المذاهب الإسلامية المعاصرة حقا . ومعرفة عقائدها في مصادرهما سواء كانت كتباً أو رجالاً وأخذها منها .

وفي إمكانها أن تعقد مؤتمراً سنوياً لعلماء جميع المذاهب الإسلامية سواء كان ذلك في أيام الحج أو في غيره تطرح فيه القضايا الهامة وتوضح الآراء والعقائد بحججها وبراهينها . وتزود الجامعة بالمراجع المعتمدة لكل مذهب وإيضاح الأقوال المعمول بها . على أن يكون هذا المؤتمر عرض وإيضاح لا مؤتمر جدال يريد فيه كل أصحاب مذهب أن يبرهنوا على صحة مذهبهم وبطلان غيره . فلنفتح هذا الباب لا يأتى بنتيجة وقد يأتى بنتيجة عكسية .

بل إننا نطمح في الجامعة في أكثر من ذلك . وذلك بأن تكون لجاناً للتأليف يشترك فيها علماء الأمة من مختلف مذاهبهم ويصدرون كتباً حسب المناهج المقررة في الجامعة لتدرس فيها - مشتملة على المقالات الحقيقية للفرق والمذاهب المعاصرة فعلاً - وبذلك تقضى على النظرات

الضيقة ، وتوقف زحف العصبية المقيتة • وتحول دون التأثير الفردي
في توجيه طلاب المسلمين •

إن الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، يجب ألا تصطبغ بمذهب معين فهى للمسلمين جميعا ، تقدم لهم الثقافة الإسلامية من منابعها الصافية • كتاب الله وسنة رسوله فإذا انتقلت بعد ذلك إلى كلام البشر سواء ما كان منه منسوبا إلى مذهب أو ما كان منسوبا إلى فرد فإنه يجب أن يعرض بوضوح ومن مصادر ثابتة مع التأكيد على أنه قول لغير معصوم بل إننى أعتقد أنه مما يدخل تحت مسؤوليات الجامعة وأعمالها إذابة المذهبية وألا يكون فيها شيء غير مصادر التشريع من كتاب أو سنة أو إجماع ثم بعد ذلك آراء الأفراد خاضعة للنقاش وللحكم عليها بالخطأ والصواب وعمل الجامعة هو أن تقدم للطلاب تلك الآراء كما يقدمها أصحابها بأدلتها وبراهينها مع عدم محاولة فرض رأى معين أو مذهب معين •

ولو فعلت هذا لكسبت قلوب الملايين من المسلمين بفرقتهم المختلفة ولسقط كثير من الأباطيل التى يتنازب بها أصحاب المذاهب ولو وجد كل فرد من المسلمين عدرا قائما لأخيه فيما يذهب إليه ويقول به • ولظهرت لها تفاهة ما يكتبه وما يقوله بعض من يسرت لهم مكانا للكتابة ومكانا للقول •

وبعد هذه الكلمة التى أرجو أن تكون دعوة مخلصه لرعاية المناهج فى المعاهد الإسلامية • وألا تفهم بأنها نقد خاص لإدارة الجامعة الإسلامية أو الدولة السعودية ، أو نبيل من كفاءة أساتذتها ومشايخها فإن فى الجامعة

العامة من الأعلام من يشرفنى الجلوس بين يديه كتلميذ صغير • بل لقد فعلت وحضرت بالفعل حلقات دروس الوعظ للمشايخ العظام : الشنقيطى ، والإفريقي ، والجزائرى ، والكتانى وحتى شيبة الحمد • ويهمنى أن يرافقتنى القارىء الكريم بعض الوقت مع الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد فى جولة قصيرة بين صفحات كتاب : « الأديان والمذاهب والفرق المعاصرة » يقول الأستاذ شيبة الحمد صفحة ١٥٨ ما يلى :

« وكان من رأى عبد الله بن إياض أن مخالفيهم من أهل القبلة ليسوا مؤمنين ولا شركين ولكنهم كفار • رمع ذلك لم يحرم مناكحتهم ومواريتهم ، وشهادتهم ولو على أوليائهم بدعوى أن معهم دعوة المسلمين تجمعهم ، كما لم يبيح دماءهم فى السر ، وأن أشباحها فى العلانية • ورأى عبد الله إياض كذلك أن أموال مخالفيهم لا تحل لهم عند الغنيمة إذا كانت ذها أو فضة ، أما الخيل والسلاح وما يكون من آلة القتال فإنه حلال » •

ثم ذكر قصة خروج عبد الله بن إياض فى عهد مروان بن محمد وقتله فى ثبالة • (وقد بينا فيما سبق أن هذا غير صحيح) • ثم نقل ما قاله ابن حزم وبعض كتاب المقالات من أن عبد الله بن إياض رجع إلى الثعالبة وأن الإباضية فى الأندلس لا يعرفونه (وقد ناقشنا هذه الخرافة أيضا وبيننا بطلانها فيما سبق) ثم ذكر أن الإباضية ينقسمون إلى سبع فرق : وهى اليزيدية ، والحفصية والحارثية • وهى نفس الفرق التى تعرضنا لها أثناء مناقشتنا لأبى الحسن الأشعري وبيننا هناك أن هذه الفرق إما أنه لا وجود لها وإما أنها لا علاقة لها بالإباضية • ثم ذكر الإبراهيمية

والميمونية والواقفة والبيهسية • وهذه الفرق الأخيرة استخلصها شيبية الحمد من خرافة الأمة وبنيت ثعلبية • تلك القصة التافهة التي نقلناها عن أبى الحسن الأشعري وبيننا هناك عدم صدقها عموماً أو عند الإباضية فحسب وأوضحنا هناك أن تلك الفرق ليست من الإباضية ولعله من المضحك أن يقرأ الإنسان لشيبية الحمد صفحة ١١١ ما يلي :

« الإبراهيمية : هم أتباع رجل من الإباضية يقال له : إبراهيم ، وليس لهؤلاء مذهب تفردوا به : وإنما صاروا فرقة من فرق الإباضية بسبب أن إبراهيم هذا دعا جماعة من الإباضية إلى داره » • ثم يذكر قصة بيع أمة إبراهيم • وهى نفس القصة التى تكررت فى عدد من كتب المقالات •

خلاصة مذهب الإباضية

١ — يعتبرون دار مخالفيهم من أهل القبلة دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى عندهم » •

٢ — وقد اختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال : فقالت طائفة منهم هو :

(أ) براءة من الشرك والإيمان جميعاً لقوله تعالى « مذذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » •

(ب) وقالت طائفة منهم إن النفاق قاصر على من سماهم الله عز وجل به عند نزول القرآن ، فلا نزيل اسم النفاق من موضعه ولا نسمى به غير من سمى الله عز وجل •

(ج) وقالت طائفة منهم : المنافقون أهل توحيد ولكنهم أصحاب
كبائر لا يدخلون في الشرك وإن سميانهم كفارا •

٣ — من مذهبهم أن من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب
فإن تاب وإلا قتل •

٤ — لم يستبيحوا قتل النساء والأطفال •

٥ — أباحوا قتل المشبهة واتباع مدبرهم وسبى نسائهم وذرائعهم
بناء على أنهم مرتدون ، وأن أبا بكر رضى الله عنه فعل هذا بالمرتدين •
هكذا استطاع شيبة الحمد أن يلخص المذهب الإباضى فى سطور وأن
يحصره فى خمس نقاط • كما فعل من قبله الأستاذ أبو زهرة وغيره •

إن للإباضية — كما لغيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى — فى
أصول الشريعة وفروعها عشرات من الكتب تشتمل على مئات من الأجزاء •
فكيف استطاع الأستاذ شيبة الحمد ومن سار على نهجه أن يلخص تلك
المجلدات الضخمة فى خمس نقاط فى نصف صحيفة متوسطة ؟

ثم هل يعنى أصحاب هذا المذهب الإسلامى لم يهتموا بشيء من
أمور الإسلام غير دار المخالفين ، ومعنى النفاق وحياة النساء والأطفال ،
ومصير المحدودين فى الزنى والسرقة ، ومعاملة المشبهة ؟ وإن بقية أحكام
الإسلام من دين وشريعة لا هم لهم بها ، ولا بحث لهم فيها ،
ولا رأى ولا عقيدة ؟

أم يرى أن الإباضية إنما يختلفون عن غيرهم من المسلمين فى هذه
النقط فقط ويتفقون فيما بقى ؟ وهل اتفق المسلمون فيما بقى ؟

أم أن الأستاذ شيبية الحمد يرى أن الإسلام هو هذه النقاط فقط وأن غيره لا أثر له في عقيدة المسلمين وسلوكهم .

إن القارئ الكريم مهما فكر في هذا الملخص فإنه لا يستطيع أن يخرج منه بنتيجة . وعوض الله خيرا على أولئك الطلاب الذين ظنوا أنهم يتلقون العلم . وهم إنما تحشى أذهانهم بفراغ .

لو رجع الأستاذ عبد القادر إلى كتب الإباضية لوجد لهم بصوفا ممتعة في أصول الشريعة وفروعها ، وجميع أنواع ثقافتها . وهم يتلاقون في بحوثهم مع المذاهب الإسلامية الأخرى هنا وهناك ولا ينفردون برأى في مسألة اجتهادية إلا نادرا ، وقد لا يكون هناك شيء انفردوا به ، وعندما ينفردون برأى في مسألة اجتهادية فذلك بناء على دليل ترجح لديهم ، كما يقع في جميع المذاهب الإسلامية الأخرى .

وهذه الحركة ، حركة اختلاف المذاهب هي خاصية من خصائص الحيوية في الإسلام ، ودليل انفساحه للعقول والأفهام ، وأساس صلاحيته لكل زمان ومكان .

فقد تختلف أنظار المجتهدين في مسألة فيذهب كل إلى رأى يعتمد فيه على دليل صح عنده ، وقد يعمل الناس بقول في جهة أو في زمان ثم يترجح غيره عليه فيعمل به الناس ويموت القول الأول أو يبقى في بطون الكتب فقط . وهذه حالة توجد عند جميع المذاهب بل قد تقع للعالم الواحد كما اشتهر للشافعي قديم وجديد وكذلك غيره . فإذا كانت هذه طبيعة الآراء في المذاهب فكيف أمكن للأستاذ عبد القادر أن يلخص مذهب الإباضية في خمس نقاط فقط .

على أنه حتى في هذه النقاط الخمس - التي ما هي في الواقع إلا مخلفات للحركات السياسية ، وآثار النزاع على الحكم • والتي كانت تتخذها السلطة الحاكمة وسيلة لإثارة الرأي العام ضد منتقدي حكمها والساخطين عليها لسوء سيرتها • ولإبعادهم عن مجال التأثير في الجماهير - لم يوفق ولم يعرف رأى الإباضية الحق ، لأنه لم يرجع إليهم وإنما رجح إلى خصومهم ومن أخذ من خصومهم • إذا جاز استعمال هذا التعبير • وقد أخطأ في النقاط جميعها • في بعض نسب إلى الإباضية غير ما يقولون • وبعضها استعمل فيها عبارات التعميم والإبهام • ولذلك رأيت أن أوضحها نقطة نقطة إما في فصول خاصة وأما في فصل معقود لمسائل اجتهادية فرعية وبرجوع القارئ الكريم إلى مناقشتنا للأستاذ عبد القادر شيبية الحمد في النقاط السابقة يتضح له أن الأستاذ عبد القادر لم يوفق حتى في هذه النقاط التي زعم أنه يلخص فيها مذهب الإباضية فنسب في بعضها إليهم ما لا يقوون به فأعطى صورة غير صحيحة عن هذا المذهب • ولا شك أن مثل هذا التشويه قد لحق ببقية المذاهب الأخرى التي تحدث عنها في كتابه •

وهذا الجهل بالمذاهب الإسلامية ، ومقالاتها الحقيقية ، والخلط بين ما يذهب إليه كل واحد منها ونسبته إلى الآخر ، والتشويه الذي ينتج عن ذلك - سواء كان مقصوداً أو غير مقصود - هو ما يجب أن يربأ عنه حمله الشريعة الإسلامية ، والأساتذة الذين يناظر بهم تدريس مواد الإسلام ، وتكوين أجيال تحمل مشاعل النور والهداية •

أما المؤسسات والمعاهد التي جعلت لتدريس مواد الإسلام فينبغي لها في هذا العصر أن ترتفع عن المذهبية الضيقة ، وأن تشرح صدرها

للبحث العلمى الواسع ، بنزاهة وتجرد ، وأن ترتفع عن اعتبارات الدول والأوطان مراكز مذهبية معينة لا تخرج عن إطارها ، وعن حسابان أن للدول القائمة مذهباً معيناً لا تخرج عن حدوده .

إن المؤسسات والمعاهد التى تتولى تدريس الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها يجب أن تغير مناهجها وكتبها على نمط يسمح لكل المذاهب الإسلامية أن تتاح لها فرصة عرض عقائدها وآرائها بوضوح وصحة من مصادرها الثابتة لا من المصادر البعيدة عنها والتى قد تشوهها وتثبت لها نقيض ما نعتقدده وتراه . بل يجب أن نعرض آراء المذاهب جميعاً باعتبارها آراء أفراد منسوبة إلى من قال بها مقيمة بما استندت إليه فى حجة أو دليل معتبراً فى الشرع ، وينبغى ألا يقوم بعرض آراء أفراد منسوبة إلى من قال بها مقيمة بما استندت إليه فى حجة أو دليل معتبر فى الشرع ، وينبغى ألا يقوم بعرض آراء أو عقائد أى مذهب إلا علماء مستثيرون منه ، يعرفونه حق المعرفة ويميزون بين المعمول به والمتروك فى أقواله ويضعونه من درجته فى الصحة أو الشذوذ .

مع الدكتور هويدى

هذا مؤلف معاصر آخر ، أصدر كتاباً سماه (تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية) وخصص الجزء الأول منه للشمال الإفريقى وقد قسم هذا الجزء إلى قسمين :

القسم الأول : تحدث فيه عن سماهم الخوارج والشيعة .

القسم الثانى : تحدث فيه عما سماه الإسلام السنوى .

ومع أن الدكتور هويدى يعيش في العصر الذى يدعو كل ما فيه إلى وجوب العمل على توحيد صفوف المسلمين ، وعلى الرفق بهم ، واستعمال الكلمات المؤنسة اللطيفة في الحديث عنهم ، مهما كانوا وأينما كانوا ، وعلى التقريب بين وجهات أنظارهم المختلفة ، وعلى منابذة الجمود والعصبية ، ورغم أن دراسته للدكتوراه كانت في باريس ، ورغم أنه دكتور في الفلسفة التى يفترض في صاحبها أن يكون واسع الأفق ، منفسح النظرة ، متفهما لجميع الآراء والنظريات • رغم كل ذلك فإنك لمجرد ما تقرأ جزءا من هذا الكتاب تحس بأن تيارا قويا يجرف قلم الدكتور في طريق معينة كأنما يسوقه بدون وعى !

جاء في كتابه ص ٤٥ ما يلى :

« فلسفة الإباضية : يلخص الأشعري في (مقالات الإسلاميين ، واختلاف المصلين) النقاط التى التقى حولها جمهور الإباضية وبوسعنا أن نجعلها على الوجه التالى » (١) •

ثم يخلط خلطا عجيبا بين ما نسبه أبو الحسن الأشعري إلى الخوارج عامة أو إلى بعض فرقهم — كالحفصية — خاصة وإلى ما نسبه إلى الإباضية ويستفرج من ذلك الخلط العجيب ، النقاط التى يزعم أن الأشعري اعتبرها ملخصا لمقالات الإباضية •

والسؤال هنا : ما الذى يحمل الدكتور على الرجوع إلى ما كتبه الأشعري قبل عشرة قرون وهو يتحدث عن الإباضية في هذا القرن ،

(١) سوف ننقل الفقرة ونعرضها للمناقشة في اواخر هذا الفصل .

أما كان أولى به وأقرب إلى الحق والصدق أن يأخذ مقالاتهم من نفس كتبهم — وعنده منهما النذر القليل ويستطيع الحصول على غيرها لو أراد بجهد يسير عندما كتب عن المالكية رجع إلى كتب المالكية فلماذا لم يقف نفس الموقف مع الإباضية ويرجع إلى كتبهم وإنما تركهم ورجع إلى غيرهم يلتمس ما قيل عنهم قبل عشرة قرون •

يقول الدكتور هويدى فى كتابه السابق ص ٤٤ ما يلى (١) :

« وكان الوهبيّة يطلقون على أنفسهم اسم — المسلمين — لأنهم وحدهم هم الذين يستحقون هذا الاسم فى نظر أنفسهم ، ولأنهم القائمون بالسنة وحدهم ، أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبيّة اسم الموحدين أى أنهم فى نظرهم ليسوا بمشركين : ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضاً — وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين الى الدين الحق — وهم عندهم مبادئ الخوارج — فرض كفاية على كل وهبى ، وأن عليه أن يبدأ بإقناعهم بالحسنى أول الأمر • فان أبوا فيجب عليه قتالهم ، لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال على عكس المشركين • (ويمثلهم فى نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فإنه تقع عليهم الجزية » •

وبعد هذا الكلام مباشرة وضع بين قوسين (الشماخى : كتاب السير) ولا شك أن القارىء — حين يجد بعد ذلك الكلام اسم الشماخى واسم كتابه السير — يعتقد أن الكلام السابق منقول عن الشماخى إذا لم يكن

(١) سنعود الى مناقشة هذه الفقرة فى فصل آت .

بالنص والحرف فبالمعنى • ولا دلالة له غير ذلك والواقع أن كتاب السير كتاب تراجم وتاريخ لا يتحدث عن هذا الموضوع مطلقا وليس فيه ما يشير الى هذا الكلام لا من قريب ولا من بعيد ولست أدري كيف تورط الدكتور فألقى نفسه في هذه المشكلة التي تجعله ينسب كلاماً الى شخص لم يقله والى كتاب لم يوجد فيه • هل كان يعتقد أن الكتاب من النادرة بحيث لا يعرفه الناس ولا يقرأونه وأنه اذا كان كذلك فلا بأس أن ينسب إليه ما ليس فيه •

قد تكفى سقطة واحدة كالسقطة السابقة للتدليل على المنهج الذى يسير عليه المؤلف ولكننا سوف نعرض على القارئ الكريم نماذج أخرى أكثر وضوحاً عن ذلك المنهج •

يقول الدكتور هويدى فى نفس الكتاب صفحة ٤٩ ما يلى :

« ومن فرق الإباضية كذلك ، فرقة النفوسية أو التميزينية أصحاب أبى يونس وسيم النفوس التميزينى الذى ثار مع أصحابه فى ولاية أبى بكر ابن الأفلح بسبب مساقى الناس • وترك اتباع الحاكم حفر هذه المساقى من غير تسوية مما أثار الناس » • (الشماخى : كتاب السير ص ١٩٥) هكذا قال : وإذا رجعت أيها القارئ الكريم الى كتاب السير للشماخى صفحة ١٩٥ فإنك سوف تجد كلاماً يناقض تماما ما أورده الدكتور عن الإباضية وعن أبى يونس ونسبه الى الشماخى • وليته حين نسب هذا الكلام الى الإباضية لم يتورط فيذكر المؤلف والكتاب والصفحة وليته إذ ذكر المؤلف لم يذكر الكتاب والصفحة • وليته إذ ذكر المؤلف والكتاب لم يذكر الصفحة حتى يمكن — دفاعا عنه — أن يستمسك الإنسان ولو بخيط

رقيق واه ولكن ما الحيلة والدكتور يريد أن يظهر بمظهر من يتبع الأسلوب العلمى فوقع فى هذه المشكلة • والآن أيها القارئ الكريم إذا رجعت الى كتاب السير للشماخى ص ٩٥ فإنك سوف تجد فيه ما يلى بالحرف الواحد :

ومنهم « (١) أبو يونس وسيم النفوس التميزينى ، قال أبو زكريا إن الإمام استعمل على قنطرة أبا يونس وسيم — وما ولاها ، فأحسن السيرة • وسبب خروجه من جبل نفوسة الى قنطرة ، أن خدمة إذا احتظن فى مساقى أرباع الناس تركن الحفر فى غير تسوية ، فيمكن الماء عند مجئ المطر • فخشى النباغات • فولى قنطرة ، فأحسن السيرة وعدل فى القضية ، وأحسن الى الرعية ، وربما طلع على أشرف موضع حيث يسمعه الأقصى والأدنى فينادى • الاثرار من الصدقة ، والثار من الصدقة يؤذى ويكرر ذلك ، وتمادى على ولايته وعدله الى أن مات مرضياً حميداً » •

ولا شك أن القارئ الكريم يرى الفرق الكبير بين ما قاله الشماخى فى السير وبين ما نسبه اليه الدكتور هويدى • ولكى تتم الصورة ويتضح موقف الدكتور هويدى أنتقل للقارئ الكريم ما يتعلق بالموضوع فى كتاب السير •

يقول الشماخى محمد سعد بن أبى يونس وسيم التميزينى فى كتابه السير ص ٢١٤ ما يلى :

(١) أى ومن علمائهم أى علماء الإباضية .

« وقال أبو زكريا أرسل أبو يونس وسيم بن سعيد ابنه سعداً الى تيهرت ليتعلم العلم ومعه نفاث بن نصر فتعلما عند الإمام • فلما بلغنا من العلوم ما أراد الله • أراد الرجوع الى بلدهما وذلك وقت موت أبي يونس عامل الإمام على قنطرة - وتقدمت أخباره - فاختار الإمام أفلح سعد الأحكام الناس وقدمه في موضع أبيه » • هذا نص ما قاله الشماخي عن أبي يونس وسيم وعن ابنه سعد • وعن المقارنة يظهر لك مناقضة ما قاله (الدكتور هويدى لما جاء في سير الشماخي فبينما يصفه الشماخي بالتقى والورع وفراره من الشبهات واختيار الإمام له - من أجل هذه الصفات - فولاه عاملاً له • ويقرر الشماخي أن أبا يونس بقى عاملاً للإمام حتى توفي وأنه كان مرضياً عنه من الناس ومن الإمام ويقرر أيضاً أنه أرسل ولده الى ثاهرت ليدرس العلم على الإمام وأنه فعلاً درس عليه حتى بلغ مراده ورجع الى بلده فاختره الإمام أيضاً عاملاً في مكان أبيه •

هذه الصورة التي وضحها الشماخي وقد جاء الدكتور هويدى بصورة مناقضة لها تماماً ونسبها الى الشماخي والدكتور هويدى يزعم أن أبا وسيم انتقد خدم الحكام فثار على الإمام وثار معه الناس حتى كونوا فرقة تسمى النفوسية والتميزينية وهو كلام لا أساس له مطلقاً لا في الواقع ولا في كتاب السير ولا في غيره من كتب التاريخ الإباضي وربما نقل الدكتور هذه الفكرة عن بعض المستشرقين وأن أولئك المستشرقين لم يفهموا كلام الشماخي ففسروه بهذه الصورة ونقلها عنهم الدكتور ، دون الرجوع الى الأصل • وإلا فلا تفسير لهذا التناقض بأى اعتبار ولا سيما أن عبارة الشماخي من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تفكير ولا تفسير • ومما وقع فيه الدكتور هويدى أيضاً من نسبة كلام الى ناس لم يقولوه أو تحريف ما قالوه بحيث يؤدي معنى غير المعنى الذي قصده المؤلف الأصلي ما نسبته الى أبي الحسن الأشعري فقد جاء في كتاب الدكتور هويدى ما يلي :

« يلخص الأشعري في (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)
 طبعة رينتر - الطبعة الثانية - ١٩٦٣) النقاط التي التقى حولها جمهور
 الإباضية وبوسعنا أن نجتمعها على الوجه التالي :

تأولوا في عثمان نحو ما تأولت الشيعة في أبي بكر وعمر ، وزعموا
 أن عليا هو الحيران الذي ذكره الله في القرآن الكريم (٦ : ١٧) « قل
 أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا
 الله . كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه
 الى الهدى » اثنتا . قل إن هدى الله . هو الهدى أمرنا لنسلم لسرب
 العالمين » .

وإن أصحابه الذين يدعونه الى الهدى أهل النهروان ، وزعموا أن
 عليا هو الذي أنزل الله سبحانه فيه الآية : « ومن الناس من يعجبك قوله
 في الحياة الدنيا » (٢ ، ٢٠٤) وأن عبد الرحمن بن ملجم هو الذي أنزل الله
 فيه (ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

وإذا رجع القارىء الكريم لم يجد هذا الكلام فيما كتبه الإمام
 الأشعري عن الإباضية وإنما يجد هذه الفقرات ضمن شنائع أخرى أشد
 منها وأخرى نسبها الإمام أبو الحسن الى الحفصية - أتباع حفص بن
 أبى المقدام - وعلق عليها الإمام أبو الحسن هناك بقوله : « إلا أن جل
 الإباضية يبرأون منه إلا من تبعه - أى يبرأون من حفص وأتباعه لشناعة
 مقالاته - ولكن الدكتور هويدى الذى نسب الى الشماخى ما نسب
 لا يعجزه أن ينسب الى أبى الحسن الأشعري ما يريد أن ينسب .

وفي الحين الذى يذكر أبو الحسن أقوال الحفصية ثم ينص على
 أن الإباضية يبرأون من ذلك أى يبرأون من الأقوال وممن قال بها - يأتى

الدكتور هويدى فيأخذ مما نسب الى الحفصية فقرة - لعلمنا أشنع ما نسب الحفصية - فيجعلها مما يلتقى حوله الإباضية وينسب ذلك كله الى أبى الحسن الأشعري مفسراً قول أبى الحسن « إلا أن جل الإباضية يبرأون منه » بقوله هو النقاط التى يلتقى حولها جمهور الإباضية يعنى أن أبى الحسن يقول إن جمهور الإباضية يبرأون ممن يقول هذا فيترجمه الدكتور هويدى الى جمهور الإباضية يلتقى حول هذا . ويعطى لكلمة يبرأون التى وردت على لسان أبى الحسن كلمة يلتقون التى وردت على قلمه . والدكتور يفعل هذا مع هذه الكتب وهى مطبوعة ومتداولة بين أيدي المتقفين . ولا يشعر بحرج - فيما يبدو - فى موقفه لأنه يقصد هذا .

والذى يتتبع ما كتبه الدكتور هويدى عن الإباضية - رغم ذكره لبعض كتبهم - يحس أن الدكتور يجهل كثيراً من الأشياء التى تناولها بالحديث عنها ، سواء ما كان منها مقالات وآراء فى الشريعة الإسلامية أو ما كان منها أحداثاً وتاريخاً وبلداناً والى القارىء الكريم أمثلة فى أخطائه فى الأحداث والتاريخ والبلدان .

يقول فى كتابه ص ٥٨ ما يلى :

« حيث أن الوارجلانى فى أحد فقهاء وفلاسفة الإباضية الرستميين فى جبل نفوسة » . وأبو يعقوب كما هو معروف ليس رستمياً وإنما هو سدرائى وليس من جبل نفوسة وإنما هو من سدراته وسكن وارجسلان فنسب إليها وقيل له أبو يعقوب الوارجلانى .

والرستميون سكنوا ثاهرت وقد انقرضوا قبل ثلاثة قرون من

وجود أبي يعقوب في وارجلان ووارجلا تقع في الجنوب الشرقى للجزائر
بينما تقع تاهرت في الشمال الغربى للجزائر أما جبل نفوسة فيقع في ليبيا
والأماكن الثلاثة متباعدة عن بعضها ولا علاقة في النسب بين أبي يعقوب
والرستميين ولكن الدكتور — حسبما يبدو — لا يفرق بين هذه الأسماء ،
ولا يهमे أن يفرق •

يقول في كتابه ص ٤٩ ما يلي :

« أبو يونس وسيم النفوس التميزنى الذى ثار مع أصحابه في
ولاية أبي بكر بن الأفلح » •

وأبو يونس لم يثر على إمامه أبداً • وبقي عاملا له حتى توفي —
كما أوضحنا ذلك من قبل — وهو لم يدرك إمامة أبي بكر لأنه توفي إمامة
أفلح وقد تولى ابنه سعد الولاية من بعده على قنطرة للإمام أفلح •

وكل ما كتبه الدكتور هويدى في هذه المقرة خطأ ، وأشد النقد
إنما ينصب عليه بسبب نسبه هذا الكلام الى الشماخى بتحديد الكتاب
والصفحة بينما يحمل الكتاب والصفحة ما يناقض هذا الكلام مناقضة
كاملة •

هذه شواهد مما كتبه الدكتور هويدى عن الإباضية وهى —
مع شناعتها أقل من بعض ما لم نتعرض له — وقد كتب عن بنى حيزاب
كلما تتقزز منه انفس ، يبدو أنه نقله عن بعض المستشرقين الحاقدين
على بنى ميزاب بترجمة حرفية ركيكة يظهر فيها — بوضوح — سخافة
التمبير والخطأ في نطق الأسماء •

وزعم الدكتور هويدى أنه تناول بالتفصيل بعض مصادر الفلسفة الإباضية ولكنه فيما يبدو أنه نقل تلك الدراسات عن بعض المستشرقين بما فيها من خطأ وجهل بمعانى المصطلحات كما تحدثت عن الحركة العلمية والتاريخية بكثير من التخييط والجهل .

مع الدكتور هويدى أيضاً

مهمة الشرح والإيضاح مهمة عسيرة ، وهى تقتضى ممن يضع نفسه فى موقف الشارح أن يكون ذا استعداد للقيام بهذه المهمة العسيرة .

ومن أهم الوسائل لذلك — فوق الملكة الفطرية — أن يمتلك القدرة على الفهم الصحيح . وأن يقوى على إيصال الصورة الحقيقية للموضوع إلى الآخرين فى وضوح ، وأن يكون فاهماً فهما صحيحاً لا يخطئ لما يريد شرحه ، وأن يكون أميناً فى نقل المعانى وأن يكون واضح التعبير غير جاهل بالمصطلحات ، وأن يكون عارفاً باللغة واشتقاقها معرفة دقيقة فإن اختلت فيه هذه الوسائل فإن شروحه لا تكون إلا صوراً من الغموض ، وعجائب من الخلط والتشويه . والدكتور هويدى يصر — وهويكتب عن الإباضية — أن يقدم شروحا وتعاليل كثيرة يكتنفها الخطأ من كل جانب . وسوف أناقش معه فى هذا الفصل مثلين مختصرين . الأول فى المعنى اللغوى لكلمة مفردة والثانى لفقرة تتضمن بعض الاصطلاحات .

المثال الأول :

جاء فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية نقلا عن الشماخى صفحة ٣٧ ما يلى : « فاعدوا ليوم معلوم يجتمعون فيه » . وقد شرح كلمة (ااعدوا)

بقوله (أى أعدوا العدة) ووضعها بين قوسين • وأحسب أن عبارة الشماخي واضحة لا لبس فيها ولا تحتاج الى شرح • ولكنها لا تعنى ما ذهب إليه الدكتور إلا على باب من الالتواء والتأويل لأن كلمة (اتعدوا) تعنى أنهم اتفقوا على موعد يتلاقون فيه ، أو وعد بعضهم بعضا باللقاء ، أو حددوا لأنفسهم زمانا أو مكانا يجتمعون فيه أو ما يؤدي هذا المعنى ففسر كلمة (اتعدوا) بقوله أعدوا العدة أى استعدوا والفرق بين معانى اتعدوا واستعدوا وأعدوا واضح في استعمالات اللغة العربية لأن (اتعدوا) مشتقة من وعد وهى مادة أخرى غير مادة عد ، وأعد ، واستعد •

ولكن الدكتور — وهو يتعاطى الشرح والتفسير — لم يحمل نفسه عناء التدقيق ، تدقيق معانى في الكلمات في استعمالاتها الصحيحة المختلفة • ولا عناء الرجوع الى قواميس اللغة ، للتأكد من سلامة فهمه • ولا حتى عناء التأمل في سياق العبارة وما تؤديه وأعتقد أن الاستهانة بالدقة في معانى المفردات واستعمالاتها من رجل يشتغل بالأبحاث الفلسفية ، لا يناسب ما تفرضه الفلسفة من التدقيق في معرفة الحقائق •

المثال الثانى :

يقول الدكتور هويدى في كتابه السابق ص ٤٤ ما يلى :

« يقال الإباضية الخوارج (الوهية) (١) أو (الوهابية) وكان

(١) هذه التسمية خاصة بالإباضية تطلق عليهم دون غيرهم من الفرق التى انشقت عنهم • وسبب تسميتهم بهذا الاسم أن فرقا انشقت عن الإباضية وانحرفت عن أصولها وعقائدها واحتفظت باسم الإباضية رغم أنها صار لها أسماء جديدة • فاطلق الإباضية الأصلاء على أنفسهم كلمة الوهية تميزا لهم عن غيرهم من الفرق التى مالت الى الخوارج أو الى المعتزلة • كالنكار والحسينية وغيرهم وستجد مزيدا من التفصيل والايضاح عن هذا الموضوع في الفصل الخاص بالحديث من فرق الإباضية •

الوهابية يطلقون على أنفسهم اسم (المسلمين) لأنهم وحدهم هم الذين يستحقون هذا الاسم في نظر أنفسهم ، ولأنهم القائمون بالسنة وحدهم ، أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهابية اسم (الموحدين) أى أنهم في نظرهم ليسوا بمشركين ، ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضا • وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين الى الدين الحق وهو عندهم مبادئ الخوارج فرض كفاية على كل وهبى — وأن عليه أن يبدأ بإقناعهم بالحسنى أول الأمر ، فان أبوا فيجب عليه قتالهم • لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال ، على عكس المشركين (ويمثلهم في نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فانه تقع عليهم الجزية •

حرص الدكتور هويدى حرصا شديدا على أن يذكر كلمة الخوارج قبل أو بعد كلمة الإباضية كأن إحداها تفسير للأخرى مما اقتضاه أن يكرر كلمة الخوارج — دون أية حاجة إليها — في الصفحات القليلة التي كتبها نيفا وثلاثين مرة مما يبعث السأم والاشمئزاز في نفس القارئ من هذا التشبث اللفظى الذى يسيطر على حواس الكاتب كأنما يخشى أن ينفلت من الإباضية دون أن يلتصق بهم الخوارج • وفى مقابل هذا حرص حرصا شديدا أيضا كلما ذكر المذهب مالكى أن يلحقه بكلمة السنى في إصرار وتشبث عجيبين كأنما هناك مذاهب مالكية كثيرة يتحدث هو عن واحد منها فقط أو كأنما يخشى أن ينفلت منه المذهب المالكى دون أن تلتصق به كلمة السنى • ولا يدل هذا التشبث اللفظى الساذج — إن دل على شيء — إلا على أن الكاتب في قرارة نفسه لا يصدق هذا ولا يؤمن به • وإنما يقوله ويحرص على قوله خوفا من وهم يطارده في أعماق نفسه أو كالمحدث الذى لا يثق فيما يقوله و يعلم أن الناس لا يصدقونه فيؤكد كل جملة من حديثه بيمين دون أن يطلب منه يمين •

يقول الدكتور هويدى « وكان الوهية يطلقون على أنفسهم اسم المسلمين » • ثم يذهب يشرح كلامه هذا الواضح بتفسير معقد فيزعم أن الوهية يقصرون اسم المسلمين عليهم ولا يطلقونه على غيرهم لأنهم وحدهم الذين يستحقونه ، ولأنهم القائمون بالسنة •

وأريد أن أقول للدكتور هويدى بعبارة واضحة مختصرة إن الإباضية يطلقون كلمة المسلمين على جميع أهل القبلة وهم داخلون فيها وقد يطلقونها ويريدون بها الإباضية بقريئة تدل على ذلك إما لفظية وإما بدلالة السياق وهي ترادف كلمة الموحدين في أغلب الاستعمالات ولهذا فكلام الدكتور هويدى غير صحيح وهناك بحوث شرعية مطولة بين علماء الأمة في معانى كلمات مؤمن وموحد ومسلم ومشرك وكافر ونافق وفاسق وعاص والعلاقات بين بعضها والبعض الآخر والخصوص والمعموم فيها ولكل المذاهب الإسلامية في هذا الموضوع مواقف محددة للإباضية فيها موقفهم المحدد •

وأما إنهم يحسبون أنفسهم عاملين بالإسلام قائمين بالسنة فهذا صحيح وكل مذهب من المذاهب الإسلامية يعطى لنفسه هذا الحق ويأباه عن الآخرين لأنه إذا كان للآخرين المخالفون له على الحق فهو على الباطل • ولذلك تجد كل أهل مذهب يحرصون على أن يسموا أنفسهم : أهل السنة ، أهل الحق ، أهل الاستقامة •

وربما كان مهما أن يفهم الدكتور أن جميع أصحاب المذاهب الإسلامية قد يطلقون كلمة المسلمين ويريدون بها مذاهبهم الخاصة بقريئة تدل على ذلك ولو تأمل في كتب المذهب (المالكى السنى) لوجدتها مئات المرات قد

أطلقت كلمة المسلمين على أتباع الإمام مالك فقط ولا حرج في ذلك فهي وغيرها لا تريد تحجير الواسع كما أراد أن يفسر الدكتور • بقى - في هذه النقطة أن يعلم الدكتور أن الإباضية إذا أرادوا أن يتحدثوا عن الإباضية خاصة فإن لهم أسماء خاصة كالإباضية والوهبية وأهل الدعوة وأهل الاستقامة وكثيرا ما يرد في كتب الفقه قال أصحابنا أو هذا قول أصحابنا على أن كلمتى الأصحاب وأهل الاستقامة تستعملها مذاهب أخرى للدلالة على نفسها أما الإباضية والوهبية وأهل الدعوة فهو خاص - عند الإباضية بالإباضية •

يعد هذا التفسير الملتوى الذى لا لزوم إليه من الدكتور هويدي ينزلق قلمه إلى عبارة توحى بأن الكاتب يريد إشعال فتنة بين الإباضية من جهة والمالكية والحنفية من جهة أخرى فقد قال : أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبية اسم الموحدين أى أنهم فى نظرهم ليسوا بمشركين ، ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضاً •

لست أدرى هل كان الدكتور هويدي يحس بما تدل عليه هذه العبارة وأنها لا تصدر فى هذا العصر إلا عن إنسان يريد أن يثير فتنة ، ويفرق كلمة ويزرع البغضاء بين الناس وأنه اختار المذهب المالكي والحنفى ليجعل منهما مقدح النار • وإلا فلماذا خصصهما دون بقية الفرق والمذاهب • ولماذا رجع إلى تلك العبارة الغامضة الموهمة التى قيلت قبل عشرة قرون مضت • إن كلمة الموحدين من الناحية الشرعية يطلقها الإباضية على كل من أقر بالجملة وليست خاصة بالمالكية والحنفية بل تطلق عليهما وعلى الإباضية أنفسهم وعلى غيرهم من الفرق والمذاهب التى آمنت بالله ورسوله •

إن الإباضية يطلقون على المالكية وغيرهم اسم المسلمين ويعاملونهم ويعاملون غيرهم - ممن أتى بالجملة - معاملة المسلمين لا ينقصونهم شيئاً أبداً ما عدا الاستغفار وطلب الرحمة من الله فهذه حقوق شخصية والإباضية يرون أن الولاية والبراءة الشخصيتين واجبتان فعلى كل مسلم أن يتولى ويجب ويستغفر ويسترحم للمسلم الذي يراه موفياً ويعمل صالحاً وعليه أن يبيغض ويبغض ويبغض ويبغض إلى الله من كل عاص إذا عرفه بشخصه فإذا لم يعرفه توقف فيه حتى يعرفه .

وخالصة مناقشة هذه النقطة أن الإباضية يطلقون كلمة المسلمين على جميع المسلمين دون تفریق وقد يطلقون كلمة المسلمين ويقصدون بها جزءاً منهم بدلالة قرينة أو سياق وهذا هو الأسلوب الموجود في أحاديث جميع الفرق والطوائف وعندما يتحدث أى متحدث عن النصر والهزيمة بين جيوش المسلمون وأعدائهم فقد ترد أمثال هذه العبارات فعندما يقال انتصر المسلمون في أسبانيا أو انهزموا في موقعة كذا فهم يعنون بذلك المسلمين الذين هم في الواجهة . ولا شك أن المسلمين الذين هم بعداء عن أرض القتال ليسوا منتصرين أو منهزمين في الوقائع السابقة ، وعندما يكون القتال بين فرق من المسلمين أو دول من المسلمين فيقول أحد الفريقين انتصر المسلمون أو انهزموا أو فطوا كذا فهو بالتأكيد يريد بكلمة المسلمين الجناح الذى هو فيه أو ينتهى إليه وقد استعمل كلمة المسلمين للدلالة على هذا القسم الخاص ولكن التعبير مع هذه الدلالة لا يعنى إخراج القسم الآخر من الإسلام أو الحكم عليه بالكفر . أظن أن هذا يكفى لإيضاح هذه النقطة التى حاول الدكتور هويدى أن يستعملها في غير حقيقتها .

بعد هذا كله يتورط الدكتور هويدى تورطاً مخجلاً حين يقول :

« وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين إلى الدين الحق — وهو عندهم مبادئ الخوارج — فرض كفاية على كل وهبي وأن عليه أن يبدأ باقتناعهم بالحسنى أول الأمر فإن أبوا فيجب عليه قتالهم ، لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال • على عكس المشركين (ويمثلهم في نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية ... الخ) فإنه تقع عليهم الجزية » • الواقع أن هذا الكلام غير مستقيم ولا سليم وصاحبه فيما يبدو لا يفرق بين فرض العين وفرض الكفاية فبينما يقول إن دعوة الموحدين إلى مبادئ الخوارج فرض كفاية عند الإباضية يناقض قوله هذا فيزعم أن ذلك يجب على كل فرد وأنه على كل فرد أن يدعوهم بالحسنى فإن لم يستجيبوا قاتلهم وهذا كلام يناقض بعضه بعضا وهو يزعم هنا أن الدين الحق عند الإباضية هو مبادئ الخوارج ولكنه في آخر الفصل بعد أن يقسم الإباضية إلى مجموعة من الفرق يقول وجميع هذه الفرق للإباضية تبرأ من فرق الخوارج • فإذا كانت تبرأ منهم فكيف تعتبر مبادئهم هي الدين الحق • وبوضوح واختصار نستطيع أن نقول إن هذا الكلام لا أساس له عند الإباضية ولم يوجب الإباضية أبدا — لا من باب فرض الكفاية ولا من باب فرض العين — على كل وهبي أن يدعو أصحاب المذاهب الأخرى إلى مذهبه ولا أن يقاتلهم وأقصى ما يطالب به الفرد للإباضية في هذا الموضوع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأسلوب المعروف في هذا الباب •

ولعل الدكتور الفيلسوف مرت به عبارة في بعض كتب علم الكلام تقول إن على الإمام أن يدعو مخالفيه إلى ترك ما به ضلوا وإلا أعذر إليهم وقتلهم ومثل هذه العبارة ترد عند الحديث عن الدولة ومن يخرج عنها بصفة عامة • والوجوب هنا على الإمام • والمدعو ليس هم المالكية

أو الحنفية أو غيرهم وإنما هم الطائفة الخارجة على إمام العدل مهما كان مذهبها لأنها طائفة باغية فيطلب إليهم الإمام أن يتركوا ما به ضلوا أى برروا به بغيرهم عن الإمام وأن يرجعوا إلى الأمة فإن امتنعوا قاتلهم وبشتان بين موضوع وموضوع وما أحسب أنه يستقيم في تفكير أو عقل أن يلزم كل فرد من مذهب بدعوة غيره إلى مذهبهم فإن امتنع قتله وعلى كل حال فهذا شيء لم يكن عند الإباضية .

أما عباراته الأخيرة في هذه الفقرة وهي قوله : (ولكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال على عكس المشركين ويمثلهم في نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فلا معنى لها ولا داعى إليها ولا علاقة لها بالموضوع ويخيل إلى أنها كانت كذلك في كتاب المستشرق الذى ينحت منه الدكتور فلم يفهما ولم يجهد لها موضعا فوضعها بين قوسين وجربها حتى وقعت في هذا المكان صدفة ومن غير تدبير ولا تفكر ولا إيمان .

لعله مما يفيد القارئ الكريم أن أعود معه فألخص له أخطاء الدكتور في شروحه السابقة التى لا تستند إلى حقيقة فيما يلى :

١ — اتعد القوم — وعد بعضهم بعضا — حدودا موعدا للقاء — اتفقوا على اللقاء في زمان أو مكان أو فيهما . وليس معناها أعدوا المدة .

٢ — كلمة الخوارج حتى على رأى من يعتبر الإباضية فرقة من الخوارج . ولا ترتبط بالإباضية ارتباطا لفظيا مستمرا .

٣ — الإباضية في الاستعمالات العامة يطلقون لفظ المسلمين على أمة الإجابة وهذا الأكثر في استعمالهم وقد يقصدون به الإباضية فقط بدلالة قرينة لفظية أو من السياق •

٤ — كلمة الموحدين يطلقها الإباضية على جميع من نطق بكلمة التوحيد في المسلمين وليست خاصة بالمالكية والحنفية كما تشعر عبارة الدكتور •

٥ — شرحه لكلمة الموحدين بأنها تعنى أنهم ليسوا مشركين وليسوا مسلمين غير صحيح والموحدون هم المسلمون وكل المسلمين في جميع الأزمنة والإمكانة هم موحدون •

٦ — لا يوجب الإباضية على أى إباضى أن يدعو غيره إلى الإباضية ولا يجيزون له مطلقاً أن يقبل أحداً من المسلمين سواء استجابوا له أو لم يستجيبوا وسواء دعاهم أو لم يدعهم • لأن الدعوة أمر شخصى من حقه أن يستعمله هو فقط ولا يوجب عليه أحد • ولو دعا أحداً فلم يستجب له فقتله لوجب قتله قصاصاً •

٧ — الإباضية لا يرون أن الدين الحق هو مبادئ الخوارج بل يرون أن مبادئ الخوارج ضلال وباطل وأن الدعوة إليها دعوة إلى الباطل سواء كانت دعوة بالحسنى أو بالشدّة •

٨ — الإباضية يفرقون بين أحكام المشركين وأهل الكتاب والصابئين فلكل واحد من هؤلاء حكم خاص به لا يتعداه إلى غيره • والتسوية بينهم في حكم الجزية خطأ من الدكتور فإن المشركين ليسوا من أهل الجزية • ولا تقبل منهم •

٩ - ذكر عددا من الفرق قال إنها من فرق الإباضية ثم قال :

« وجميع هذه الفرق تتبرأ من فرق الخوارج الأخرى : الأزارقنة والبيهسية والنجدات والصفورية ... الخ لكن اسم الوهبية يجمعها ويطلق عليها لكنها » * وصحيح أن الإباضية الوهبية يبرأون من جميع فرق الخوارج لكن ليس صحيحا أن كلمة الوهبية تطلق على جميع فرق الإباضية * وقد رأينا أن نخصص فصلا لمناقشة موضوع فرق الإباضية أو الانشقاق عند الإباضية وفي إمكان القارئ أن يراجع هذا الموضوع هناك *

أحسب أن هذه النماذج البسيطة التي عرضناها في هذا الفصل عن تخطيط الدكتور كافية للدلالة على قيمة الكتاب في عرضه لفلسفة الإباضية *

هويدى فى تبعية المستشرقين

للمستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام — سواء كانت كتابتهم عنه كدين ، أو عن الأمة الإسلامية جمعاء كأمة ، أو عن مذهب من مذاهبها كمذهب أو فرقة — أساليبيهم ودوافعهم ومراميهم الظاهرة والخفية . ومهما كان المشرقون مخلصين للبحث العلمى فى هذه المواضيع فإنهم — فى الحقيقة — أشد إخلاصا للدوافع والرامى الحقيقية التى حملتهم على الكتابة عن الإسلام أو عن المسلمين ، أو عنهما معا .

والواقع أنهم نجحوا إلى مدى بعيد فى تحقيق أهدافهم البعيدة التى يرمون إليها بكتاباتهم ، ومحاضراتهم ، وندواتهم ، وأسماهم ، ولعل من أبسط أهدافهم أن يتركوا لهم ظلالة فى بلاد الإسلام خاصة ، وفى الشرق عامة . وقد استطاعوا — فعلا — أن يكونوا فى البلاد الإسلامية ومن أهلها مستغربين من حملة الأقلام وأصحاب الفكر ، ينظرون إلى الشرق من نفس الزاوية التى ينظر منها المستشرقون مع فارق بسيط هو أن المستشرقين الغربيين إنما يخدمون — بما يقدمونه عن الشرق — مصلحة الغرب أى مصلحة بلادهم . أما المستغربون الشرقيون فهم إنما يخدمون أيضا — بما يقدمونه عن الشرق والغرب — مصلحة الغرب أيضا . أى مصلحة الموجهين لهم ، المؤثرين عليهم ، أى أن المستشرقين الغربيين استطاعوا أن يتركوا لهم فى الشرق ظلالة تتحرك لتحركهم ، ومفكرين وفلاسفة يفكرون بأسلوبهم ويتكلمون بمنطقهم ، ويقدمون حججهم ولو كانت تافهة مضحكة ، ويعتزون بآرائهم ولو كانت نسيجا من الأباطيل أو الأضاليل . ويلهثون وراء ما يشيرون إليه ولو كانت الإشارة من طرف البنان ومن مكان بعيد .

ولعل من أغرب ما يصادفك في هذا الباب أن تقرأ لبعض المستعربين المشهورين كلاما ينقله مترجما عن كاتب غربي ، فتعرف أن النص إنما هو لكاتب مسلم استشهد به الغربي إما نقلا أو اقتباسا فترجمه إلى لغته الأجنبية • فجاء الكاتب المسلم أو المستعرب المسلم فترجم النص من جديد إلى اللغة العربية — لأنه لا يعرف أن النص عربي — وعندما تقرؤه تمس بالألم يعتصر فؤادك ، وذلك لأن الترجمة الأولى من العربية إلى الأجنبية اطفأت نصف الروح من النص ، وترجمته الثانية من الأجنبية إلى العربية اطفأت النصف الثاني ، فلم تبق منه إلا عبارة ميتة • إن الكاتب المسلم المستعرب المعتز بتبعيته للمستشرقين لا يخلو من أحد أمرين : إما أنه يعتمد على ما يكتبه المستشرقون في القضايا الإسلامية اعتمادا كلياً وهو يترفع — بزعمه — أن يرجع إلى المصادر الإسلامية فهو يجهل تلك النصوص وأصحابها ومواقعها بل وحتى مقدار استفادة المستشرقين بها • وإما أنه يعرف ذلك ويطلع عليه ولكنه يرى أن استناده على فيلسوف غربي أرفع لقدره وأعظم لعلمه ، وأفيد لكتاباته ، وللأسماء الأعجمية الغربية رنين خاص في آذان هؤلاء كما جعل لأسماء حكماء الهند وفلاسفة الإغريق رنين خاص في بعض فقرات التاريخ •

والدكتور هويدى ممن يعتمد على المستشرقين في تحليل الفلسفة الإسلامية ويعتز بما ينقله عنهم ، ويضع آراءهم في درجة البراهين ، ويفضل إيرادها والاستشهاد بها في تثبيت النظريات وتقرير الأحكام • يقول الدكتور هويدى في كتابه (تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية) طبعة ١٩٦٦ ص ٢٧٠ ما يلي :

« يشبه دوزى فى كتابه (تاريخ المسلمين فى إسبانيا) قيام حركة الخوارج فى المغرب ونجاحها بقيام الحركة الكلفاتية فى اسكتلندا ونجاحها ، وذلك لما تنطوى عليه كل من الحركتين من انتصار للمبادئ الديمقراطية فى الدين ، ولما أدت إليه كل من الحركتين من تثبيت لدعائم الديانة التى أقامت كل منهما فى رحابها : الديانة الإسلامية والديانة المسيحية .

وعلى العكس من ذلك ذهب جوتيه — فى كتابه العصور المظلمة للمغرب — إلى أن فى القول بأن حركة الخوارج ديموقراطية مبالغة كبيرة . وذلك لأنه « قد يستهوننا القول بأن الأصل فى دعوة الخوارج أنها كانت غضبة تحركها روح ديموقراطية ديماجوجية ، لكن هذا لن يكون إلا نظرة أوروبية مبالغا فيها إلى هذه الحركة ، ومنهجا غير صائب للتعبير عنها ، حقا أننا نلتقى على رأس هذه الحركة فى المدن الكبيرة ، برجال من القاعدة الشعبية ، مثل ميسرة ، أول خليفة خارجى ، الذى كان مجرد سقاء بسيط فى مدينة طنجة فيما يرويه ابن الأثير ولكن هذه الحركة التى كانت ملحمة عسكرية كبرى ، استعانت من غير شك بقبائل الزناتية التى طبعت على الحرب ، وكان أفرادها رعاة سلموا مقاليد أمورهم إلى قيادة أروستقراطية ، فرجسل مثل « أبو قره » كان دون أدنى شك أميرا » .

هنا ينتهى كلام المستشرقين ويعلق الدكتور على ذلك بقوله :
« لكننا نخالف جوتيه الرأى ونذهب إلى أن حركة الخوارج ديموقراطية فى أساسها ، لأن العبرة بالمبادئ التى أتت بها ، أيا كانت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها رجالها ، وليس هناك ما يمنع من اعتناق

أمير أوروبستقراطى مثل (أبى قره) المبادئ الشعبية الديمقراطية التى نادى بها الخوارج غير أنه إنصافا للحقيقة علينا أن نقرر أن الخوارج وإن كانت المبادئ التى قدموها لنا ذات صبغة ديموقراطية إلا أنهم كانوا متمسكين بعروبتهم إلى الحد الذى جعلهم يحتقرون الموالى وينفرون منهم • وقد روى ابن الحديد فى شرح نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية • فقال لها الخوارج فضحتنا وليس من شك أن هذه العصبية لا تتفق مع المبادئ الديمقراطية التى لا تعرف تعصبا ضد أى جنس •

لعلنا من مناقشة هذا النموذج نستطيع أن نعطي صورة للمقارئ الكريم وضح له أسلوب المستشرقين — ومن يسير فى مخططهم — فى معالجة قضايا الشرق ، إذ لا شك أن المستشرقين يناقشون القضايا الإسلامية بموازين خاصة ، ويحاولون أن يخضعوها لمقاييس معينة عندهم يجب — فى رأيهم — أن تنطبق عليها كل الانطباق • وربما يتضح لنا أيضا أن الدكتور هويدى يسلك نفس المسلك ، وفى إمكانك أن تتأمله — فى الفقرات السابقة — وهو يعالج الحركات الإسلامية قبل عشرة قرون ، ويقيسها بالمقاييس الغربية اليوم ، معتمدا فى ذلك على ما كتبه المستشرقون سالكا نفس السبيل التى سلكوها فى التحليل والتعليل وإثبات البراهين • وتأمل تحليل الفقرات السابقة فيما يلى : المستشرق دوزيه يرى أن حركة الخوارج تشبه حركات الكلفاتية لما تتطوى عليه من المبادئ الديمقراطية •

والمستشرق جوتيه يرى أن وصف حركة الخوارج بأنها ديموقراطية مبالغ كبيرة ، ويحتج لرأيه هذا بأن أبا قره اليفرنى بويج إماما للخوارج وقد كان أوروبستقراطيا قبل ذلك •

والدكتور هويدى يقرر أن الخوارج ديموقراطيون ، ويرد على المستشرق جوتيه بأنه ليس هناك ما يمنع من اعتناق أمير أروستقراطي مثل (أبى قرّة) المبادئ الشعبوية للديموقراطية ، ولكنه مع ذلك يعود فينفي عن حركة الخوارج مبادئ الديموقراطية — إنصافا للحقيقة كما يقول — وذلك لأن الخوارج متمسكون بعروبتهم • والدليل على هذا التمسك أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية فقلوا لها فضحتنا والعصبية القومية لا تتفق مع مبادئ الديموقراطية ومنطلق الفرضية والتحليل في الفقرات السابقة أن المستشرق دوزى يزعم أن سبب نجاح حركة الخوارج هو كونها تمثل مبادئ ديموقراطية ولكن المستشرق جوتيه لا يعجبه هذا الرأي فيرده محتجا بأن فردا أروستقراطيا قد انضم إليهم وأن حركتهم كانت في الشرق ولا ينبغي لنا أن ننظر إليها بمنظار غربي فهم إذا ليسوا ديموقراطيين حين سمحوا لأروستقراطي أن يكون من بينهم • ولحركتهم أن تثبت في الشرق • ويأتى بعد ذلك الدكتور هويدى فيرد أولا رأى جوتيه بأن الأروستقراطي قد يكون تخطى عن أروستقراطيته وأعتق المبادئ الديموقراطية ولكنه يعود فينكر على الخوارج أن يكونوا ديموقراطيين لسبب آخر هو تمسكهم بعروبتهم ، ويستدل على تمسكهم بعروبتهم أن أحد الموالى خطب امرأة منهم فقلوا لها فضحتنا •

هكذا ترى أيها القارئ الكريم أن بحثنا فلسفيا عميقا يتناول قضية هامة هي قضية الديموقراطية في حركة تاريخية هامة تمتد ما بين الصين والمحيط الأطلسي يناقشها ثلاثة فلاسفة : مستشرقان وعربي — نفييا وإثباتا — بناء على رأيهم في فرد واحد أو بناء على قصة وردت في كتاب أدب — يعلم الله مقدار صحتها ولو صحت لما كان لها أي أثر في الموضوع •

إن المستشرق جوتيه يستكثر أن تقوم في الشرق حركة ديموقراطية ولذلك ينبرى للمرد على المستشرق دوزى حين زعم أن حركة الخوارج إنما انصرت لأنها تتطوى على حركة ديمقراطية في الدين — ويرى أن دوزى أخطأ التقدير لأنه نظر الى تلك الحركة القائمة في الشرق بمنظار أوروبى مبالغ فيه ، يعنى أنه لو قامت تلك الحركة في أوروبا لأمكن أن تعتبر حركة ديمقراطية أما وهى في الشرق فليس ذلك ممكنا لأن الديمقراطية أكبر من تفكير الشرق في رأى جوتيه ولكى يبرهن على أن تلك الحركة ليست ديمقراطية فتش بين زعماء الخوارج فوجد أن الحركة الخارجية أسلمت قيادها في طرف من أطراف الأرض الى رجل أورستقراطى يرجح أنه كان أميرا فكان هذا سببا كافيا لكى نحكم بأن حركة الخوارج ليست ديمقراطية .

فالحركة التى تكونت في الجزيرة العربية وامتدت شرقا الى الصين وغربا الى المحيط وعاشت عددا من الأجيال أو عددا من القرون كلها تنهدم في رأى هذا المستشرق بحادثة بسيطة ، وهى أن قبائل زنانة — وهى قاعدة شعبية — أسلمت قيادها الى أبى قررة الذى يظن أنه أورستقراطى . وبوصول هذا الرجل الى مركز القيادة في طرف من أطراف الأرض على مجموعة ضئيلة من الناس — فسدت الديمقراطية في حركة الخوارج على اتساع مداها . مع أن حالة هذا الرجل الذى وصف بأنه أورستقراطى لم يعرف ما إذا كان حقا أميرا ، ولم يعرف ما إذا كان حقا أورستقراطيا ، ولم يعرف ما إذا كان — حين تولى قيادة الخوارج في طرف من الدنيا — باقيا على أوروستقراطيته أم أنه التزم بالمبادئ الجديدة التى اعتنقها والتي اختير للإمارة من أجلها . ثم إنه لم يكن أميرا على الخوارج كلهم . ولا على فرقة كاملة منهم في جميع أوطانها ، وإنما كان عبارة عن رجل تولى قيادة مجموعة من الناس ثائرة على الدولة في معارك حربية محدودة

حالفه النجاح في بعضها والفشل في الأخرى بعد هذا يأتي الدكتور هويدى مستعملا نفس المنطق والأسلوب سائرا في نفس المنهج كأنما يترسم خطى مرسومة فيرد على المستشرق جوتيه باحتمال أن يكون أبو قره قد تنازل عن أوروستقراطية والتزم بمبادئ الديمقراطية ولم يهتم الدكتور بهذا البناء الضخم الذي يقوم أو ينهار بسبب رجل واحد ، ولم يهتم أيضاً بتلك الطعنة المسمومة التي ترغم أن مثل هذه الحركة يحتمل أن تقوم عليها ديمقراطية لو أنها كانت في أوروبا أما وهى في الشرق فلا ، ويعد أن ينتقد الدكتور رأى جوتيه ويرد عليه كما رأيت ويصف حركة الخوارج بأنها تنطوى على الديمقراطية يعود فينفى أن يكون الخوارج أصحاب ديمقراطية بسبب آخر غير سبب جوتيه وذلك أنه عثر أثناء مطالعته على قصة في شرح نهج البلاغة ترغم أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية فقتل لها أهلها لقد فضحتنا ...

ودون أى شرح لهذه القصة • ودون أى تأكيد لصحتها أو كذبها ، ودون أى تعليق على أحداثها يجعلها دليلا على أن الخوارج متمسكون بعروبتهم والعروبة قومية والقومية ضد الديمقراطية وهكذا تكون هذه القصة عن الفتاة وخاطبها سببا في إبعاد الديمقراطية عن حركة الخوارج •

أنا لم أشرف بدراسة الفلسفة ولكنى كنت أعتقد أن الآراء الفلسفية لا يمكن أن تبنى إلا على حقائق ثابتة أو على الأهل مؤكدة ، فأى شأن لهذه القصة التى رويت فى كتاب قيل إن أصله موضوع حتى يجعل منها الدكتور هويدى برهانا على حكم فلسفى •

الخوارج فى ذلك الحين كانوا منتشرين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وهم يتكونون من جميع الجنسيات المختلفة التى يتكون منها

المسلمون في مختلف أوطانهم ولهم عدد غير قليل من القيادات منها قيادات تصله ومنها قيادات منفصلة • ولهم عدد غير قليل في العادات والممارسات ولم نعرف هذا المولى الذى تجاسر فخطب فتاة خارجية هل هو عربى الجنسية أم له جنسية أخرى ، ولم نعرف أيضاً لماذا غضب أهلها الآن الفتى مولى ؟ أم لأنه غير عربى ؟

فكيف أمكن أن نسلب عن جميع الخوارج نتائج حركة شاملة بسبب كلمة صدرت عن أفراد أسرة إذا صحت الحكاية ؟ أليس من الأسر أن نخرج تلك المرأة وأسرتها من نظام الديمقراطية أو من طابور الخوارج بدلا من أن نلقى حكماً أعطيناه لحركة شملت العالم الإسلامى كله بسبب كلمة صدرت عن فرد أو أفراد ليسوا هذه المرة حتى في مراكز قيادية ؟

لست في هذه المناقشة أحاول أن أثبت أن حركة الخوارج كانت حركة ديمقراطية أو لم تكن فهذا موضوع لا يهمنى وليس هذا مكانة • وإنما أردت أن أضع بين يدي القارىء الكريم أمثلة من مناقشات المستشرقين ومن يسير في ركابهم لبعض القضايا الإسلامية •

فهذا هو منطق المستشرقين في معالجة القضايا الإسلامية ، وهذا هو منطق من يسرون في ركابهم ويتأثرون بخطاهم •

البحث عن التوافه والجزئيات والشواذ ثم تضخيمها وإبرازها وتسليط الأضواء عليها حتى تأخذ المكان الأوضح في المناقشات عامة ، وحتى يقضى بها على الحقائق الثابتة الأصيلة • حين تبني أحكام عامة على شواذ الوقائع كأنها هي أصول الحركة أو أصول الحياة •

وقد رأيت في تطبيق نظرية الديمقراطية الدينية حركة الخوارج كيف نوقشت بطريقة تكاد تكون هزلية فأثبتها مستشرق لأنها تشبه حركة أخرى قامت في أوروبا ونفاها مستشرق آخر لأنه لا يجوز أن ينظر الى الشرق بالمنظار الذي ينظر به الى أوروبا ولأن رجلا - يشك أنه كان أميراً - وصل الى مركز القيادة ، وينفيها متفلسف عربى لأن أهل فتاة عربية ساءهم أن ينتقدم الى خطبتها أحد الموالى •

ومن المؤسف أن الدكتور هودى قد تأثر بالمستشرقين الى حد أنه اصطنع أسلوبهم في الحديث والعرض ، وفي توضيح التوافه والشواذ ، وفي إغفال الحقائق الواضحة البارزة ومحاولة إخفائها وإذابتها ، وقد تأثر بهم حتى اللهجة التى يستعملونها ، فهم - بطبيعة الحال - غرباء عن الإسلام والمسلمين ، ولذلك فعندما يكتبون عنه أو عنهم ، تلمح أساليبيهم ، روح الغربية ، ثم روح التعالى ، ثم روح المقاضاة والحكم •

وعندما تقرأ للدكتور هويدى تحس بنفس الشعور وبنفس الخطوات كأنك تقرأ لأحد المستشرقين • إنك تستشعر الغربة فعلا فتحس بأن من كتب ذلك هو غريب عن الموضوع وليت أنك تحس بهذا الإحساس وأنت تقرأ له عن الفرق التى سخط عليها فقط لكن الواقع المؤلم أنك تجد هذا في جميع أجزاء الكتاب حتى وهو يكتب عن « الإسلام السنى » الذى يريد أن يظهر بمظهر المتمسك به المدافع عنه •

ومن المؤلم أن يقع الدكتور في هذه الحباله - حباله تقسيم الإسلام الى إسلام سنى ، وإسلام شيعى ، وإسلام خارجى - وربما توسع متوسعون فيما بعد فقالوا إسلام حنفى وإسلام مالكى ، وإسلام ظاهرى

وغير ذلك من الأسماء أو الأنواع ما دام كل نوع منها يصلح لأن يكون وسيلة سهلة للحصول على شهادة دكتوراه أو ما يوصل إليها .

ونحن نعرف — بوضوح — أهداف المستشرقين الذين ابتكروا هذه التسميات وهذه التقسيمات ولا يزالون يبتكرون حرصاً منهم على إظهار الإسلام بأنه فكرة بشرية متأثرة ، وأن المذاهب الإسلامية لا تخرج عن كونها إما محافظة على تلك الفكرة بجمود ، وإما بتعديلات حسب منازع زعماء تلك الفرق .

لقد وقع الدكتور في هذه الحباله فاستساغ التسميات والتقسيمات فتشبت بها في حرص وجعل يرددها في اعتزاز . حتى أنه في فصل واحد من كتابه ردد أكثر من عشر مرات بنفس الصيغة التي يستعملها المستشرقون الغربيون وبنفس الأسلوب الذي يوحى بنظرة التعالي والمقاضاة والحكم . والى القارئ الكريم نماذج من ذلك :

يقول الدكتور هويدى في كتابه لتاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية صفحات (١٤١ — ١٥٢) ما يلي :

١ — « يقال الإسلام السنى في مقابل الإسلام الشيعى ، لأن الشيعة هي الفرقة الإسلامية التي تقابل بالقضاء أهل السنة والجماعة » .

٢ — « سنتناول تاريخ الإسلامى السنى وسنقصد به كل التطور الذى شهده الفكر الفلسفى الإسلامى » .

٣ — « يحسن أن نبدأ بأن نقدم للقارئ مراحل انتشار الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » .

٤ — « نستطيع أن نتخذ من تاريخ خروج عقبة بن نافع الى المغرب

عام ٤٦ وتأسيسه مدينة القيروان نقطة بدء تاريخ الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » •

٥ — « وقدم هؤلاء الفقهاء الى المغرب وانتشارهم فى ربوعه يفتقون الناس • فى أمور دينهم يعد مرحلة هامة فى مراحل انتشار الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » •

٦ — « وبهذا نستطيع أن نعد ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى مرحلة هامة من مراحل انتشار الإسلام السنى فى شمال إفريقيا » •

٧ « ويعد حكم الأغالبة مرحلة هامة فى مراحل استقرار الإسلام السنى فى شمال إفريقيا » •

٨ — « يعد قيام دولة الأغالبة مرحلة هامة فى مراحل استقرار الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » •

٩ — « أما تطور علم الكلام والنزاع الذى شهده التفكير الإسلامى بعد هذا بين الفرق والمدارس المختلفة ، مع ما امتزج بهذا كله من فلسفة وجدل متأثر فى هذا بعلوم الأوائل (علوم اليونان والتيارات الفلسفية اليونانية) فهو وإن كان قد بعد قليلاً أو كثيراً عما يمكن أن نسميه بالفلسفة القرآنية إلا أن من الممكن أن نعد مع هذا تطوراً للرأى • وامتداداً للإسلام السنى ، وتنشيطاً له ، ومظهراً من مظاهر صحة هذا الإسلام السنى » •

ألا ترى معى أيها القارىء الكريم أنك لا تستطيع أن تفهم من الفقرة الأخيرة مما نقلناه هنا ، إلا أن علم الكلام والنزاع بين الفرق

والمدارس المختلفة ممتزجا بعلوم اليونان وفلسفتهم قد بعد عن فلسفة القرآن ، وهو مع ذلك مظهر من مظاهر صحة الإسلام السنى . قد أكون آسأت تلخيص الفقرة السابقة ، ولكنها على أى حال لا تعطى إلا هذا المعنى أو قريبا منه .

أما الفقرة الرابعة مما نقلناه لك فتقرر الإسلام السنى بدأ فى سنة ٤٦ بعد خروج عقبة . فماذا جاء الفاتحون السابقون قبل عقبة ، وفيما ذهبت الدماء ؟ وماذا كانت تصنع الجيوش فى هذه البلاد ؟ وما هو الإسلام الذى جاء به عمرو بن العاص ومن بعده حتى مجيء عقبة ؟ إنك عندما تقرأ الفقرات السابقة بعباراتها الكاملة فى مواضعها من الكتاب تحس أن الذى يكتب ذلك الكلام هو شخص غريب عن الإسلام يتعالى عنه ، ويناقشه كما يناقش أية فكرة بشرية ، ولقد بقى يلعب بما يسميه (الإسلام السنى) فى عشر صفحات من كتابه دون أن تبدو له شخصية إسلامية مرتبطة بالموضوع . ورغم أنه أظهر تعصبا واضحا للمذهب المالكى حتى يكاد يكون الكتاب كله محاولة للدعوة إليه عن طريق الفلسفة ولكنك تحس بنوع من الجفوة الخفية بين الرجل والإسلام وبنوع من الانفصام حتى بينه وبين هذا المذهب الذى يمجده ويكاد يدعو إليه علنا ومظاهر التقرب الى الإسلام عموما والى المذهب المالكى خصوصا لم تفلح فى إخفاء تلك الجفوة أو ذلك البعد وبدت معهما فى صورة متكلفة مصطنعة لكن القلم يكتب عن غير عقيدة صاحبه وفى استطاعتك أن تتأمل العبارة الأخيرة فى الفقرة الأخيرة مما نقلناه لك سابقا (ومظهرا من مظاهر هذا الإسلام السنى) وهى عبارة جافية غليظة كأنما فى الإسلام هذا وذلك .

إن أى مستشرق معاد للإسلام لا يأمل فى أكثر من أن ينجح فى أن

يدخل الى أذهان المسلمين أمثال هذه المفاهيم ، أو أمثال هذه الأساليب !
 وأنه لكسب لأعداء الإسلام أن يتحدث المسلم عن الإسلام بشيء من
 الجفوة والتعالى مساوياً له بآراء البشر . وأن يعتبر المذاهب الإسلامية
 قد ابتعدت من القرآن الكريم ، وتأثرت وتطورت بما عرفته من علوم
 (الأوائل) ويعنى ذلك أن القرآن غير صالح وأن الديانة الإسلامية
 بمذاهبها المختلفة قد تخلت عنه منذ زمان وأخذت بغيره من علوم
 (الأوائل اليونان والرومان) وإذا كانت هذه هي الصورة التي يعطيها
 الدكتور عن المذاهب التي يؤيدها بل ويتعصب لها فما يرجى منه أن يقول
 عن المذاهب التي يحاول هدمها :

إن المستشرقين كانوا يفعلون ذلك عن سوء نية أما الدكتور فقد
 يكون فعل ما فعل عن حسن نية وسلامة طوية .

لست أدري كيف وجد الدكتور هويدى القدرة في نفسه على أن
 يقسم الإسلام الى أقسام يهاجم بعضها وينصر البعض الآخر .

الإسلام دين متكامل شامل لا ينقسم تبعاً للاهواء والآراء والمفاهيم .
 ولا تبعاً للأشخاص والفرق والمذاهب . ولكن آراء الناس وأعمالهم هي
 التي تنقسم بالنظر الى مطابقتها للإسلام ، واستنادها عليه واستمدادها
 منه . وما أحسب أن انساناً يتقى الله تواتيه القدرة على أن يقوم إسلام
 سنى وإسلام شيعى ، أو إسلام سنى وإسلام بدعى ، أو إسلام شافعى
 وإسلام مالكى . ولا حتى إسلام محمدى نسبة الى سيدنا محمد ﷺ
 وهو الذى جاء به عن الله تبارك وتعالى وإذا صحت هذه العبارة الأخيرة
 — مع ثقلها وغربتها — فإن غيرها لا يصح بكل تأكيد .

ولكن ما الحيلة وأخونا هويدى دكتور فى الفلسفة من باريس ،
فلا بد أن ينظر الى الإسلام بالمنظار الذى ينظر به إليه فلاسفة
المستشرقين •

وبعد هذا كله فإن كتاب الدكتور هويدى صورة مشوهة أخذت فى
كتاب « الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى ، للمستشرق الفردىبل » •
ولو أتيج لذلك الكتاب أن يسترجع ما أخذ منه لما بقى للدكتور هويدى
إلا أوراق بيض ، ويتخللها قليل من السواد بين غلافين أخضرين يحملان
عنوان الكتاب ••• لقباً علمياً ضخماً لمؤلف •••

عز الدين التنوخي

الأستاذ عز الدين التنوخي * عضو المجمع العربي بدمشق : معروف
بجهوده الصادقة في خدمة الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، وقد اهتم —
— فيما اهتم به — بتراث الإباضية في المجالين الشرعي والأدبي ، وقد
تحدث عنهم بشيء من الإسهاب — والتفصيل ، ويسرني أن أضع بين يدي
القارئ الكريم مقتطفات مما كتب عنهم *

قال في مقدمته عن ديوان أبي بكر بن أحمد بن سعيد السطالي الذي
قام بطبعه الأديبان سليمان وأحمد ابنا شيخنا الفاضل محمد عبد الله
السالمى * بالمطبعة العمومية بدمشق سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م الصفحة
١٠٠ ما يلي :

« ويكفي في الدلالة على مبلغ جهالتنا بعمان وأهلها ، إن السواد
الأعظم من العرب والمسلمين يظنونهم من غلاة الخوارج ، كالأزارقة
والنجديات والصفرية * حتى أن ابن خلدون نفسه يقول ما نصه :
« والخوارج بها كثيرة ، وكانت لهم حروب مع بنى بويه » * مع أن إطلاق
لفظة الخوارج على الإباضية من الدعايات الفاجرة التي نشأت عن التعصب
السياسي أولا ، ثم عن التعصب المذهبي ثانيا ، لما ظهر غلاة المذاهب *
فقد خلطوا بين الإباضية والأزارقة والصفرية والنجدية فالإباضية لم
يجمعهم جامع بالصفرية والأزارقة ومن هنا نحوهم إلا انكار الحكومة
بين على ومعاوية *

وأما استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد (والحكم بكفرهم
كفر شرك) فقد انفرد به الأزارقة والنجدية والصفرية ، وبه استباحوا

حمى المسلمين ، ولما كان مخالفوهم لا يتورعون ولا يكفون أنفسهم
مؤنة البحث عن الحق ليقفوا عنده حيث خلطوا بين الإباضية الذين
لا يستبيحون قطرة دم موحد بالتوحيد الذى معه ، وبين الذين استحلوا
الدماء بالمعصية حتى قتلوا الأطفال تبعاً لآبائهم مع أن الفرق كبير جداً بين
المستحل والمحرم فما بعد الحق إلا الضلال . ومن جهل علمائنا بعمان
وأهلها وعلومهم وآدابهم أنهم لم يطلعوا على كتبهم الدينية ، ولا على
الفرقة الإباضية المبني على الكتاب والسنة ، ولا على مسند الإمام
الربيع بن حبيب ، وسنده ثلاثى عن أبى عبيدة التميمي ، عن جابر بن
زيد عن الصحابة وقد أخذ جابر وأبو عبيدة عن الصحابة ، وجابر بن
زيد من رجال البخارى ومسلم أخذ عن سبعين من الصحابة البدرين ،
وكان من تلامذة حبر الأمة عبد الله بن عباس . وقد طبع هذا المسند
القديم مع شرحه للإمام عبد الله السالمى فى أربعة مجلدات ، طبع
اثنان منها فى مصر والثالث بدمشق . « وبعد حديث عن أسرة السالمى
المجيدة ، وخدمتها للعلم والأدب ، وقيامها على نشر الثروة الثقافية فى
عمان قال الأستاذ التنوخى فى نفس الصفحة : « فمن الجهل بعمان
وأهلها أنه ليس فى كتب تراجمنا كيتيمة الدهر للثعالبي ذكر لشعراء
عمان وبعد أن ذكر الثعالبي شعراء أكثر الأقطار العربية وغيرها ، ذلك
أنهم بجهالة المؤرخين بعمان وأهلها ، أو لتعصبهم السياسى والمذهبي ،
أهملوا الكلام على مذهبهم وثقافتهم . وانتباه العرب فى أيامنا هذه
لعروبيتهم ولتاريخهم السياسى والعلمى ولسعيهم لجمع شملهم وإعلان
وحدتهم القومية ، كل ذلك مما يوجب البحث عن هذا للشعب العربى
الصريح بنسبه ، والمجيد بحسبه ، ومضرب المثل بفصاحته وشجاعته
العربية ، وجهاده وكفاحه للمستعمرين » . وجاء فى مقدمته على ديوان
النبهاني . صفحة ٢٦ ما يلى :

« وقد نشرت فى دمشق أخيراً بعض هذه الكتب ، كالجـزء الثالث

من شرح مسند الربيع بن حبيب ، وهو أقدم كتب الحديث وأصحها ،
 وشارحه العلامة نور الدين السالمى ، وقد خرجت أحاديث المسند وشرحته
 وجلبها فى الصحيحين وسائر الكتب الستة من كتب السنة . مما يدل على
 أن مذهب إباضية عمان والمغرب من أقرب المذاهب إلى السنة كما ذكر
 ذلك الإمام المبرد فى كامله ، وابن حزم وغيره من المحققين » .

وقال فى مقدمته لكتاب « خلاصة الوسائل فى ترتيب المسائل »
 ما يلى :

« لقد حذا أئمة عمان حذو ملوك الإسلام من العرب والعجم
 فى استفتاء علماء بلادهم فى النوازل الطارئة ، والمشاكل المتعلقة بالدين ،
 فكانوا يجيبون عن الأسئلة التى يسألهم عنها عمالهم من الحكام ، بخط
 أيديهم ، مما يدل على صدق إيمانهم وإخلاصهم فى الأحكام ، واعتمادهم
 على الكتاب والسنة . وكانوا يحثون عمالهم على مراقبة الله فيما
 يصدرونه من أحكام ، مراعين فى ذلك مصالح الرعية ، فإن دين الله يدور
 مع المصلحة ، ومعتصمين بالكتاب والسنة . وآثار الصحابة والسلف
 الصالح وأقوال الأئمة المجتهدين كذلك كان المتداعون من الرعية .
 المختلفون بعمان . يستفتون الأئمة والفقهاء والمتبحرين فى نوازلهم ،
 ويثبتون بفتاواهم ما يدعون ، فكان يجتمع لدى الفقيه أو المفتى
 أو القاضى مع مرور الزمن كثير من الأجوبة على أسئلة الناس . فتارة
 كانوا يجمعون تلك الفتاوى المهمة والأقضية فى كتاب خاص . وتارة
 كان يجمعها بعض أولاد المفتين أو تلاميذهم كما فعل الأمير الفاضل
 البار السيد صالح بن عيسى بن صالح الحارثى جزاء الله خيرا فى نشر
 فتاوى جده الإمام المحتسب الشهيد صالح بن على الحارثى المجموعة
 فى كتاب (عين المصالح فى أجوبة الشيخ الصالح) » .

وبعد هذا تحدث عن عدد ممن سلك هذا المسلك من ملوك المغرب وغيرهم ممن جمع فتاوى المفتين (من مختلف المذاهب) وسلكها في كتاب اعتبر مرجعا في تلك النوازل والقضايا ، ثم قال :

« هذا والمطلع على الفتاوى العمانية يجده مصنفها يعتمد باديء الأمر على كتاب الله ثم على السنة ، وينظر في أشباه وقائمه التي أفتى فيها المجتهدون من السلف الصالح ، وإذا ما وجد فتوى لأحد أئمة السنة كالإمام أبي حنيفة والشافعي وأحمد ومالك والأوزاعي تشببه فتواه استشهد بها تأييدا لفتواه ، واستثناسا بأقوال المجتهدين من قبله . ولولا خشية الإسهاب الممل لأتيت بأمثلة من ذلك .

ومن علم أن علماء الإباضية يرجعون في الحديث إلى مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي التي يروي أحاديثها أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن الصحابة وأكثر أحاديثه في الصحيحين وأمّهات كتب الحديث — وقد كان الإمام جابر يعد من أكبر تلاميذ جبر الأمة عبد الله بن عباس — وأخذ عن أجلة الصحابة ، ومنهم سبعون بدرية . وقد سأل أحد البصريين عبد الله بن عباس عن شيء فقال له : تسألونني وفيكم جابر بن زيد . وفي حديث سفیان عن ابن دينار عن عطاء أن ابن عباس قال : لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما عن كتاب الله عز وجل .

وجاء في كتاب الجرح والتعديل لابن حاتم البرازي عن ابن خيثمة قال : سمعت يحيى بن معين يقول : أبو الشعثاء جابر ابن زيد . روى عن قتادة أنه بصرى ثقة ، وقد أجمعوا على إمامة

يحيى بن معين وتوثيقه وحفظه وهو الذى يقول عنه أحمد بن حنبل :
السماع فى يحيى بن معين شفاء لسيا فى الصدور ، خلقه الله ليظهر
كذب الكذابين • وكل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث • « وقد
أخذ عنه أحمد والبضارى ومسلم وأبو داود وخلائق لا يحصون ،
والذى يظهر كذب الكذابين يظهر صدق الصادقين ، كأبى الشعثاء جابر
ابن زيد إمام الإباضية •

ومما قلته فى مقدمة الجزء الثالث فى شرح الجامع الصحيح مسند
الربيع بن حبيب الفراهيدى • ومن أعلم أهل السنة بالإباضية ،
وأعظم من كتب (فى علماء للسنة) الإمام المبرد فى كتاب الكامل فقد
قال ما نصه : (قول ابن إباض أقرب الأقاويل إلى السنة) وقال
الإمام ابن حزم : (أسوأ الخوارج الغلاة ، وأقربهم إلى قول الحق
الإباضية) ويقول النور السالمى شارح المسند فى مقدمة تحفة الأعيان
وهو من علماء عمان الأئمة : « ليس من رأينا بحمد الله الغلو فى
ديننا ، ولا الغشيم فى أمرنا ، ولا التعمدى على من فارقنا ••• الله
ربنا ، ومحمد نبينا والقرآن إمامنا ، والسنة طريقنا • وببيت الله
الصرام قبلتنا ، والإسلام ديننا » •

لاجرم أن كل من يقول هذا القول • ويعترف هذا الاعتراف ، فهو
من المسلمين الناجين ، وكل من يتهم الإباضى بالزيغ والضلال •
فهو ممن فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ومن الظالمين الجهال ، جمع الله
ما فرقوا ، ورتق ما فشقوا ، ومزق شمل أعوان المستميرين ، واللسه محيط
الكافرين •

وقال الأستاذ التتوخى فى مقدمته على شرح الجامع للصحيح مسند
الإمام الربيع بن حبيب ما يلى :

« ومن يهن المطالع عن الحديث أن يكون الربيعان : الربيع بن صبيح والربيع بن حبيب في طليعة ركب الجامعين للحديث والمصنفين فيه .
ومن الأسف ألا ندرى شيئاً عن مصير مسند ابن صبيح ، وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات ، من لطف الباريء أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب ، ثم من نعمه على أن وفقني لإعادة نشره مع شرح علاقة عمان عبد الله بن حميد السالمي ، ولما يطلع على المسند وشرحه في علماء مصر والشام والعراق إلا قليل .

الثلاثيات : وقد ذكر أئمة الحديث أن رتب الصحيح تتفاوتت تفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح ، وأن المرتبة العليا ما أطلق عليه بعض رجال الحديث أنه أصح الأسانيد الثلاثية . كسند الزهري عن سالم بن عبد الله ابن عمر عن أبيه ، وسند إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود ، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر ، وهو قول البخاري لأن هذه الأسانيد قصيرة السند ، وقريبة الاتصال بالينبوع ، المحمدي ، واشتهر رجالها بقوة الحفظ والضبط وكمال الصدق والصيانة والأمانة ، وذهب الإمام أبو منصور التميمي إلى أن أجل الرواة عن الإمام مالك بن أنس هو الشافعي فأجل الرواة على ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعي عن مالك ويسمى هذا المسند سلسلة الذهب .

ويشبه هذه السلاسل الذهبية سلسلة مسند الربيع بن حبيب وثلاثياته : أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس . ورجال هذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأفضلهم . وأصدقهم لم يشب أحاديثها شائبة إنكار ولا إرسال ولا إنقطاع وإعضال ، لأن الثلاثيات بأجمعها موصولة باتصال إسنادها ، ولم يسقط في أسانيد الثلاثية أحد .
و (المعضل) هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي كقول

مالك : قال رسول الله ﷺ وقول الثسافعى قال ابن عمر ، وقد يورد على قولنا هذا أن فى مسند الربيع البلاغ والسمع مما يجعل الحديث مرسلا ، ويجاب على هذا القول أن رجال هذا المسند إذا نقلوا عن غير مشاهمة بينو ذلك بقولهم بلغنى أو بلغنا ، أو سمعت عن فلان أو نحو ذلك مما يبعد بالمسند عن التدليس ، فهم رحمهم الله اجل واتقى من أن يوهموا الناس السماع وليسوا بسامعين ، وبذلك يظهر أن عننة هذا المسند مقطوع باتصالها ، لأن أبا عبيدة أخذ عن جابر ، وجابر أخذ عن الصحابة مباشرة ، حتى قيل إن أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر من الصحابة .

ومن مزايا هذه الثلاثيات أو السلاسل الذهبية • سهولة حفظها ، وحافظ المسند الثلاثى الرجال ، إذ روى حديثاً من أحاديثه صدره بسنده الثلاثى الذى لا يختلف فى جميع أبوابه ، وحفظ الأحاديث الثلاثية أيسر على المستظهر من حفظ سلاسل طويلة كثيرة الحلقات والرجال ، ولأنه سهل على حافظ الثلاثيات معرفة رجالها لقلتهم • والتثبت من أوصافهم بالحفظ والصدق والأمانة ، أكثر مما يعرفه عن رجال سلسلة عديدة الحلقات قد يوجد بينهم من لا يطمئن القلب بصدقه وديانته ، مما يضعف الحديث ويجعله غير مقبول •

ولزايا هذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات نذكر منها :

ثلاثيات الإمام أحمد بن حنبل المطبوعة أخيراً بدمشق سنة ١٣٨٠ وشرحها فى جزأين الإمام محمد السفارينى ، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث •

وثلاثيات البخارى وهى فى صحيحه إثنان وعشرون حديثاً غالبها عن

مسكى بن إبراهيم عن حدثه من التابعين وهم من الطبقة الأولى من شيوخه ، مثل محمد بن عبد الله الأنصارى وأبى عاصم النبيل ، وأبى نعيم ، وخلاد ابن يحيى على بن عباس •

وثلاثيات الدارمى وهى خمسة عشر حديثاً وقعت فى مسنده بسنده وثلاثيات الشيخ أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن محمود بن ناجى وغيرهم • ونضيف اليوم إليها :

ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدي وأحاديثها فى مسنده من أصحابها رواية وأعلها سندا • ورجال سلسلتها الثلاثية هم :

أبو عبيدة التميمى ، وجابر بن زيد الأزدي ، والبحر عبد الله بن عباس شيخ جابر ، وغيره من الصحابة وهم بأجمعهم مشهورون بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة ، وهذا السند لا يختلف فى جميع أبواب المسند كما يختلف فى سائر كتب الثلاثيات •

هذا حكم المتصل من أخبار هذا المسند ، و (المنقطع) بإرسال أو بلاغ فى حكم الصحيح لثبوت وصله من طرق أخرى • وأما (المرسل) فقد جاء فى التدريب (٦٧) عن ابن جرير قال « أجمع التابعون بأسرهم على قبول المرسل ولم يأت عنهم إنكارهم ولا عن أحد من الأئمة بعدهم إلى رأس المائتين • قال ابن عبد البر : كأنه يعنى أن الشافعى أول من رده •

وقال السخاوى فى فتح المغيث : قال أبو داود فى رسالته : أما المراسيل فقد كان أكثر العلماء يحتجون بما فيها فيما مضى • مثل سفيان

الثورى • ومالك والأوزاعى ، حتى جاء الشافعى فتكلم فى ذلك وتابعه أحمد وغيره » وقل من المشتغلين بالحديث فى ديارنا الشامية • وفى مصر والعراق وغيرها ، من له معرفة برجال هذا المسند الثلاثة • وكذلك يحسن بنا أن نعرفهم ولو بإيجاز ، فأول رجال السنن هو :

أبو عبيده مسلم بن أبى كريمة التميمى الذى توفى فى ولاية أبى جعفر المنصور (المتوفى ١٥٨) وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد ، فروايتيه عن جابر ، روايه تابعى عن تابعى • وقد روى أبو عبيدة أيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأبى هريرة ، وابن عباس ، وأبى سعيد الخدرى ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها • وروايتيه هذه عنهم موجود بعضها فى هذا المسند الصحيح • وهى رواية تابعى عن صحابى •

تسويخه : أخذ أبو عبيدة العلم عن لقيه من الصحابة وعن الجابريين : جابر بن عبد الله وجابر بن زيد ، وعن ضمارة السميدي وجعفر السماك وغيرهم •

تلاميذه : وحمل العلم عن أبى عبيدة خلق كثير منهم الربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب هذا المسند ، وفيهم (حملة العلم إلى المغرب) وهم : أبو الخطاب المعافرى ، وعبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتى وإسماعيل ابن درار الغدامسى ، وأبو داود القبلى النفاوى ، وكان الإمام أبو الخطاب المعافرى قد جاء من اليمن فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم إلى بلادهم فنصبوه عليهم بأمر شيخهم أبى عبيدة • وبأمره نصب الإمام عبد الله ابن يحيى الكندى فى أرض اليمن ، وجمعت أمارته اليمن والحجاز • وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله اسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام • فقال

له أبو عبيدة : أتريد أن تكون قاضيا مع ابن درار ، قال : رأيت أن
ابتليت بذلك » •

وأما جابر بن زيد الجوفي الأزدي أبو الشعثاء (٩٣ هـ) أصل المذهب
في عمان والمغرب ، وصاحب عبد الله بن عباس ، فقد كان أشهر من
صحابه وقرأ عليه ، وذكر أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب)
أن ابن عباس قال : أسألو جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب
لوسعهم علمه • وقال إياس ابن معاوية : رأيت البصرة وما فيها مفت
غير جابر بن زيد • وقال الحصين : لما مات جابر بن زيد وبلغ موته
أنس ابن مالك قال : مات أعلم من على ظهر الأرض • ولما مات جابر
ودفن قال قتادة : ادنوني من قبره ، فأدنوه فقال : اليوم مات عالم العرب ،
وعن ابن عباس قال عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم
جابر بن زيد لو قصدوه لوسعهم علمه • شيوخه وتلاميذه والذين حمل
عنهم العلم ، أو حملوه عنه : أولهم وأخصهم به عبد الله بن عباس • فقد
أكثر من الحمل عنه وعبد الله بن عمر •

وممن أخذ عنه : قتادة ، وعمرو بن دينار وأيوب وخلق •

وإذا تأمل الإنسان روايات هذا المسند وجده يروى عن كثير من
الصحابة وإذا كان عدد من لقيهم من أهل بدر بلغ سبعين رجلا فما ظنك
بمن لقيهم جابر بن زيد من سائر الصحابة ، وأشهر أصحابه الراويين عنه :
أبو عبيدة ، ومنهم ضمام بن السائب ، وأبو نوح وحيان الأعرج ، وكلهم
من الفقهاء المجتهدين ، وناهيك قوله : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر
فحويت ما بين أظهرهم إلا البحر •• (ابن عباس • شرح المسند • أما
شارح هذا المسند فمن الحق أن نلم من ترجمته بما يصور حقيقته

ويبين منزلته بين العلماء المحققين • فهو الشيخ نور الدين أبو محمد بن حميد بن سلام بن عبيد بن خلفان ابن خميس السالمى الضبى (١٢٨٦ — ١٣٣٢) انتهت إليه رئاسة العلم بعمان وظهر ذلك في تأليفه الجمّة في مختلف الفنون الشرعية والعربية مع التحقيق في مسائلها والإجادة من تأليف كتبها ورسائلها •

صفاته : كان رحمه الله ضريرا قوى الذاكرة والذكاء ، شديد اليقظة على تطورات قومه بعمان ، فقد عمل كثيرا على إعادة الإمامة إلى القطر العماني الذي قلما عرف الملكية قديما إلا في ظروف شاذة ، كما وقع على عهد بن نبهان في عصر ابن بطوطة •

ولم يكن يكتفم ميوله وآراءه في الإمامة عن السلطان فيصل بن تركى سلطان عمان ، ولكنه لم يجد منه انقيادا إلى إعلان الإمامة بدسائس الإنجليز الذين يتحينون الفرص للانقضاض على أقطار الخليج العربى ، ومطامعهم في جزيرة العرب ، ونفطها ومعادنها لا تحتاج الى تعريف •

وما زال هذا العالم العامل يعمل على بث الدعاية للإمامة لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يخشى في إعلان الإمامة سطوة غاشم ، حتى بدت للعلماء المساعى البريطانية ، لحمل سلطان مسقط على الاعتراف بالحماية البريطانية • فأسلس العلماء القياد للنور السالمى ، شارح هذا المسند ، وأعلنوا الإمامة بمبايعة الإمام التقى العلامة (سالم بن راشد الخروصى) وبذلك نهض المترجم له ببلاده وأقصى عنها خطر الاستعمار ، وما في عمان اليوم من علماء إلا وهم تلاميذه ، ولا فيهم من روح قوميته مقاومة للمستعمرين إلا منه ، فهو مضم نارها وملهب أوراها ، وأن الإنسان ليعجب كيف استطاع أن يؤلف تلك المكتبة في عمره القصير وهو لم يبلغ الخمسين •

فهو في قصر عمره وكثرة كتبه نظير شيخنا الجبال القاسمي بدمشق
رحمهما الله •

ومن تلك الكتب :

- ١ — تحفة الأعيان في تاريخ عمان جزءان طبع أولهما في مصر •
- ٢ — الحجيج المقنعة في أحكام صلاة الجمعة ، طبع بهامش شرح
شرح طلعة الشمس في أصول الفقة •
- ٣ — شرح المسند الصحيح للإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي من
أئمة القرن الثاني في أربعة أجزاء طبع الأول منها بمطبعة الأزهار البارونية
والثالث بالمطبعة العمومية بدمشق في هذه السنة •
- ٤ — سواطع البرهان : رسالة في تطورات العصر في اللباس جواب
لسؤال بعض أهل زنجبار •
- ٥ — مدارج الكمال : أرجوزة في الفروع الفقهية تنيف عن ألفي
ميت وهو نظم مختصر الخصال للإمام أبي إسحاق الحضرمي — مطبوعة •
- ٦ — معارج الآمال : شرح لهذه الأرجوزة وهي تنبئ عن غزارة
علمه ورسوخة في علم الشريعة ، قيل إنه يبلغ ستة عشر جزءاً •
- ٧ — غاية المراد ، أحد متون أصول الكلام •
- ٨ — مشارق أنوار العقول ، شرح أرجوزته في أصول الدين شرحها
شرحاً وافياً عد بها من أحسن كتب الأصول تحقيقاً وتحريراً وتنسيقاً طبع
مصر •

- ٩ — أنوار العقول ، أرجوزة في أصول الدين تزيد على ٣٠٠ بيت •
- ١٠ — بهجة الأنوار : شرح أنوار العقول طبع بهامش طلعة الشمس •
- ١١ — طلعة الشمس : ألفه في أصول الفقه جدير بأن يعد من أنفس كتب الأصول •
- ١٢ — جوهر النظام : أرجوزة في الأديان والأحكام الشرعية والحكم وهي في بضع عشر ألف بيت مطبوعة •
- ١٣ — بلوغ الأمل : أرجوزة في أحكام الجمل الثلاث في الإعراب نفيسة جدا •
- ١٤ — الفتاوى العمانية : في سبعة أجزاء منها كتاب حل المشكلات •
- ١٥ — رسالة تلقين الصبيان لمدارس عمان وقد طبعت بدمشق بالمطبعة العمومية هذه السنة بإشرافنا وهي رسالة مفيدة للصبيان والرجال •
- ١٦ — المنهل الصافي في العروض والقوافي أرجوزة تزيد على ٣٠٠ بيت •

وإذا اطلع المنصف على هذا الشرح ، وجد الشارح واسع الاطلاع ، وألقى شرحه واضحا مبينا ، وتعايره صحيحه فصيحة ، أسلوبها المساواة • فلا هي مهوبة مملة ولا مفرطة الإيجاز مخلة — وأما أبحاثها فيها فإنها تدل على اعتدال في التحقيق وبعد عن التعصب ، فكثيرا ما ينقل عن العلماء المخالفين كالحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة • ويستشهد بأحاديث

الشيخين وأئمة الحديث كأبي داود الترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والطبرانى والبيهقى وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، مما يدل على أن الإباضية فى المشرق والمغرب مذهب قريب من مذاهب السنة .

والناظر فى شرح النور السالى عالم عمان ، يمتلىء طمأنينة بما ذكرته ، وقلما رأينا من رجال المذاهب غير السنية من يستشهد برجال الحديث والفقهاء من أهل السنة هذا الاستشهاد فقد ورد (١) .

وما أثرت تخريج أحاديث المسند والشرح — ولا سيما ما رواه الشيخان — إلا لتطمئن قلوب إخوانى أبناء السنة بأن مسند الربيع الذى بنى عليه المذهب الإباضى هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء فى الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن روى عنهم البخارى وغيره ، لكيلا يقع فيما وقع فيه خصوم الإباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدية والصفرية المانعين لموارثة ومناكحة مخالفهم .

ومن أعلم أهل السنة بالإباضية وأعظم من كتب عن الخوارج الإمام المبرد فى كتابه الكامل فقد قال ما نصه : « قول ابن إباض أقرب الأقاويل إلى السنة » .

وقال ابن حزم : « أسوأ الخوارج حالا الغلاة وأقربهم إلى قول أهل الحق الإباضية » وابن إباض هو عبد الله بن إباض المرى التميمى الذى عاصر معاوية وعده الشماخى فى السير من التابعين ، وكان من أتباع

(١) والعكس صحيح أى أن رجال المذاهب الأربعة قلما يستشهدون بأقوال غيرهم إلا فى مقام التشنيع أو النقد أو الرد .

الإمام جابر بن زيد مؤسس المذهب الإباضى ، ولو نسب المذهب الإباضى الى جابر بن زيد تلميذ ابن عباس ، كان فى رأى أصح علما ، واصدق نسباً .

وإليك ما يقوله الشارح المعتدل المنصف فى مقدمة (تحفة الأعيان) « وتدعو الى كتاب الله ومعرفة الحق وموالاته أهله ، فمن عرف الحق وأقر به توليناه ، وحرمانا دمه ، ومن أنكروا حق الله منهم ، واستحب العمى على الهدى ، وفارق المسلمين ، وعاندهم ، فارقناه وقتلناه حتى يرمى الى أمر الله ، أو يهلك على ضلالتة من غير أن ننزلهم منازل عبدة الأوثان ، فلا تستحل سبائهم ، ولا تقتل ذراريهم ، ولا غنيمة أموالهم ، ولا قطع الميراث منهم (كغلاة الخوارج) ولا نرى الفتك بقومنا ، ولا قتلهم فى السر وإن كانوا ضلالا ، لأن الله لم يأمر به فى كتابه ، ولم يفعله أحد من المسلمين ممن كان بمكة بأحد من المشركين ، فكيف نفعله نحن بأهل القبلة ، ونرى أن مناكحة قومنا ، وموارثتهم لا تحرم علينا ، ما داموا يستقبلوا قبلتنا ، ولا نرى أن نقذف أحدا ممن يستقبل قبلتنا بما لم نعلم أنه فعله ، خلافا (للخوارج) الذين يستحلون قذف من يعملون أنه برىء من الزنا من قومهم ، وهم بذلك مظلون » . فالإباضية اليوم فى عمان والمغرب من بقايا الخوارج المعتدلين ، والمتمسكين بالكتاب والسنة . وقال النسور السلمى أيضا « ليس من رأينا — بحمد الله — الغلو فى ديننا ، ولا العشم فى أمرنا ، ولا التعدى على من فارقنا . . . الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا : والسنة طريقتنا ، وبيت الله الحرام قبلتنا ، والإسلام ديننا » ولذلك يحرم على المسلم اتهام أخيه المسلم فى دينه بعد هذا الاعتراف فىكون من المتألمين ، الذين يسارعون فى تكفير المسلمين وهم الذين عناهم النبى ﷺ فى قوله : (ويل للمتألمين من أمتى) أى الذين يحكمون على الله بقولهم فلان فى الجنة وفلان فى النار .

ويفهم من شرح هذا المسند أن الشارح من المتمسكين بالحديث الصحيح ، وأرباب العقل الراجح ، والمعظمين لرسول الله ﷺ وأقواله ، والمهتدين بسنته وأفعاله ، فهو في شرحه لهذا المسند يمحص أقوال العلماء ، ويختار على أقوال أهل المذهب ما صحح من حديث الرسول ﷺ فليس هو ممن يرى (العمل على الفقه لا على الحديث) قال شارح (الصراط المستقيم) : « إذا وجد تابع المجتهد حديثا صحيحا مخالفا لمذهبه هل له أن يعمل به ويترك مذهبه ؟ فيه اختلاف ، فعند المتقدمين له ذلك • قالوا : لأن المتبرع والمقتدى به هو النبي ﷺ ، ومن سواه فهو تابع له فبعد أن علم وصح قوله ﷺ فالمتابعة لغيره غير معقولة » •

قلت ولذلك لا يجوز التعصب للمذاهب تعصبا يستهتر به بحديث الرسول ﷺ فإن ذلك من الفسق ، والبعد عن الدين ، والخروج على سيرة الصحابة والتابعين •

ومن هؤلاء الجاحدين المتعصبين كما يقول بعض الأئمة — من إذا مر عليه حديث يوافق قول من قلده انبسطوا ، وإذا مر عليهم حديث يخالف قوله ، أو يوافق مذهب غيره ، ربما أنقبضوا ولم يسمعوا قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » •

هذا وما كان أهل عمان أقرب لفرق الخوارج الى أهل السنة إلا لأن مذهبهم كما اطلعت عليه مبنى على السنة ، وتقديم العمل على الحديث لا على الفقه • والمذهب عملا بما جرى عليه إمامهم جابر بن زيد الذي عمل بنصيحة شيخه عبد الله بن عمر الذي روى عنه فقد جاء في (الحجة البالغة) أن ابن عمر رضى الله عنه قال لجابر بن زيد « إنك من فقهاء

— ١٧٤ —

البصرة ، فلا تفت إلا بقرآن ناطق ، أو سنة ماضية فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلك « •

ولذلك نعتقد ونقول : إن المعقول ، ومن القلب المقبول ، ألا نهتدي إلا بقوله تعالى : « فإن تنازعتم في شئء فردوه إلى الله والرسول » •

مع إبراهيم عبد الباقي

من قرأ كتاب الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي (الدين والعلم الحديث) يبدو له واضحا أن الأستاذ إبراهيم كاتب نزيه حريص على وحدة الأمة المسلمة ، يحارب بقوة كل ما يحرك الفتن ، ويسبب الفرقة ، كما يحارب بقوة وبصيرة تلك البدع المنكرة التي انحرفت بسلوك المسلمين ، وضللت عقائد البسطاء منهم ، وربما أزاغتهم أحيانا عن معنى التوحيد الخالص .

وقد تحدث عن الإباضية في كتابه القيم ، ويسرني أن أضع بين يدي القارئ الكريم ما قاله الأستاذ إبراهيم عبد الباقي ص ٢٥٢ من كتابه الدين والعلم الحديث :

(طرف من عقائد الخوارج)

« لقد شاع في المسلمين أن جميع الخوارج غير مسلمين ، ولكن الناقد البصير لا يصح أن يجرد البعض من الإسلام ، لأنهم في خروجهم على مذهب لهم فيه تأويل ، ومنهم عبادة وزهاد ملأوا بطون الكتب بورعهم وتقواهم ، هذا ولما كان الوقت شحيحا يضمن على بالبحث عنهم والتنقيب اتصلت بمن له خبرة بهم ، وهو زعيم طائفة منهم تسمى الإباضية » .

هذا الزعيم يسمى أبو إسحاق إبراهيم طفيش موظف بدار الكتب المصرية فكفاني مؤنة البحث ، وكتب الكلمة الآتية » .

بعد هذه المقدمة البسيطة نقل الأستاذ إبراهيم الفصل الذي كتبه له

الإمام أبو إسحاق طفيش عن الخوارج وسوف نجده ضمن فصول هذا الكتاب تحت عنوان (نبذة عن الخوارج) •

وبعد هذا الفصل قال الأستاذ إبراهيم عبد الباقي ما يلي :

يريد الأستاذ - أي أبو إسحاق - بالمذاهب المتعفنة أن كل طائفة متشبثة بمذهبها ، ولو كان الحق مع مذهب غيرها ، وهذه آفة القديم والحديث ، إذ أن الحق أحق أن يتبع ، والمنصف يسير مع الحق حيث سارت ركائبه ، وكان عمر رضى الله عنه ينظر في الحكم فإن كان في كتاب الله قضي به ، وإن لم يكن في كتاب الله نظر في السنة فإن لم يجده في السنة جمع رجال الدين ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضي به •

أما الآن فقد خالف الناس ، واتبعوا المذاهب وإن كان ذلك مخالفا للسنة هذا وقد أخبرني الأستاذ أبو إسحاق بأن مذهب الإباضية أكثر انتشارا في جنوب الجزائر في (وادي ميزاب) وفي تونس (في جزيرة جربة) وفي ليبيا في (جبل نفوسة) وفي (زنجبار وعمان) باليمن حيث يوجد نظام الإمامة المطابقة في بيعتها لبيعة الخلفاء الراشدين « (١) » •

بعد هذا التعليق البسيط ينقل الأستاذ إبراهيم عبد الباقي مقتطفات من مقال للأستاذ مصطفى الشكعة سوف ننقله لك ضمن فصول هذا

(١) آخر بيعة في هذا النمط باجماع الامة كانت سنة ١٣٣٨ هـ للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخليلي وقد سار بالإمامة على منهج العنود في أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ولما توفي اجتمع اهل الحل والعقد سنة ١٩٤٥ م على بيعة الامام غالب بن علي ولكن مكائدات الاستعمار الانجليزي ادخلت اصابعها الى عمان فتوضت اركان الامامة ، واخرجت الامام من عمان .

الكتاب ، وبعد أن انتهى الأستاذ إبراهيم من الاستشهاد بمقال
أبى إسحاق والشكعة قال :

وقد تصفحت من كتبهم ما يأتى :

أولا : جره النظام فى علمى الأديان والأحكام للإمام نور الدين
أبى محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى العمانى رحمه الله وله
تعليق عليه ، ولد سنة ١٢٨٦ هـ وتوفى سنة ١٣٣٢ هـ .

ثانيا : شامل الأصل وافرغ لمحمد بن يوسف أطفيش .

ثالثا : جامع أركان الإسلام للشيخ العلامة سيف بن ناصر بن
سليمان الخروصى طبع أول مرة بمطبعة الآداب سنة ١٣٣١ هـ .

رابعا : مشارق أنوار العقول . طبعة السيد حمودة بن محمد بن
سعد سلطان زنجبار بمطبعة المحروسة سنة ١٣١٤ هـ .

خامسا : الوضع المختصر فى الأصول والفقاه تأليف الإمام ابن
زكرياء يحيى بن أبى الخير الجناونى رحمه الله تعالى نشره وعلق عليه
الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم طفيش طبع بمطبعة الفجالة الجديدة .

وقد استنتجت من هذه الكتب ما يأتى :

أولا : التنزيه المطلق لله تعالى ، ويوجبون تأويل المتشابه بما يليق
بجلال الله تعالى كاليد تؤول بالقوة وتارة بالنعمة ، فمذهبهم مذهب
الخلف فى المحكم والمتشابه .

(م ١٢ — الاباضية)

ثانيا : لا يرون رؤية الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة ، وهذا من كمال الله تعالى ، لأن الرؤية تستدعي مشابهة الله لخلقه ، وكذلك يستدلون بالآية الشريفة : (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) •

وما جاء في السنة لا يعارض القرآن الكريم ، لأنه خبر الآحاد ، وخبر الآحاد لا يفيده إلا الظن ، والظن لا يصح دليلا على صحة العقائد ، ويفسرون المحجب في الآية (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) بأنه غير الرؤية •

ثالثا : يرون أن صفات الله تعالى ذاتية ليست قائمة بمعان قائمة بذاته •

رابعا : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أخل بالاعتقاد الإسلامي ، كإنكار ما علم من الدين بالضرورة ، كأن ينكر إنسان صفة من صفات الله تعالى أو نبيا من الأنبياء أو حرفا من القرآن الكريم •

خامسا : يرون أن القراءات السبع متواترة •

سادسا : يعرفون المذهب الاجتهادي بقولهم : المذهب هو ما استبان به لكل فرقة عن الأخرى في الفروع التي لا تأثيم فيها ، فحرية الرأي وحرية المذهب مكفولة ، وأن الخلافة لا تكون إلا من أهل الصل والعقد •

سابعاً : أن مرتكب الكبيرة عندهم ليس مشركاً ، وأن أهل الجنة خالدون فيها ، وأهل النار خالدون كذلك ، فهم يخالفوننا في عقيدتنا ، وهو أن المعاصي من المؤمنين يدخل النار حتى يطهر من معصيته ، لأن المعاصي رجس ، والجنة طاهرة فلا يدخلها إلا الطاهرون .

ثامناً : يخالفوننا في بعض فروع الفقه ، مثل رفع اليدين عند التكبيرات في الصلاة ، ومثل وجوب سجدة التلاوة حين سماع الآية ، وغير ذلك من المسائل التي لم تكن موضع إجماع .

مع الاستاذين • التنوخى وإبراهيم عبد الباقي

لقد عرضت عليك أيها القارئ الكريم ما كتبه كل من الأستاذين الفاضلين : عز الدين التنوخى ، وإبراهيم محمد عبد الباقي عن الإباضية ، ونقلته لك بنصه ، وذكرت أيضا أن هذا المنهج الذى سارا عليه هو المنهج السليم الذى يجب أن يسلكه من يريد أن يكتب عن أى فرقة • وذلك بأن يتصف بالنزاهة والتجرد ، وأن يتحلى بالصدق والأمانة ، وأن يعتمد — فى تقرير آراء وعقائد أى طائفة ونسبتها إليها — على كتبها ومراجعتها وعلماؤها لا على ما يكتبه عنها غيرها • لأن ذلك الغير فى أغلب الأحوال يقف منها موقف الخصوم •

ومن هذه الأسس يستطيع الكاتب أن يعرض الحقيقة ، حقيقة ما يعتقده أصحاب الفرق ويقولونه ، ويدينون به دون تحريف أو تدليس أو غموض أو إيهام مقصود •

وقد سلك الأستاذان التنوخى وإبراهيم هذا المسلك السليم وهما يكتبان عن الإباضية • فرجعا إلى مصادر الإباضية • وبذلك جاءت كتاباتهما سليمة من السفساف والأباطيل التى تجدها عند كثير من كتاب المقالات الأقدمين منهم والمحدثين • كما جاءت كتاباتهما سليمة — أيضا — من الفراغ والضواء الذى تحسه وأنت تقرأ لبعض الكتاب المقلدين الذين يعتمدون على ما يجدونه دون فهم أو تمحيص أو بحث عن الدوافع والبواعث اكتفاء بإسناد ما يقولونه إلى مصادر تاريخية تاريخية أضىف عليها القدم ثوب القداسة ، ليتخلصوا من مسئولية إعلان كلمة الحق •

وبالرجوع إلى ما كتبه الأستاذان الفاضلان ونسباه إلى الإباضية مما سبق عرضه على القارئ الكريم يبدو أنه لا يوجد شيء عندهما يحتاج إلى مزيد من النقاش والبحث غير نقطة واحدة جانبية • تلك النقطة هي انسياقهما وراء التيار التاريخي الجارف الذي يصر على اعتبار الإباضية فرقة من فرق الخوارج •

ونحن لا نلومهما - في موقفهما هذا - ولا نعتب عليهما ، فقد استطاع التدليس التاريخي أن يصنع هذه الدعوى الكاذبة بثوب الحقيقة حتى انطلت على بعض الإباضية أنفسهم في القديم وفي الحديث •

بل لقد حدثنى بعض الشباب عن تخصص في التاريخ بأنه يفتخر بذلك ويعتز ، لأنه يفهم أحداث ذلك العصر ويفسرها بروح هذا العصر • فكان يعتبر الخوارج طلائع ثورية ، يمثلون الدور الثوري على الظلم والفساد والرشوة ، وهو بهذا الفهم يعتز بأن يكون خارجياً أو ينتمى إلى فرقة خارجية ، بمعنى أنه ينتمى إلى فكرة ثورية تحمل في مسيرتها التاريخية نضالاً ضد فساد الحكم لا يهدأ ولا يستقر •

وهذه الصورة الثورية التي يعجب بها هذا الشاب وزملاؤه وإضرابه من الشباب الذي أثارته نقمتهم الأوضاع الفاسدة في أنظمة حكم فاسد جثم على صدر الأمة بكلكلة الثقيل ، ثم محاولة التخلص منه •

هذه الصورة ليست فكرة مقصورة على الخوارج أو على الإباضية أو على فرقة معينة من فرق المسلمين •

إن الثورة على الظلم والفساد والرشوة وما يتبع ذلك من البلبايا

والحن ، إنما هو المنهج الذى جاء به الإسلام ، ودعا إليه المسلمين ، ودعا المسلمون إليه • وقاموا به فى مختلف أدوار التاريخ ، ولم تسكت الألسنة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر ، ولم تكف الأيدي الثائرة فى أى فترة من فترات الحكم المنحرف •

ولم يمض حاكم ظالم دون أن تتناله صفعات مؤلّات من الثائرين فى الأمة المسلمة من جميع الفرق والمذاهب ، حتى من أتباع الأئمة الذين ينهون عن استعمال العنف ، ويحذرون من الفتنة ، ويفضلون استبداد الحاكم على شق عصا الطاعة ، وأحداث الخلاف والتسبب فى إراقة الدماء • ويتعاضون عن الدماء التى تريقها أيدي الحكام الظلمة ولكنهم لا يسكتون عن الدماء التى تريقها النعمة ضد أولئك الحكام •

تستطيع أن تبدأ ملاحظة ذلك من أول العهد التى بدأ فيها الحكام ينصرفون عن نظام الخلافة الرشيدة إلى ملكية مستبدة ، أو كما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم « ملك عضوض » ولو أن أولئك الملوك لم يسموا أنفسهم ملوكا ، وحافظوا على مظهر التسمية فكانوا حراسا — على مجرى التاريخ — أن يدعواهم الناس بأمراء المؤمنين أو أئمة المسلمين •

والإباضية مثل غيرهم من المسلمين فى هذا المجال • كانوا من أشد من ينتقد تصرف المنحرفين ، ويطالب ولاية الأمور أن يتقيدوا بأحكام الإسلام ، وأن يقتدوا بالخلفاء الراشدين الذين أرضوا الله تبارك وتعالى وأرضوا الأمة فرضيت عنهم •

ويتضح لأولئك الإخوة الشباب من هذا انتقاد الإباضية للتحكم

الظالم ، ومحاولتهم الإطاحة به في بعض الأحيان • وعملهم على إيجاد دولة ، تطبق أحكام الإسلام ، وتنقيد بها ، وتشدهم في مجابهة العدوان ، ومعارضته بقوة وعنف !

كل هذا لا يلحقهم بالخوارج ، ولا يجمعهم معهم في صعيد واحد ، ولا يجعلهم فرقة منهم •

وفي المسلمين — بمختلف طوائفهم ومذاهبهم وآرائهم ، ولا سيما في عهد الدولة الأموية حينما كان انتقال الحكم من خلافة رشيدة الى ملك عضوض ، قد سبب فجوة عميقة ، أو هوة خشى المسلمون أن يتردوا فيها ثم يعسر عليهم الخروج منها — أمثلة حية واضحة لكثير من التابعين وتابعي التابعين ، بل ومن بقية الصحابة رضوان الله عليهم • فقد كانوا من أقوى التأثيرين على الفساد الذى بدأ بانحراف الحكم عن الخلافة الرشيدة إلى ملك عضوض يتقاتل عليه أصحاب الدنيا • وقد استشهد في هذا السبيل عدد من أفاضال الرجال ، ومع ذلك لم يسموا أنفسهم خوارج ، ولم يمتزوا بذلك الاسم ، ولم يشرههم أحد في أتباعهم والمعجبين بهم بهذا الاسم ، أو يطلق عليهم هذا اللقب •

ويكفى أن أذكر الأمثلة لأولئك التأثيرين على الانحراف والفساد شهيد كربلاء الإمام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن الزبير نجل ذات النطاقين ، وسعيد بن جبير وزيد بن علي ابن الحسين • وكل واحد من هؤلاء يمثل ثورة عارضة من الأمة المسلمة على الحكم الظالم ، والخروج عليه ، ومدافعتة حتى الاستشهاد •

وإذا شاء القارئ الكريم أن يضيف إلى هذه القائمة أسماء الثوار الشهداء الذين سالت دماؤهم على سيوف الحكم المستبد ، والذين نجحوا في ثوراتهم أو فشلوا فإنه يستطيع أن يملأ المجلدات الضخمة بما جرى من ذلك عبر التاريخ • ويأخذ الإباضية أو بعض الإباضية حيزهم الضيق أو الواسع في تلك المجلدات ، ولا يمكن أن يخلو منهم مجلد •

ومن البديهي أن أولئك الثوار ابتداء من سيد الشهداء الإمام الحسين ومن سار على نهجهم في مختلف العصور — لم يحملهم التطرف ، والسخط على فساد الحكم ، إلى مخالفة أحكام الإسلام ، فيستحلون من الناس ما حرمه الإسلام ، وعصمته كلمة التوحيد من دماء وأموال وأعراض •

هذه النقطة بالذات — وهي التطرف في السخط حتى تستحل به الدماء البريئة ، والأموال المعصومة ، والأعراض المصونة بحكم الله — هي الفارق الوحيد بين الثورية والخرجية • إذا سمحنا لأنفسنا فاستعملنا كلمة الثورية — بمدلولها المعاصر — على أحداث التاريخ في تلك العصور •

فإن عبد الله بن الزبير — مثلاً — كان قد ثار على الحكم الأموي المنحرف وكان الحكم قائماً عندما ثار ابن الزبير فخرج عن الطاعة كما تعبر السنة الأنظمة الحاكمة في كل عصر وكل عهد ولكنه مع خروجه على حكم الدولة القائمة ، لم يعتبر خارجياً ، ولم يسم نفسه بهذا الاسم ، ولم يسمه اتباعه بذلك ، ولم يتجرأ أحد من خصومه أن

يصفه بذلك في ذلك الحين • فلماذا لم يكن ذلك يا ترى ؟ ذلك أن اطلاق لفظة الخوارج إنما كانت تعنى من يخرج على نظام قائم فلا يكتفى بمحاربة النظام القائم — سواء كان عادلا أو جائرا — وإنما يضيف الى ذلك أن تستحل دماء وأموال ، وحرمان من يخالفه ، ويحكم عليهم بأحكام المشركين ، ويطبقها عليهم ما تمكن من ذلك • ولم تكن هذه الآراء ولا هذه السيرة لعبد الله بن الزبير مثلا ولذلك فنحن قد نستطيع أن نعدده في موكب الثائرين ، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نعدده من الخوارج ، لأنه — ببساطة — لم يكن يدين بدين الخوارج فلم يكن يحكم على غيره من المسلمين بالشرك ولم يكن يستحل منهم : لا الأموال ولا سبى النساء والأطفال ، ولا دماء من لم يعترض سبيله ويرفع في وجهه السلاح • وإنما كان يرى أن المسلمين جميعا أخوة له ، فهو يقتصر في ثورته على محاربة الحكم الظالم ، والجيش الباطش ، ومن يسعى الى تثبيت أركان الظلم •

ونفس الموقف نستطيع أن نعطيه لقبية الثائرين في أدوار التاريخ الإسلامي الطويل وفي عهود الفساد والظلم • فلم يتلقب أحد منهم بذلك ، ولم يلقبهم به أحد من الناس ، لهذا الفارق الوحيد فحسب • ويدخل في هذا الجانب حتى أولئك الذين خرجوا على الحكم وثاروا عليه ولم يكن قصدهم الحقيقي هو إزاحة الظلم ولكن الوصول الى الحكم ما لم يدينوا بذلك المبدأ الذى يضع المسلمين في صفوف المشركين ويبيح منهم ما حفظه الله لهم بكلمة الشهادة •

إن الثورة على الظلم والظالمين ومحاربة الفساد في أنظمة الحكم ، أهم واجبات المسلم ، وقد كان ذلك هو المبدأ الذى سار عليه أئمة

المسلمين مع اختلاف في الطرق والمناهج ، فمنهم من يكتفى بالثورة اللسانية ، ومنهم من يمد يده الى السيف من أول حركة ، ومنهم من يجمع بين الاثنين ، ومنهم يتخذ موقفا غير مباشر في مكافحة الظالمين وذلك بنقد الظلم والفساد عامة دون التعرض لمن يتصف بذلك •

وقد يستفحل الاستبداد فيقيد الأيدي ، ويكتم الأفواه ، وتبقى الثورة حبيسة في الصدور حتى تنفجر في يوم من الأيام فتطيح بالظلم والظالمين • ولو طال بهم المدى •

والخوارج حين ثاروا على ما اعتقدوه ظلما ، ورأوه انحرافا بالحكم عن المنهج الإسلامي الثوري الى منهج دكتاتوري مستبد ، لم يقصروا الثورة على أجهزة الحكم الفاسد فقط — ولو في نظرهم — وإنما تجاوزوا ذلك الى أن حكموا على غيرهم من المسلمين بأحكام المشركين ، واستباحوا منهم ما أباحه الله من الكفار • وبذلك انتقلوا من وصف الثورية الى وصف الخارجية الذي يعنى الخروج من السدين • أى من مجموعة كانت تطالب بحق تؤيدهم فيه كل الأمة — ولو بقلوبها حتى أولئك الذين لم يشتركوا في أية ثورة قط لا باليد ولا باللسان — الى هرقة قد انفصلت عن الأمة المسلمة انفصالا دينيا كاملا ، بحيث حكمت على الأمة المسلمة بأحكام المشركين (١) لأنها في نظرهم قد كفرت : إما بكونها مع الظالمين ، وإما برضاؤها وبقائها تحت حكمهم •

(١) يجب أن اذكر هنا اننى لم اتمكن من الحصول على اى مصدر من مصادر الخوارج حتى اعرف حقيقة ما عندهم من كتبهم وأن ما اسندته اليهم

وقد كان رد الفعل لهذا الموقف من الأمة المسلمة أن حكمت الأمة على هذه الثورة المنحرفة المتطرفة بنفس الحكم ، وبادلتها نفس الموقف وأطلقت عليها لفظ الخارجية والخوارج وهي تقصد بذلك خروج من يدين بذلك من الدين بسبب الحكم على المسلمين بالشرك ومعاملتهم معاملة المشركين . وهكذا بعدت بينهم المسافة ، واتسعت الشقة . فالخوارج يرون أن الحكام الظالمين ومن أعانهم على حكمهم ومن سكت عنه أو رضى به وبقي تحت سلطانهم كل هؤلاء قد كفروا وتحل دماءهم وأموالهم وسبى نسائهم وأطفالهم . والآخرون يرون أن الخوارج كفروا لأنهم كفروا المسلمين .

بعد هذا الحديث أريد أن أوجه الى القارئ الكريم السؤال الآتى :
حتى أو لم يعتبر الفرد أو الطائفة من الخوارج ؟

أحسب أن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال تحدد الموقف بالنسبة للإباضية ، وتضعهم في مكانهم الطبيعي في المذاهب الإسلامية .

لقد أوضحنا فيما سبق أن الثورة على أى حكم والخروج عليه لا يكفى سببا لأن يضع صاحبه أو أصحابه في قائمة الخوارج ثم يسلب عليه

في هذا الفصل وفي غيره من الفصول وفي كتبى السابقة انما أخذته من مصادر غيرهم التى كتبت عنهم وهى فى اغلبها تقف منهم موقف الخصوم بما فيها كتب الإباضية فان كان ما نسب اليهم حقا فنحن مسئولون عن دراستنا وآرائنا وان كان ما ينسب اليهم باطلا من القول فالمعهدة على الرواة من كتاب التاريخ والمقاتلات واننى أستغفر الله واتوب اليه .

الحكم الذى سلطه التاريخ على الخوارج والأحكام التى سلطها الخوارج على غيرهم • فقد خرج أهل الأمصار على عثمان - وهو خليفة راشد - ولم يسمهم أحد حينئذ خوارج ، وخرج طلحة والزبير وعائشة على على - وهو خليفة راشد - ولم يسمهم أحد خوارج ، وخرج معاوية على أمير المؤمنين على - وهو خليفة راشد - ولم يصفه أحد بالخارجية • وثار الحسين ابن على وعبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير وزيد بن على ويحيى بن زيد على الدولة الأموية ولم يسمهم أحد خوارج • بل إن زعماء الدولة العباسية أنفسهم كانوا قد خرجوا على الدولة الأموية ولم يسمهم أحد خوارج ، بل ونقض الأميين بيعة المأمون وخرج عليه المأمون ولم يطلق اسم الخوارج على أى منها •

ومعنى هذا أن الخروج على نظم الحكم القائم والثورة عليه - سواء كان الحكم عادلا ونظيفا كما كان في عهد الخلفاء الراشدين ، أو كان ملكا عضوا كما كان في عهد الدولة الأموية وما بعدها وما كان يقوم به عمالها أمثال الحجاج وزيد وعبيد الله بن زياد وأضرابهم - فإنه لا يكفى لأن يعتبر الثائرون عليه خوارج لمجرد ثورتهم على الحكم وخروجهم عنه • إن الخروج عن الحكم الظالم ، والثورة عليه • ومحاولد الإطاحة بأجهزته الفاسدة هو من أوكد الواجبات على الأمة المسائمة إذا لم تخش سرا أكبر ، ومن قام بذلك الواجب لا يمكن أن يعتبر خارجيا ، ولا يجوز أن يوصف بالخارجية إلا إذا تطرف فتعدى ذلك الى الحكم على المسلمين بأحكام المشركين ، فاستباح منهم الدماء والأموال ، واستحل سبى النساء والأطفال ، وتلك هى معانى الخارجية فى أية ثورة أو حركة مسلحة •

وواضح أنها خارجية عن الإسلام لا عن حكم قائم لدولة قد تكون باغية تتحكم في رقاب أمة مسلمة كريمة وصفها الله تبارك وتعالى بالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتذللها وقد تنفذ فيها عمليا فظائع من السلوك لم تخطر على بال الخوارج حتى وهم في أشد حالات الحق والغيب ، وإذا كان هذا واضحا وصحيحا وواقعا فما هي العلاقة أو الرابطة بين الإباضية والخوارج ؟

إن الإباضية من احرص المؤمنين على التقيد بما ثبت في النصوص الشرعية من أحكام المسلمين وهم يعتقدون أن كل من نطق بكلمة الشهادة فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم فلا يستحلون دماء أحد من أهل القبلة إلا بالحق بينته وحددته الشريعة الإسلامية كالردة وقتل النفس وما في معناها من الحدود •

ولا يستحلون مال أحد إلا بالطرق التي رسمتها الشريعة الإسلامية للتعامل بين الناس : فريضة في كتاب الله ، هبة عن تراض ، بيع عن تراض وما في معناها • أما قتل الأبرياء وسبى الأطفال والنساء فقد وقفت دونها كلمة التوحيد ، وصانها عن هذه المذلة والهوان • ولا يستحلون هذا حتى من البغاة والمعتدين مهما بالغوا في مسلكهم الظالم •

فلا اعتبارات التي سمي الخوارج - من أجلها - خوارج لا وجود لها عند الإباضية مطلقا • بل إنهم أبعد الناس عنها عقيدة وقولا وعملا وجميع كتاب المقالات - رغم إصرارهم على إن الإباضية من الخوارج - يشهدون بذلك ويسجلونه في كتبهم •

لو كانت الخارجية نسبا أو صهرا أو حتى صداقة يزعم أن للإباضية

بهذا النسب وشيخة أو قرابة ويزعم أن لهم فيها عما أو خالا أو صديقا • ولكن القضية ليست كذلك • القضية قضية عقائد معينة محددة يبنى عليها سلوك تنتج عنه آثار • فمن أين جاءت الخارجية الى الإباضية ولماذا يصر مؤرخو الفرق الإسلامية وكتاب المقالات الدينية على هذا الموقف ؟ يقول الأستاذ مصطفى الشكعة « إنهم رموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشية ، أى التزام كون الإمام من القرشيين » • والحقيقة أنه لا شيء البتة عند كتاب المقالات والمؤرخين يمكن أن يكون سببا لإطلاق كلمة الخوارج على الإباضية إلا أحد أمرين هما : رفض القرشية ، واعتبار التحكيم خطأ • فهم يلتفتون مع الخوارج في هذا الرأي لا غير وهذا — فيما يبدو — هو كل ما يتعلق به القوم غير أن السياسة الماكرة في العهد الأموي وفيما بعد أيضا حاولت أن تضرب كل من ينقدها بما يناسب ظروفه ولما كان الإباضية لا يعترفون بالقرشية أساسا أو مؤهلا وحيدا للإمامة فقد أضفت عليهم لقب الخارجية ثم جاء أعوانها فاخترعوا للإباضية عقائد وشناعات بثوها عنها فانتشرت بين الناس وقامت حائلا للموضوع وطفت تلك وراجت فتناولتها الأقلام بالإثبات والترسيخ •

ولقد أوضحنا من قبل أيضا أن القول بأن التحكيم خطأ لا يخرج قائله من الإسلام ، ولا يفصله عن الأمة المسلمة ، ولا يكفى لأن نسلط عليه حكما رهيبا يجعله مكروها من المسلمين ، ثم يستمر هذا الحكم طول التاريخ ، ويمتد مع امتداد الزمن ، وأوضحنا أيضا أنه إن كان إنكار التحكيم واعتباره خدعة سياسية يراد بها تفريق جيش أمير المؤمنين على هو الخارجية أو هو السبب في إطلاق لفظة الخوارج • فأحسب أن أمير المؤمنين عليا وخيار أصحابه أمثال عمار والأشتر وعبد الله بن عباس يكونون رؤساء للخوارج • ذلك أن كتب عن موضوع التحكيم تكاد تكون

مجمعة أن أمير المؤمنين كان أول أو من أوائل من تفتنوا للمكيذة ولم يقبل التحكيم لا مكرها • وأنه أنكره بشدة ، وأبان لجيشه - الذى عمل فيه الطابور الخامس عمله - عواقب تلك المكيذة • وأنه لم يقبل التحكيم إلا مضطرا ، عندما وجد جيشه معرضا للتفرقة والتمزق ، وربما للتناحر • وكان على رأى الإمام على وعلى رأى أصحابه فى اعتبار التحكيم مكيذة لا ينبغى قبولها أكثر أئمة المسلمين منهم الإمامان العظيمان الحسن البصرى ومالك بن أنس حسبما أوردته الجرد فى كامله وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة بل استطيع أن أزعم أننا اليوم وفى هذا العصر - وقد مضى على تلك الأحداث ثلاثة عشر قرنا ونصف - عندما نقرأ أخبارها نشعر بالأسف والحسرة لأن تلك الخدعة الجريئة قد انطلت على أكثرية جيش على حتى اضطر للاستجابة لها رغم معرفته القصد منها ، وتقديره لفتائجها ، وعلمه علم اليقين أن القصد من تلك العملية لم يكن مراعاة للمصلحة العامة • ولا نظرا لخير الأمة ولا تجكما للكتاب فى شىء جهل فيه حكم الكتاب •

فهل يعتبر، من يحس هذا الإحساس - اليوم - ويرى هذا الرأى من الخوارج •

لا شك أن الإباضية يرون أن التحكيم خدعة وخطأ لا ينبغى قبوله ، ومع الإباضية فى هذا الفهم وهذا الاعتقاد أكثر أئمة المسلمين فى مختلف المذاهب ، فإذا كان الخوارج هم الآخرون يرون هذا الرأى فهل يعنى

(١) راجع كتابه اسلام بلا مذاهب ، وكتاب الدين والعلم الحديث للاستاذ ابراهيم محمد الباتى ص ٢٦٦ طبع المكتبة التجارية الكبرى .

هذا أن الإباضية ومن يرى رأيهم في قضية التحكيم أو في قضية الخلافة أصبحوا خوارج لأنهم التقوا معهم في فكرة •

أحسب أن هذه النقطة هي النقطة الوجيهة التي يلتقى فيها الإباضية مع الخوارج • ويلتقى فيها مع الخوارج كثير من الأمة • أما في موضوع الخلافة فأصبحت الأمة كلها فيما يبدو ترى رأي الخوارج قولاً وعملاً •

وينفصل الإباضية عن الخوارج — في غير النقطة السابقة — انفصالاً كاملاً لالقاء معه • ويقفون معهم أعنف المواقف في الحرب والسلم • فهم عندما يكونون معهم في الإسلام ، يعلنون البراءة منهم • ويطردونهم من مجالسهم ، وينكرون عليهم في عنف وشدة ، ويمنعونهم أن يتحدثوا إلى الناس عن آرائهم المتطرفة • ولقد يكون إنكار الإباضية على الخوارج أعنف وأقسى من إنكار غيرهم عليهم — بقطع النظر عن المواقف العسكرية التي كانت تقفها دول كانت تحافظ على عروشها لا على معتقداتها وعلى سلطتها وهيبتها لا على دينها •

ومع كل هذا فقد استطاعت الدعاية السياسية في العهد الأموي أن تضفى لقب الخارجية على الإباضية • وجاء المؤرخون الموجهون فنشروا ذلك في كتبهم وفي أحاديثهم وفي المجالس الخاصة والعامة ، ثم جاء من بعدهم كتاب المقالات لأخذوا ما وجدوا دون تحقيق أو تزو أو نقد • وقد وجد الكذابون والمشنعون والمستغلون ميداناً فسيحاً للاقتراء والزيادة فنشروا الأباطيل يتناقلها الناس كأنها وقائع • أخذها كتاب المقالات كمادة علمية حشوا بها كتبهم فأصبحت مرتبة الحقائق الثابتة التي لا يتوجه إليها نقد ولا يرتفع بصدها نقاش •

ولا شك أن الذين كتبوا عن الإباضية واعتبروهم من الخوارج كان لكل واحد منهم مستنده ومنهجه ودوافعه . وربما كانوا باتجاهاتهم ودوافعهم ومستنداتهم لا يخرجون عن الأنواع الثلاثة الآتية :

١ - النوع الأول : اعتقدوا حقا أن الإباضية فرقة من الخوارج ، وتشبعوا باعتقادهم أنها فرقة ضالة مبتدعة ، بل وحتى أسوأ من ذلك لو أمكن ، واشتد - من أجل هذا - حقدهم عليها وبغضهم لها ، وهم مستعدون لتقبل كل ما يقال عنها من تشنيع وحتى الزيادة عليه برضى واطمئنان دون التمسك في صحة ذلك أو محاولة للبحث عن الحقيقة .

٢ - النوع الثانى : استندوا على مصادر موجودة واعتمدوا عليها دون نقد أو محاولة لمعرفة حقيقة الإباضية من وراء ذلك وهم يرون أنهم قتلوا ما ينبغى لهم مادام الواحد منهم يستطيع أن يدل على مصدر لستند عليه .

٣ - النوع الثالث : درسوا شيئا عن الإباضية واطلعوا على كتبهم وعرفوا منها البون البعيد بين الإباضية والخوارج وعلموا ، أن كثيرا مما يقال فى كتب المقالات لا أساس له ، ولكنهم مع ذلك استسلموا للتيار التاريخى فى إطلاق كلمة الخوارج على الإباضية باعتباره اسما مميزا فقط لا يدل على ما تحمله كلمة الخارجية من المروق ومانتستمل عليه وتوحى به فى الخروج عن الدين والأمة ، فهم يطلقون لفظ الخوارج على الإباضية كما يطلق أى لقب مكروه على شخص دون اعتقاد بأن ذلك الشخص يحمل شيئا من مدلوله ومعانيه .

ويبدو لى أن الأستاذين : عز الدين التتوخى ، وإبراهيم محمد عبد الباقي ومن سار على نهجها من هذا القسم • فهما — مع تقريرهما لبعده الإباضية عن الخوارج البعد الكامل — وتوضيحهما للفارق الظاهر فى ذلك — لم يتحرجا أن يذكرنا أن الإباضية فرقة من الخوارج • بل لقد تجرأ الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي فوصف صديقه أبا إسحاق طفيش (رحمه الله) بأنه زعيم طائفة منهم ، ولست أدري ما هو الإحساس الذى ثار فى نفس الإمام الكبير حين قرأ ذلك ، ولا كيف كان لقاءه معه بعد ذلك • ولكن أبا إسحاق على كل حال لم يتعرض لموقفه الشخصى فى إطلاق الخارجية عليه ، وإنما استجاب للكاتب الكبير ، وعرض موضوع الخوارج عرضا سهبا وضعه تحت تصرف الأستاذ إبراهيم فنشره — مشكورا — بنصه فى كتابه القيم •

والحقيقة أن الإباضية فى جميع العصور — مع أنهم يبرأون من الخوارج ومن معنى الخارجية التى شرحناها سابقا — تعودت آذانهم أن تسمع من يصفهم بها فى القديم والحديث • حتى تمسك بها المتطرفون منهم على سبيل التصدى ، وكان الكثير منهم لا يجيد لها إحساسا أو طعما معينا ، وإنما ألفوها كما يالف أى إنسان تتفق مجموعة من أصدقائه وأصحابه على أن يلقبوه بلقب مكروه ويصرون على مناداته به ، فيغضب ويثور فى أول الأمر ثم يلين ويتغاضى ثم قد يستسلم ويستجيب ويعترف به على طول المدى ، وقد عطلت بالأفراد والأسر والقبائل القصاب من هذا النوع حاربوها فى مبدأ الأمر ، ثم استسلموا لها ، ثم اعترفوا بها فأصبحت أعلما لهم •

على هذا المستوى سكت بعض الإباضية عن سماهم خوارج فى

العصور السابقة ويسكت لها اليوم آخرون ، وربما وجد من اعتر بها في القديم والحديث من باب المناكفة والتحدى وربما وجد من شذ وتطرف مراغمة وكيدا فاننتسب إلى الخوارج وقال ببعض شعاراتهم •

ويبقى بعد كل ذلك الإباضية — دون اعتبار للأفراد والشواذ والمتطرفين — مذهباً إسلامياً بقواعد وأصوله المبنية على الأسس الشرعية المعتبرة من كتاب وسنة وإجماع وقياس صحيح • يحمل علوم الشريعة عدوله ، ينفون عنه تحريف المغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين وشبه المبتدعين

الباب الثالث

المستشرقون

- * المستشرقون
- * مع إميل فيلكس جوتيه •
- * مع كرلو الفونسو نيلينو •
- * اللقاء بين الإباضية وأهل السنة •

القسم الثالث

المستشرقون

اهتم المستشرقون بالقضايا الإسلامية عامة • وقدموا فيها دراسات واسعة ، وبحوثا مختلفة • منها القيم ، ومنها الأقل قيمة •

وقد حاولت أن أراجع موضوع الإباضية في بعض كتاباتهم فلم أستطع أن أفصل موضوع الإباضية في بحوثهم عن بقية المواضيع الإسلامية • وفرضت على أساليبهم — في مناقشة قضايا الشرق عموما ، وقضايا الإسلام خصوصا — أن أغير منهجي الذي كنت وضعته لمناقشة هذه البحوث وقد رأيت أن أقدم مباحث هذا القسم من الكتاب كما يلي :

١ — المستشرقون : أعرض في هذا الفصل نماذج من كتاباتهم مع تحليل موجز لبعض الفقرات منها •

٢ — إميل جوتيه : أعرض بعض ما كتبه هذا المستشرق كمثال للمستشرقين المتعصبين الذين يكتبون عن الشرق والنظرة الاستعمارية المتعالية لا تتفارق أحاسيسهم ومنطق السيادة التي يريدون أن يفرضوها على العالم لا تختفى من أذهانهم •

٣ — كارلونييلينو أعرض بعض ما كتبه هذا المستشرق كمثال

للمستشرقين الذين يلتزمون الأسلوب العلمي دون أن يؤثر عليهم
— ظاهرا — إحساس آخر أو دافع غير دافع خدمة الثقافة الإنسانية
حسبما يبدو للقارئ .

٤ — مقارنة موجزة للقاء بين الإباضية وأهل السنة في النقاط التي
جعلهم نيلينو مواضيع لقاء بين الإباضية والمعتزلة .

والواقع أن هذه الفصول الصغيرة القصيرة لا تكفى لإعطاء صورة
حقيقية وصحيحة عن جهود المستشرقين — سواء منها الجهود النبيلة
النظيفة ، أو الجهود الماكرة الدساسة — وعسى الله تبارك وتعالى أن
يبسر لى العودة إلى موضوع « القضايا الإسلامية بين أيدي
المستشرقين » فأتناولها بعمق أكثر ، وفهم أصح ، واطلاع أوسع .
ودراسة أكثر استيعابا ، وأسلوب أكثر نعومة وتهذيبا .

المستشرقون

قلت في بعض الفصول من هذا الكتاب ! إن للمستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام - سواء كانت كتاباتهم عنه كدين ، أو عن الأمة الإسلامية جمعاء كأمة ، أو عن فرقة من فرقهم كفرقة أو مذهب - أساليبيهم ودوافعهم ، ومراميهم الظاهرة والخفية ، ومهما كانوا مخلصين للبحث العلمي ، ولخدمة الثقافة الإنسانية في هذه المواضيع ، فإنهم - في الحقيقة - أشد إخلاصاً للدوافع الحقيقية التي دفعتهم إلى الكتابة عن الإسلام والمسلمين . وهم لا ينسون مطلقاً أن أقلامهم يجب أن تتم ما عجزت عنه سيوف الصليبيين ، وأنهم يمثلون الترفع الحضاري الذي يعتقدونه للإغريق والرومان أي لشعوب الغرب على شعوب الشرق التي خضعت - في يوم من الأيام - لحضارتهم وعسكريتهم ويرون أن ذلك التفوق والتحكم يجب أن يستمر بأيديهم وأيدي أبنائهم وأيدي أحفادهم ، وأن كل واحد يمثل - في عصره - موقف القيادة للسيطرة الغرب على الشرق . وإن لم يحمل الشارات العسكرية .

على أن هؤلاء المستشرقين ، عندما يتناولون هذه المواضيع يختلفون بعض الاختلاف في طريقة تناولها فمنهم من تدفعه الحماسة فينكشف بسرعة ، وتبدو مقاصده من ثنايا كتاباته واضحة . حتى أن مواقف بعضهم لا تختلف عن الضباط العسكريين الذين يتوجهون إلى الاحتلال بقوة السلاح .

ونعيم من يملك من الدهاء ما يستطيع معه أن يدس إلى قارئيه ما يريد من الأفكار دون أن يثير منهم حاسة الانتباه ، وغريزة رد الفطء .

وهم في أغلب الأحوال ينطلقون من نقط متشابهة ، ويتتبعون وسائل متقاربة ، ومن ذلك مثلا : يعمدون إلى وسيلة ظاهرها علمى بحت ، وباطنها وسيلة من وسائل التخدير وكسب الاستيثاق ، تؤثر على القارئ البسيط من النظرة الأولى فتملا نفسه بالإعجاب أولا ، والتصديق ثانيا ، والثقة ثالثا . وعندما يصل القارئ معهم إلى هذه المرحلة فإنهم يكونون قد كسبوه نهائيا .

ومن الأساليب البسيطة في هذا المجال أنهم عندما يريدون أن يتناولوا موضوعا بالبحث يقومون بإعداد قوائم طويلة من المراجع والصادر باللغات المختلفة — ولاسيما اللغة العربية — يثبتونها في صدر كل بحث أو عند نهايته . مع أنهم — عند مناقشة الموضوع — قد لا يحتاجون إلى الكثير من تلك المراجع ولا يعودون إليها . ولكن ذكر أسمائها بتلك الوفرة يوحى باستفراغ الجهد ، ودقة التحقيق والتمحيص ، ثم بالثقة . ثم هم يتصيدون منها شواذ الأخبار والأحداث فيركزون عليها ، ويؤيدون بها مقاصدهم الخفية .

ولست بهذه الملاحظة البسيطة أغمز سعة اطلاعهم فأنا على يقين كامل بأنهم قد توفر لهم من الدراسة — بسبب مجهوداتهم الشخصية ، ومساعدات حكوماتهم ومؤسساتهم المادية والمعنوية — ما يتيح لهم من سعة الإطلاع ، وغزارة المادة ، ووفرة الجهد في الدراسة والبحث أو مواصلة العمل والاستمرار فيه . ما لا يتاح لغيرهم أبدا . فهم بذلك من أكثر الناس اطلاعا على المواضيع التي يهتمون بها ويبحثونها ، ولكنهم مع ذلك يقصدون بذكر المصادر — مع الحصول على إعجاب القارئ وثقته — إلى تخديره بتلك الوسيلة التي توحي إليه مسبقا بعظمة المجهود المبذول . من أجل الوصول إلى الحقيقة فيكون ظاهرا بين أيديهم .

وأنا وإن كنت سلكت مسلك التعميم في الحديث عن المستشرقين لا أدعى أن رأيي هذا ينطبق على كل فرد منهم فهذه - لا شك - دعوى لا تصح ، ولا يمكن لى أن أزعمها ، ضرورة أنني لم أعرف كل المستشرقين ولم أقرأ كل ما كتبه من عرفت منهم • ولكن الصورة التي انطبعت أمامي مما قرأته من كتاباتهم كانت على هذا النحو الذي وصفته • وليطمئن القارئ الى أنني لا أرمى القول جزافاً فإنني سوف أضع بين يديه صوراً توضح تلك الجوانب من كتاباتهم فيألي القارئ الكريم تلك الصور تحت عناوين مستوحاة من بحوثهم وكتاباتهم •

١ - الروح الاستعمارية المتمكنة :

إذا أخذت مثلاً كتاب « ماضى شمال أفريقيا » تأليف الأستاذ إميل فليكس جونييه وترجمة الأستاذ هاشم الحسيني نشر الفرجاني فإنك بمجرد ما تبدأ قراءة مقدمة الكتاب تحس كأنك تقرأ تقريراً لأحد خبراء الاستعمار الفرنسى عن المغرب • فهو من جانب يحاول أن يدس الى أبناء المغرب ما يقنعهم بفقر المغرب واحتياجه وعدم تماسكه • وهو من جانب آخر يثير حماس الاستعمار حين يثبىد بفضل ما قام به الرومان في القديم والفرنسيون في الحديث من جهود مثمرة لازدهاره أو هو بذلك يريد أن يؤكد على نقطتين مختلفتين :

الأولى : إشعار أبناء المغرب أن بلادهم فقيرة ومحتاجة وغير متماسكة ولا يمكن أن تقوم إلا على يد استعمارية خارجية تسفدها والدليل على ذلك أنها لم تزدهر إلا على يد الاستعمار الرومانى في القديم والاستعمار الفرنسى في الحديث •

الثانية : إن استعمار الغرب للشرق حق من حقوقه يجب أن يحرص عليه وقد كان المغرب يزود الرومان بكثير من الغلال ويجب أن يستمر هذا الوضع أبداً بأن تكون بلاد المشرق مصدراً للغلال ومتنفساً اقتصادياً للمغرب .

يقول الأستاذ جوتييه في كتابه السابق ابتداء من ص ٩ ما يلي :

« كل شيء يتبدل على حين غرة اللغة والدين والمفاهيم السياسية والاجتماعية . إنه تاريخ شديد التقطع الى أجزاء منفصلة بعضها عن بعض ، ففى أوروبا تطور متكامل حسب خط متصل ، أما المغرب فسلسلة من التبدلات المفاجئة » .

ويقول بعد أسطر :

« ومن الثابت أن رقعة المغرب القابلة للسكن والحراثة لها إمكانيات ضئيلة . إنها شريط بمحاذاة المتوسط والمحيط طوله ٣٠٠٠ كيلومتر . وعرضه ١٥٠ كم وبسبب طبيعته هذه لم يتخذ شكلا مستمرا » .

ويقول بعد أسطر :

« أما في المغرب فالوحدة سهلة التحقيق ، لكنها سهلة الزوال أيضا . ودولة المغرب كالعطور في الليل وتذبل في الصباح .

ويقول بعد أسطر :

« لمجموع مناطق المياه الراكدة في هذه البلاد عبارة عن شطوط جرداء لامعة زاخرة بالملح » .

ويقول بعد أسطر •

« وحيثما سرت في الطرق والمنعطفات تشاهد مواقع الملح » •

ويقول بعد أسطر :

« حتى في الأرض القابلة للزراعة في الجزائر لا تجد الرطوبة الكافية للخصوبة • فتربة المغرب كلّسية بفعل التبخر » •

ويقول بعد أسطر :

«كانت روما زمن الأباطرة تؤمن لشعبها القوت عن طريق فرض الضرائب وكانت إفريقيا تدفع في الواقع مايطعم ٣٥٠٠٠٠ نسمة • في هذه الجهة يمكن اعتبارها إهداء لروما • ولا ينفى ذلك وجود أساليب جديدة لتحسين الري ولا سيما وأن هناك نوعاً من الزراعة خاصة ببلاد الملح ، لكنها طرق شاقة ، والمغرب ليس أرضاً شديدة الخصوبة • ولا هو البلد الصالح لتربية الماشية • فليس الثيران المغربية أضخم جثة من حمير أوروبا • وتربية الماشية تحتاج لتأمين السبل اللازمة للحصول على قوتها في سنوات الجفاف المريعة •

كذلك ليس المغرب بلاد صناعة • فوديانه ليست مخازن احتياطية للمياه • والأرض تفتقر للفحم الحجري والليثيث • ومنجم الفحم الوحيد المستغل حالياً هو منجم كيناسنا وليس مهماً جداً • أما منجم جرادة فيبدو أكثر أهمية ، لكنه لم يستغل بعد ، والنفط لم يتفجر حتى الآن • ولم يعثر الجيولوجيون في تربة المغرب على الفحم المتحول من أشجار الغابات ،

وإنما عثروا على الملح والجبس • ولكن لعنة بلاد الملح قد حلت به منذ
أقدم العصور » •

ويقول بعد أسطر :

« ولا نعلم بهذا أن الشمال الإفريقي يشكوا الفقر المدقع • فقد
عرفت الجزائر حقبة من الإزدهار الكبير » •

ويقول بعد أسطر :

« كان ذلك في العصر الفرنسي » •

ويقول بعد أسطر :

«وأما الجزائر الرومانية فكانت كما يقول علماء الآثار مدينة
بازهارها لزراعة الزيتون ، وقد عثر على آثار في إيطاليا تثبت قدوم
الزيت من شمال إفريقيا » •

« ويردد الناس عبارة أطلقها أحد المؤرخين المسلمين حول ازدهار
إفريقيا في عهد الرومان : — كل البلاد من طرابلس حتى طنجة ،
كانت إطار واحدا وسلسلة متواصلة من القرى — وتدل العبارة على أن
السفر بين طرابلس وطنجة يجري في الظل » •

ويقول :

فنحن نعلم أن الفسواكة من زيتون وتين وعنب سبباً من أسباب
ازدهار إيطاليا الوسطى وبلاد البحر الأبيض المتوسط إذ تلزمها أسواق
خارجية مفتحة • لذلك فالازدهار يمكن اصطناعاً الى حد ما لأنه منوط
بظروف سياسية معقدة •

ويقول :

« فالصناعة تحتاج الى زبائن فى الخارج ، ومن حسن حظ الشمالى الإفريقى توفر الفوسفات فيه بحيث أصبح مركزاً لتصدير هذا المعدن الى أرجاء المعمورة ، وفيه أيضا الحديد بكميات كبيرة وكذلك التوتياء والرصاص • ولم يجر التنقيب عن هذه المعادن منذ الإمبراطورية الرومانية وحتى الاحتلال الفرنسى • ولم يكن بالإمكان تصنيع المعادن فى البلاد نفسها • لهذا كنا نرى فى الموانى الجزائرية أنواع المعادن تصدر الى جانب البضائع الأخرى • فيوضع الرصاص ، والتوتياء فى أكياس أما الحديد والفوسفات فتجمع أكواما تنتظر السفر الى الخارج » •

ويقول :

« وإذا كانت فرنسا بلدا متكاملا يكفى ذاته على حد قول فيدال دى لا بلاشى • فالمغرب على العكس من ذلك » •

ويقول :

« والواقع أن هذا الشريط الذى يبلغ طوله ٣٠٠٠ كيلو متر يمتد من الشرق الى الغرب ضمن خطوط عرض وطول متشابهة ، فحيث ما نذهب نجد السماء نفسها ، والتربة عينها ، فما من بلد أقل تنوعا وتجانسا • وجفاف المناخ لا يسمح لتحقيق الازدهار محليا » •

ففى بلاد واسعة كالمغرب تتمتع بإمكانيات طبيعية كبيرة من حيث المعادن والصوف والزيت والنبىذ • لا تسهل الاستفادة من الثروة ، إذ يحتاج الأمر الى التنظيم ، وتوظيف الرساميل ، وتوسيع الإنتاج ،

وتأمين التصدير ، فالمغرب بحكم مناخه لا يكفي نفسه اقتصاديا ويحتاج ،
• للتعاون مع الغير »

« نقلت للقارئ الكريم أكثر ما في مقدمة الكتاب حتى تكون لديه
الصورة التي أردت عرضها واضحة ، وأستطيع أن أخصها له كما يلي :
المستشرق جوتييه في مقدمته لهذا الكتاب صور المغرب الذي يمتد مسافة
٣٠٠٠ كيلو متر بأنه منطقة فقيرة جرداء تلاحقها لعنة الملح لا يمكن أن
يكتفى نفسه اقتصاديا وذكر في بعض الأحيان أن المغرب خال من الثروة
فتربته كلسية ، ومياهه ملحة ، والمعادن به مفقودة ، وما وجد به لم
يستغل • والنفط لم ينفجر فيه • وهو غير صالح لتربية الماشية • وثوره
ليس أضخم من الحمار الأوروبى ، وهو ليس بلادا صناعية ووديانة
ليست مخازن احتياطية للماء •

« ومع هذه الصورة القائمة التي توضع للمغرب نندس فكرة
استعمارية توحى بأن هذا المغرب قد ازدهر قديما حتى استطاع أن يعم
الشاطئ الشمالى للبحر الأبيض المتوسط وذلك عندما كان تحت رعاية
الرومان ، وأنه ازدهر حديثا وهو تحت الاستعمار الفرنسى • وفى
الإمكان أن يستمر مزدهرا إذا وجد التنظيم ، وتوظيف الرساميل ، وتوسيع
الإنتاج • وتأمين التصدير • ويشير جوتييه بمبارة واضحة الى أن المغاربة
لا يستطيعون أن يقوموا بذلك وإنما يحتاجون الى معاونة الغير فيقول :
« فالمغرب بحكم مناخه لا يكفي نفسه اقتصاديا ويحتاج للتعاون مع
الغير » •

ومعنى هذا أن على أبناء المغرب — إذا أرادوا الازدهار لمغربهم —

أن يعتمدوا في ذلك على الاستعمار الفرنسي الذي أشار إليه جوتييه بكلمة « مع الغير » والذي يرشحه لأن يقوم في الوقت الحاضر بدور الرومان في العصور الخالية ومن الغريب أنه ساغ في منطق جوتييه وهو يرسم للمغرب تلك الصورة البائسة أن يذكر في نفس المقدمة أن الزيت المغربي كان يصل الى إيطاليا وأن الرومان كانوا يؤقتون منه قنوت ٣٥٠.٠٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فالمغرب فقير ، ولا يكفى نفسه اقتصاديا ، ويتكالب عليه الاستعمار الغربي من العهد الروماني الى العهد الفرنسي محبة في سواد عيونه ، وتضحية من أجل الله والإنسانية أنه منطق الاستعمار على أقلام جنود الإستعمار ولو حملوا أشعار الدراسة والعلم .

ولعل مما ينبعث على الضحك هذه العبارة التي جاء بها جوتييه تعزية لنفسه وتخفيفا للحسرة التي يحس بها لو استغنى المغرب عن خدمات فرنسا قال :

«وإذا كانت فرنسا بادا متكاملا يكفى ذاته على حد قوله فبدال دى لا بلاش فالمغرب على العكس من ذلك » .

يكاد القارئ يحس بدموع الكاتب تتساقط من عينه حسرة وأسفا وهو يتصور هذا الموقف الذي يستغل فيه المغرب عن فرنسا ولم يجد موقفا يقفه غير موقف وكيل لثيم غنى بلغ رشده ويستعد لتسلم أمواله فيقف وهو يتظاهر بما ليس فيه قائل لليتيم البالغ . يانكر الجميل قد نسيت لكل ما قدمت لك من خدمات ولكن لا بأس فأنا لا يقتلنى الجوع

ولكنك أنت سوف تضيع ثروتك وتصبح بعد رعايتي وعنايتي مشردا
معدما • ثم ينهمر بالدموع •

٢ — زعزعة الثقة بالمصادر الإسلامية :

قد لا يدعونى الموقف فى هذه النقطة الى التطبيق وإنما يكفى أن
أعرض على القارىء الكريم مقتطفات مما يقوله بعض المستشرقين فى
هذا الصدد فيتضح ما يبيتون • والى القارىء الكريم نماذج من ذلك •
من كتاب ماضى شمال إفريقيا :

« وإن نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد
صعوبة فى فهم الأمور ، ذلك لأن الدراسات الشرقية تقسم ببعض
الانغلاق على الرأى العام » ص ٤٧ •

« فى طبيعة العقل الشرقى القديم عدم تمييزه بين الأسطورة
والواقع وقد اصطدم الغربيون كثيراً بهذه الحقيقة ، حيث كانوا يتكبدون
الكثير من المشاق للحصول على أمر مهم سمعوا عنه ، وسرعان ما يفتاجون
بأنه مجرد أسطورة ٢٢٩ ص ٦٩ •

« فالعربى شأن البربرى لم يكن يعنى بالتاريخ ولم يستيقظ
الفضول العلمى فى الإسلام إلا فى مرحلة متأخرة مع العباسيين ، وتسرب
الأفكار الداخلية » • ص ٤٤ •

« لكن الصعوبة ليست هنا • إنما الصعوبة فى التسرب الى عقول

المؤرخين الذين يختلفون عن مؤرخى الغرب ، ويصعب علينا فهمهم »
ص ٤٨ *

« وليس لدينا نحن الأوروبيين أى حس دينى ، أما الشرقيون
فليس لديهم أى حس بالتاريخ . ولعل الحس الدينى والتاريخى يتعارضان
ص ٢٢ ص ٥٥ *

« ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشف هذه المبالغات لدى كبار
المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودى والبكرى وليس فقط مدى الأسماء
الصغيرة » ص ٧٠ *

(ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا واجبهم كاملا إذا
ذكروا أسماء الملوك ونسب حكمهم) ص ٧١ *

« كاتب لامع جدا هو ابن خلدون وآخرون مجهـولون تقريبا على
غرار مؤلف روض القرطاس ، غير أن لهم جميعا ذهنية شرقية بمعنى أن
مفاهيمهم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل » ص ٨٧ *

«عاش ابن خلدون فى القرن الرابع عشر فلا بد من تأثره بالمؤرخين
القدماء ، وأسطورة أفريقيوس تناقلتها الأجيال بين مؤرخ وآخر حسب
المفهوم العربى التقليدى للتاريخ » ص ٩٨ *

« إن عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش »
ص ١٠٠ *

« أو ليس فى الأرجح إذن أن يكون المؤرخون العرب قد فكروا

بحمير التي امتلأت أذهانهم بها ، وأغفلوا قرطاجة اليونانية التي لم يكتشفوا وجودها « قط ص ١٠٠ »

« وقد ذكر المؤرخون العرب المعروفون بمبالغاتهم خبر ابنة البطريق » ص ٧٥ »

« والواقع أنه لا يسهل علينا مع المؤرخين العرب أن نميز الحقيقة من الخيال » ص ١٧٥ »

« وليس ذلك بسبب الغموض والإبهام للذين اكتنفا كتاب المؤرخين العرب عن العلاقات العربية البربرية » ص ١٧٨ »

« وقد تكون القصة منحولة لكن العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربي من الأمور السارة » ص ٢٢٠ ص ١٨٧ »

« ولا يذكر المؤرخون العرب بجفافهم المعتاد وعدم اهتمام بتحليل الأسباب عن ذلك الشيء الكثير » ص ٢٢٠ ص ١٨٩ »

« والغريب أن الكاهنة قد ألهمت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عادتهم في الكتابه » ص ٢٢٠ ص ١٩٢ »

« خبرات بعض المؤرخين والفلاسفة والأطباء في العصر الإسلامي وخصوصا من كتب منهم باللغة العربية يزيدونها أيضا في هذا الباب »
إلا أن أقوالهم يجب أن تؤخذ بحذر لأنها مفعمة بالأخطاء التاريخية والخلط بين المسائل » هذه الفقرة للمسنشرق ماكس ماير هوف —
النزات اليوناني ص ٣٨ وبالرجوع الى هذه الفقرات التي نقلتها في أقرب

المصادر التي وقعت عليها يدي نجد أن الصورة التي يراد أن تنطبق في ذهن القارئ عن المصادر التاريخية الشرقية عامة والمصادر العربية خاصة هي ما يلي :

- ١ — الدراسات الشرقية تنقسم بالانغلاق على الرأي العام •
- ٢ — العقل الشرقي لا يميز بين الأسطورة والواقع •
- ٣ — العربي كالبربري لم يكن يعنى بالتاريخ والفضول العلمي في الشرق الإسلامي انما نتج عن تسرب الأفكار الداخلية •
- ٤ — المؤرخون الشرقيون ليس لديهم حس بالتاريخ وإنما يكتبون عن إحساس ديني •
- ٥ — يظن المؤرخون العرب أنهم أدوا واجبهم إذا كتبوا عن الملوك وسنى حكمهم •
- ٦ — جميع المؤرخين العرب بما فيهم ابن خلدون لهم ذهنية شرقية ، ومفاهيم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل •
- ٧ — المؤرخون العرب ينقلون أساطير التاريخ بمفهوم عربي تقليدي •
- ٨ — عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش •
- ٩ — المؤرخون العرب معروفون بمبالغاتهم •
- ١٠ — لا يسهل تمييز الحقيقة مع المؤرخين العرب •
- ١١ — كتابات المؤرخين العرب تتميز بالغموض والإبهام •

١٢ - العثور على حيوية عند مؤرخ غربي أمر سار لأنه أمر نادر .

١٣ - يتصف مؤرخو العرب بالجفاف وعدم الاهتمام بتحليل
الأسباب .

١٤ - المؤرخون والفلاسفة والأطباء في العصر الإسلامي وإن
أعطوا صورة واضحة إلا أنه يجب أن تؤخذ أقوالهم بحذر لأنها مفعمة
بالأخطاء والخلط . هذه كما يرى القارئ الكريم بعض الحقن التي يدسها
المستشرقون في ثنايا أبحاثهم العلمية . وخدمتم للثقافة الإنسانية . وقد
اخترنا منها تلك الحقن الظاهرة الواضحة التي يدركها كل قارئ ، ويحس
بها كل من يمر عليها ، ولا شك أن في أثناء كتاباتهم في الآراء والأفكار ما هو
أخطر مما ذكرناه ، وأكثر خفاء ، وأسرع تسرياً إلى أذهان القراء
لا سيما القراء العاديين والقراء الذين يقبلون على كل جديد ويهشون
له .

إن القارئ العادي والباحث المتعطش - وهو يبحث عن المعارف -
تمر به تلك الحقن هيينة لينة ناعمة في بادئ الأمر ، ثم صريحة واضحة
لابسة ثوب الحقيقة العلمية .

عندما يظن الكاتب المستشرق أنه قد استمال القارئ الشرقي إليه .
وجذب انتباهه ، يضرب بعد ذلك ضربته ليحطم إذا ما اعتقد أن قارئه قد
مر بالمراحل المطلوبة واستوعبها وهي : التشكك أولاً ثم النقد الموجه
ثانياً ، ثم الإزدراء والاحتقار والإهمال والتحول ثالثاً . ثم السير في
المنهج الذي يريده المستشرق الخبير أخيراً .

ويستطيع القارئ الكريم أن يتعرف على هذه الخطوات بسهولة عند المراجعة في أكثر كتب المستشرقين ، من الفقرات السابقة نستطيع أن نأخذ الأمثلة الآتية :

أ - خطوة التشكك : « وان نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد صعوبة في فهم الأمور » • « من طبيعة العقل الشرقى القديم عدم التمييز بين الأسطورة والواقع » •

ب - مرحلة النقد الموجه : « ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشفت هذه المبالغات لدى كبار المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودي والبكري وليس فقط لدى الأسماء الصغيرة » • « ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا واجبهم كاملاً إذا ذكروا أسماء الملوك وسنى حكمهم » •

ج - مرحلة الأزدراء والاحتقار « قد تكون القصة منحولة لكن العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربى من الأمور السارة » ولا يذكر المؤرخون العرب - بجفافهم المعتاد وعدم اهتمامهم بتحليل الأسباب عن ذلك - الشيء الكثير • « والغريب أن الكاهنة قد ألهمت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عاداتهم في الكتابة » •

٢ - السير في المنهج : عندما تتم المراحل السابقة كما خطط لها فإن القارئ الكريم يكون قد استوعب منهج المستشرق واتخذ أسلوبه في البحث ومعالجة قضايا الشرق وأعنى أنه يصبح مستشرقاً آخر أو بتعبير أصح مستغرباً لأنه يعالج قضايا وطنه ومجتمعه ودينه وثقافته وحضارته بالمنظار الذى يراها به مستشرق جنديته عوامل خاصة لذلك العمل ، وذلك

يستطيع المستشرق أن يطوى خيمته ويأخذ عصاه ثم يرحل وهو مطمئن إلى أن جهوده في خدمة الاستعمار لم تذهب عبثاً .

٣ - التشكيك في الإسلام :

لعل التشكيك في الإسلام - وتصويره بأنه حركة بشرية كان الدافع إليها ما كان عليه العرب من الحرمان في الجزيرة الفاصلة وأنه لم يقدم شيئاً للإنسانية وأن ما فيه من خير إنما هو مأخوذ من الحضارات السابقة وأنه تبعاً لما يتصف به أهله من بداءة وجفاف كان يحارب العلم والفلسفة - كان من أهم الأسلحة التي يستعملها المستشرقون في محاربة الإسلام ولعل المعانى السابقة وما شابها كانت من أخطر الحقن التي يدهسها المستشرقون في كتاباتهم بأساليبهم المختلفة تارة في دقة وخفاء ، وتارة في علنية واستظهار يبلغ حد الرقاحة والتهجم . وهم في كل ذلك يتظاهرون بالبراءة والطيبة وخدمة العلم والإنسانية .

وإلى القارئ الكريم أمثلة من ذلك :

« أما المسلم الصالح فعليه أن يتجنب هذه العلوم أشد التجنب باعتبارها خطراً على الدين ، ومن ثم لذل للناس القول بأن النبي ﷺ إنما عنى هذه العلوم حين سأل ربه أن يعيذه من (علم لا ينفع) جولد شهير التراث اليوناني ص ١٢٦ .

« بينما الإسلام الرسمي قد حارب الغنوص نظرياً فحسب ، لكنه في الواقع وعملياً سمح له بالتطفل والنفوذ إلى معتقدات الجمهور » .
كارل هينرش بكر - التراث اليوناني ص ١٢ .

« أما أولياء الله في الإسلام ففى مقابل الأرواح القدسية في الهيلينية حتى أن محمداً — ﷺ — وهو نموذجهم الأعلى ينتهى بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل • وأن يكون الرحيم المخلص القدير » •

كارل هينرش بكر • المصدر السابق :

« وكان الى جانبها تيار دينى شعبى عبارة عن طائفة من السحر والنانرجيات الهيلينية • النظرية والعملية • فالسحر والتنجيم وضرب الرمل ، والرؤيا والإعداد » وفوائد الحب ، والتمائم من كل نوع • هذه الأشياء أصبحت عربية إسلامية » • كارل بكر نفس المصدر السابق « واليهوم نرى هذا النوع من السحر الإسلامى يسير طبيعة للإسلام غازيا بلاد الزنوج الوثنية التى لا تؤمن بالإسلام الرسمى إلا بعد ذلك بزمن طويل غالباً » • بكر نفس المصدر السابق •

« والإسلام نفسه لم يكن شيئاً غير استمرار الهيلينية شهر آسيوية شيئاً فشيئاً » بكر نفس المصدر •

« إلا أنه لما كان قد نظر الى الإسلام عاى أنه شىء جديد كل الجدة ، وحسب من جهة أخرى أن الدين والحضرة شىء واحد فقد نشأت أسطورة حضارة العرب ، تلك الأسطورة التى أثقت غشاء عاى عيون المؤرخين فحالت بينهم وبين رؤية هذه الحقيقة الناصعة • وهى أن الحضارة القديمة قد ظل حاملوها هم حاملوها الأصليين ، واستمر مسرحها هو مسرحها ذلك أن الإسلام كان هو الأجنبى الغريب الذى أراد أن يغزو العالم القديم المتأخر ، ولكنه خضع فيما بعد لما كان عليه هذا العالم القديم من تفوق وسمو » • بكر نفس المصدر السابق •

« ثم إن القانون الرومانى رتب ونظم قبل قيام النبى - صلى الله عليه وسلم - بدعوته بزمن قليل ، وأثره من بعد فى الشريعة الإسلامية واضح فى كل مسألة ، حتى أنه ليكاد يكون لكل مبدأ من مبادئها ما يناظره فى القانون الرومانى » • كارل بكر المصدر السابق •

« وإذا ما بحثنا حضارات البلدان التى فتحتها العرب استطعنا أن نصكم بسهولة بأن كل شىء بقى فى الإسلام كما كان على عهد القديم لم يصف إليه جديد ، سواء فى ميادين السياسة ، أو فن الحرب والاقتصاد والعلم والفنون والصناعات » • كارل بكر نفس المصدر السابق « أما نهضة الشرق التى نشهدها فى الوقت الحاضر فمرتبطة لا بتراث الأوائل وإنما بأوروبا الحديثة » • كارل بكر المصدر السابق • ومما جاء فى كتاب (الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى) تأليف الأستاذ الفرد بل ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ما يلى :

« وهذه الثروة الزراعية فى البلاد لم تكن انحدارا ضئيلا بالنسبة الى : صحراء انجزيرة العربية » صفحة ٧٧ •

« عرب الفتح الأول كانوا جيوشا حقيقية مؤلفة من المحاربين العرب • صحيح أن غالبيتهم كانوا من البدو الفقراء فى جزيرة العرب ، وكانوا طامعين فى النهب ، لكن زعماءهم كانوا من أهل المدن » • نفس المصدر ٢١٣ •

« ولم يكن القواد ولا المحاربون الجدد قد قدموا إلى هناك على نية عدم العودة إلى مواطنهم الأصلية التى تركوا فيها نساءهم وأولادهم ، فبعد مدة معينة كان الكثير منهم يعودون إلى ديارهم الأولى

مثرين غالبا من الغنائم التي كانت من نصيبهم » • المصدر السابق
• ٣١٣

« إن هجرة العرب من صحرائهم في القرن السابع الميلادي لم تكن
حدثا جديدا بل هي حلقة من حلقات الهجرات الكبيرة للشعوب • تلك
الهجرات التي تتجلى منذ فجر التاريخ » • المصدر السابق ٧٨ •

« لقد جمع تحت سلطان واحد قوى هو سلطان النبي محمد ﷺ أولا ثم
سلطان الخلفاء من بعده أولئك العرب المتعششون إلى حياة مادية أقل
شظفا من تلك التي تهيئها لهم الصحراء » • المصدر السابق ٧٨ •

« وجنود الفتوح الإسلامية أولئك العرب القادمون من قبائل بدوية
رحل في الجزيرة العربية لم يكونوا شديدي الغيرة الدينية والتقوى
الإسلامية » • نفس المصدر ٧٨ •

« ولهذا ينبغي ألا نرى في جيوش الفتوحات الإسلامية الأولى
وفي جحافل البدو المنطلقة من الجزيرة العربية بقيادة زعمائها وأغلب هؤلاء
الزعماء من السكن الحضر في المدينة ومكة — أقول ينبغي ألا نرى فيهم
جيوشا من المتعصبين المستضيئين بالإيمان والمستعدين للموت في سبيل نشر
الدين الجديد » • المصدر السابق ٧٩ •

ولم تعد صورة جيوش صدر الإسلام • وهي تغدو دفوعة بحماسة
بالغة ، وبإحدى اليدين السيف ، وباليد الأخرى القرآن ، لتخضع
الشعوب للدين الجديد ، فقول إن هذه الصورة لم تعد مقبولة ، وليست
إلا من خيال الشعراء » • المصدر السابق ٧٩ •

« فخلال التاريخ يبدو لنا البدو بمظهر قلة التقوى وبالعجز
تقريبا عن الارتفاع الى عقيدة التوحيد » • نفس المصدر ٧٩ •

« إن البدو مولعون بالنهب والسلب ، مولعون أيضا باراقة الدماء
لكنهم لا يرضون بأن يقتلوا — أى لا يستعذبون الموت » • المصدر
السابق ٧٩ •

« ومن المؤكد قطعا أنه وجد بين قادة الحرب في الفتوح الإسلامية
مؤمنون مخلصون ، وجنود لله ورسوله صادقون ، مثل القائد
الشهير عقبة بن نافع الفهري ، مؤسس القيروان ، وأصله من مكة ، لكن
يبدو أن عددهم في الغزوات الأولى لم يكن كبيرا ، وفي مقابل ذلك لم يكن
الطمع في الثراء غريبا عن تفكير الكثير من الجنود المجاهدين ، ويمكن أن
نسوق أرقاما عن الثروات الطائلة التي ظفر بها غنائم في الحرب ، مسلمون
أتقياء مؤمنون صادقون وقد أورد اغناطيوس جولدتسيهر أسماء عدة
منهم ابتغاء إثبات أن الزهد الديني كان صفة نادرة عند الغزاة الأولين »
المصدر السابق ص ٨٠ •

« ويكفى أن نذكر هنا على سبيل المثال من بين الصحابة الذين بشرهم
النبي ﷺ بالجنة لتقواهم وإيمانهم ، الزبير بن العوام ، وطلحة بن
عبيد الله ، وكلاهما توفى عن عدة ملايين » • المصدر السابق ٨٠ •

« وليس من شك في أن الثروات المضخمة التي جمعها المحاربون
المجاهدون في غزواتهم الأولى في الشام ومصر والعراق قد حملت كثيرا من
الأعراب على الاشتراك في الجهاد واعتناق الإسلام ، ومن السهل أن

نفهم كيف كان الجهاد مغريا للبدو الجياع الذين كانوا يعيشون عيشة حرمان وعدم استقرار» • المصدر السابق ٨٠ •

« تلك هي الأسباب العميقة والصادقة التي دفعت بقبائل العرب الى الانقراض على العالم القديم الرومى أو الفارسى فى منتصف القرن السابع الميلادى • فالحاجة المادية والطمع — كما يقول جولد تسيهر — « العقيدة والشريعة فى الإسلام (ترجمة فرنسية « ١١٣) أوجدا هؤلاء الجنود والغزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا » المصدر السابق ص ٨٢ •

« وبالنسبة إلى البعض كان الجهاد مغنا على أى حال : فإن كتب له الحياة عاد مثقلا بالغنائم ، وإن كتب له الموت فى الجهاد تخلص أولا من حياة الحرمان والشظف القياسية فى الصحراء العربية ، وثانيا إن كان من المؤمنين المخلصين كان الاستشهاد سبيله إلى حياة النعيم فى الآخرة » المصدر السابق ص ٨٢ •

« ومهما يكن من شىء فإن الحماسة لنشر الدعوة والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله لم تكونا بالنسبة إلى الغالبية ثلعبان غير دور ثانوى فى الغزوات الأولى للإسلام » المصدر السابق ص ٨٢ •

ومما جاء فى كتاب ماضى شمال إفريقيا تأليف إميل فيليكس جوتيه ترجمة هاشم الحسينى نشر الفرغانى ما يلى :

« إنها الهوة الفاصلة بين نهاية الإمبراطورية الرومانية والعصور

الحديثة ففي هذه الفترة نرى المغرب يغرد خارج سربه ، وكأنه فوق كرة أرضية أخرى — أرض المسلمين « نفس المصدر ص ٧٥ •

« ماذا حل بعلوم فارس التي أتلها عمر بعد الفتح العربى ، وكذلك بعلوم الكلدانيين والآشوريين والبابليين والأقباط والإغريق « نفس المصدر السابق ص ٧٧ •

« وابن خلدون مؤمن بأن جميع الوثائق التي تعود إلى ما قبل الإسلام بعيدة عن مناله ، وأنها أتلقت وضاعت إلى الأبد « بالمصدر السابق ص ٧٧ •

« فلا شئ فى الشرق يفهم بمعزل عن الدين ، وقد وصف ابن خلدون انتشار الإسلام وانحصاره وكأنه إمبراطورية عسكرية « المصدر السابق ص ٧٨ •

« وهكذا نرى أن أوصاف الدولة الشرقية تنطبق على ملاحظات ابن خلدون ، فهي ملكية تستمد أسسها من الدين ، وتهدم الثقافة بمرور الزمن « • المصدر السابق ص ٨٥ •

« إن قرطاجة القديمة قد ساهمت فى إعداد البربر لاعتماد الديانة الإسلامية « • المصدر السابق ص ١٠١ •

« وفى زحمة الغزوات والانتصارات والهزائم والمجازر التي تميز بها الفتح العربى فى المغرب ، تتبادر إلى أذهاننا واقعة واضحة : جميع المعارك كانت باتجاه طنجة وتيارات (تيهرت) وحول الأوراس المصدر السابق ص ١٠٤ •

« وحين نرى أن المغرب المسلم يتفوق على جيرانه الأسبان والصقليين
والمصريين ، فلا يغرب عن بالنا أبداً أن جهودهم قد عبثت منذ العهد
الروماني » • المصدر السابق ص ١٢٧ •

« ولكن ما الذي جعل المسيحية تنهار في الشمال الإفريقي ، إن أعظم
هدية قدمتها روما للمغرب إنما هي إدخال الجمل إليه ، والجمل هو
الذي أسهم في انهيار دولة الروم » المصدر السابق ص ١٢٧ •

« إذن كيف للبدو الرحل أن يحملوا ظاهرة حضارية إلى البلدان
الأخرى ؟ أو لم يقل فيهم ابن خلدون الذي يحبهم أنهم يهدمون بيوتا
بكامله ليستخرجوا حجرا لموقدهم • كما يرى رينان من جهته أن الساميين
يرفضون فكرة الدولة » • المصدر السابق ص ١٤١ •

« وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين ، وصقاية وبلاد
الأندلس تحت الحكم العربي رغم بداوتهم ، وكذلك كيف لهم - وهم
الرحل - أن يأتوا إلى بلاد المغرب بحيوان مفيد كالجمل فلو فعلت روما
ذلك لما بدأ الأمر مستغربا نظرا لطبيعة الاستقرار التي تميز شعبها »
المصدر السابق ص ١٤١ •

هذه مقتطفات يسيرة نقلتها عن بعض كتابات المستشرقين التي كانت
تحت يدي حين كتابة هذا الفصل ، وبالرجوع إليها يتضح للقارئ
الكريم أن المستشرقين كانوا حريصين جدا على أن يشككوا في أن
الإسلام دين سماوي ، وهم يحاولون أن يؤكدوا للقارئ أنه امتداد
للهيلينية المسيحية ، أو الغنوصية ، وأنه استفاد من القانون الروماني
استفادة كاملة حتى أنه لا تخلو مسألة من مسائل الإسلام من آثار

القانون الرومانى ثم هم يحاولون أن يصوروه فى موقف من الحرب العنيفة مع العلم ، وأنه قضى على آثار علم الأوائى ، وأحرق المكتبات • ومنع أتباعه من التخلل فى العلوم العقلية •

وفوق كل ذلك فقد حرصوا كل الحرص أن يصوروا الفاتحين المسلمين الأول ، بأنهم إنما حملهم على الفتح ما هم فيه من فقر وحاجة وشظف عيش • وأن الفتوح عندهم هى وسائل غنيمة وإثراء فقط • وقد بالغ بعضهم فى تصوير هذا حتى بلغ حد السخف والوقاحة •

راجع إن شئت الفقرة التى اشترك فيها المستشرقان تسيهرويل « فالحاجة المادية والطمع أوجدا هؤلاء الجنود والغزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا » •

أما المستشرق جوتيه فقد بلغ به الحنق على العرب إلى حد أنه صوابه حتى أنه حاول أن ينكر عن العرب — لأنهم بدو فى نظره — شيئاً يرتبط بالبدو طبيعة وبداهة • وعد إن شئت إلى إحدى الفقرات السابقة لتقرأ فيها ما يلى : « كيف لهم — وهم الرحل — أن يأتوا إلى المغرب بحيوان مفيد كالجمل ، لو فعلت روما ذلك لما بدا مستغرباً » هذا كلام جوتيه وهو يرى أن العرب — وهم بدو — ليست من حقهم أن ييسوقوا الجمل لأنه حيوان مفيد وكان يجب عليهم أن يتركوا ذلك لروما ، ولعل شدة الحقد والتنكر والتشكيك تبدو واضحة فيما يلى :

« وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين وصقلية وبلاد الأندلس تحت الحكم العربى رغم بداوتهم ؟

إن المستشرقين يريدون أن يزرعوا في ذهن القارئ أن الدين الإسلامي دين بشري من وضع العرب ، وأن هؤلاء العرب عبارة عن مجموعات من العدو يسيطر عليها الجوع والحرمان في بلادهم فانطلقت غازية تبخث عن الدنيا • وأن الأمة الإسلامية على العموم والعربية على الخصوص لم تقدم - في الواقع - للإنسانية شيئاً وما قام تحت حكمها من مظاهر الحضارة كان معبأً من الحضارات السابقة • وحتى اعتناق البربر للإسلام لم يكن اقتناعاً به ولا محبة فيه وإنما كان نتيجة لروح قرطاجة المتغلطة فيهم » إن قرطاجة القديمة قد ساهمت في إعداد البربر للديانة الإسلامية « • هكذا يقول جوتييه •

إن وضوح السموم المدسوسة في ثنايا هذه الكتابات لا تحتاج إلى الكشف والإظهار •

٤ - وضع المرأة :

ربما كانت المرأة من أهم القوى التي استعملها الغرب في مصاربة الشرق • فإن الصليبية بعد فشلها عن مواجهة الإسلام بقوة السلاح راجعت أساليبها ، وتحققت أنها لن تنتصر انتصاراً حقيقياً كاملاً على المسلمين في معارك الحرب والقتال • فبدأت تغزوهم بوسائل أخرى في هدوء وأناة • ومن تلك الوسائل استغلال المرأة •

كانت وسيلة الغرب في استغلال المرأة تتخذ اتجاهين •

الاتجاه الأول :

هو تقديم المرأة الغربية نفسها لتتولى تحطيم الحصانة الخلقية (م ١٥ - الاباضية)

والدينية من المجتمع الشرقى ، والقضاء بوسائل المرأة الفردية على مقاومة الرجولة عند ذوى النفوذ والتأثير . سواء كان ذلك فى أفواج سيدات البلاطات والمجتمعات الراقية اللائى يقدمن تحت اسم التقدم الحضارى والمجتمع الراقى الى ذوى النفوذ والسلطات والمال فتسلطن عليهم وأومن عزائمهم بشغلهم فى مجال عاطفى بعيد عن اليقظة والتفكير والحزم .

وكان ذلك فى أفواج الفئات وطالبات الهوى اللواتى اشتغلن بجد فى زرع الشهوة والمباذل بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة فشغلها بأنواع السكر والمخدرات والحشائش والفجور عن واقع الحياة . وقد نجحت امرأتهن — بما تحمل معها من مساعدات فى هذا المجال نجاحا عجزت عنه الجيوش والأساطيل .

الاتجاه الثانى :

يتعلق بالمرأة الشرقية نفسها ومحاولة إخراجها من قيمها وأخلاقها والتزاماتها لتلتحق بالمرأة الغربية فتساعدنا أو تتسلم منها الدور فتقوم به هى بدلا عن تلك الغربية التى يتوقعون أن ردود الفعل قد تبعدها فى يوم من الأيام وترحل عن المنطقه .

وقد نجحت فكرتهم هذه أيضا بعض النجاح ، وحاولت المرأة الشرقية والمسلمة أن تقوم بنفس الدور الذى قامت به تلك المرأة الدخيلة فنتزع فى حياة المجتمع الشهوة المعارية التى تشغل عن الكفاح المستمر المطلوب من أمة ذات رسالة . الواقع أن المرأة الشرقية ولا سيما المسلمة لا تزال فى مبدأ الطريق ، تتلمس خطاها — مترددة — فى حذر وإسفاق . ولكن المؤسف أن جميع الأيدى تدفعها بكل قوة الى النهاية المؤلمة .

والمستشرقون وهم يعرضون القضايا الإسلامية بأساليبهم المتسوية لا يغفلون موضوع المرأة بكثير من الوقاحة والتجنى والدس ، محاولين أن يسيئوا الى الشرق عموما والى الإسلام خصوصا ، عاملين بها في وسعهم من دهاء الاستعمار ومكره على جذب المرأة المسلمة إليهم وجعلها تعتقد أن الإسلام أساء إليها ، ولم يعطها حقها الإنساني تتمتع به كما تتمتع به المرأة الغربية • ليتمكن لهم أن يوجهوها — توجيهها غير مباشر — الى الاستمرار في أداء وظيفة المرأة الغربية في الشرق •

ولعل في بعض المقتطفات التي نعرضها فيما يلي تتعري أصابع المستشرقين الدساسة ، وتتضح نواياهم الكائدة •

يقول المستشرق الفرد بل في كتابه : (الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي) صفحة ٥١ ما يلي :

« ويمكن أن نفترض أي الزوجة الشرعية كانت كما لا تزال اليوم ملكا لزوجها • اشتراها من أهلها ، مقابل سعر يتفق عليه ، والجارية المسرى بها يمكن أن تكون عن شراء مماثل ، أو عن سبى في حملة حربية مثلا • وحتى في الزواج بواحدة فإن مركز المرأة قلق » •

وبعد أسطر يقول :

« وإذا كان لهذا — أي الزوج — لا يسمح لزوجته بالزنا ، فالسبب في هذا أولا هو أنه لا يريد أن يمتزج دم أجنبي بدم أبنائه ، لأنه قوام الأسرة هو رابطة الدم ، وثانيا لأنه لما كانت الزوجة ملكا له اقتناه ، فإنه لا يسمح بأن يشركه في ملكه أحد غيره » •

وهذا التصور للزواج يؤدي الى نتيجتين رئيسيتين : الأولى هو أنه في عرف البربر - وكذلك الشريعة الإسلامية - يعد زنا الزوجة جريمة من جرائم القاتلون العام ، يعاقب مرتكبها بالموت • والنتيجة الثانية هي أن الزوج له وحده دون الزوجة حق تطليق امرأته حين يريد وكما يريد ، والزوجة لا تستطيع حتى طلب الطلاق مهما أساء الزوج معاملتها • والزوج الذي يطلق زوجته يمكنه أيضا أن يطالب باسترجاع ثمن الشراء من الأب ، أو الزوج الجديد » •

هذه الصورة التي عرضها هذا المستشرق هي إحدى الدسائس الاستعمارية المبنية على الكذب للكيد والتي يراد منها تضليل الشعوب المسلم عن واقعهم وتنفيرهم من دينهم واستجلاب سخطهم على الشريعة التي أنزلها الله لسعادتهم وسعادة البشرية من ورائهم لقد حاول المستشرق الماكر - وهو يتحدث عن تاريخ البربر القديم ثم يتسلك بسرفق الى تاريخهم الإسلامي ثم يتسلك برفق أيضا الى الشريعة الإسلامية - أن يضرب هذه الأمة المسلمة في المغرب ويضرب الشريعة الإسلامية معها بأقوى ما عنده •

والملاحظة اليسيرة التي أريد أن أقولها للقارئ في هذا الصدد أن للمستشرق أن يتحدث عن البربر وغير البربر قبل الإسلام بما شاء وشاء له الهوى فإن الحديث عن الجاهلية في جميع الشعوب لا تعنينا • وليس لدينا عنها صور صحيحة • أما أن يأتي الى الأمة المسلمة في الشرق والمغرب وينتجنى عليها وعلى الإسلام • فإن هذا الموقف يجب أن يكون له عليه حساب •

تصويره لعملية الزواج بأنها عملية بيع وشراء وأن المرأة تسلم فيه

للزوج مقابل ثمن يدفع للاب أو للزوج الأسبق من أرخص أنواع الكذب والافتراء عن البربر في العهد الإسلامي وعن الإسلام • وصاحب هذا الافتراء — سواء كان المستشرق أم أنه كان غيره ليس له حياء يعصمه ولا كرامة يحرص عليها والا أجاز لنفسه أن يكذب عن الإسلام والمسلمين هذه الكذبة البلقاء •

والنتائج التي توصل إليها فزعم أن في عرف البربر وفي الشريعة الإسلامية أن زنا الزوجة جريمة يعاقب عليها القانون بالموت • هو تحريف للحكم الشرعى • لأن البربر يعملون بالإسلام والإسلام يعتبر جريمة سواء صدرت من زوج أو زوجة أو من غيرهما أو قد قرر لهذه الجريمة عقوبة تختلف في بعض الأحوال فهم للمحصن — سواء كان ذكراً أو أنثى — الموت بطريقة الرجم وهي لغير المحصن الجلد وأحكام الشريعة تتساوى عند البربر والعرب والفرنسيين إن كان فيهم مسلمون والصورة — التي يقدمها هذا المستشرق بأن المرأة في الإسلام بضاعة تشتري بالثمن وأن الثمن الذى يدفعه الزوج يسترده إذا طلقها — وما يتبع هذه الصورة من خيالات وأوهام يراد بها إثارة المرأة المسلمة بالدرجة الأولى ثم تشويه سماحة الإسلام — هى ولا شك إحدى اندعايات الفاجرة التى حرص الاستعمار أن يضل بها عقول الشباب الذين لم يدرسوا الإسلام ولم يعرفوا حقيقة القواعد والأصول التى جعلها أسساً ودعائم لتكوين البيت والأسرة وأحسب أن هذه الصورة وحدها كافية لأن يعرف القارئ الكريم جهود المستشرق الفرد بل في خدمة الثقافة الإسلامية هذا الرجل الذى كان في خدمة إدارة الحماية الفرنسية منذ سنة ١٩١٤ والذى بقى يوالى جهوده في المغرب منتقلا بين عواصمه وقراه تكفل له الدولة جميع المساعدات ما يقارب ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ الى عام ١٩٤٢ أنه ولا شك واحد

من تلك الشخصيات التي كانت تعمل جهدها في تركيز الاستعمار وخدمة
العرب متمسرة بخدمة العلم والثقافة •

وهو ولا شك بهذه الإقامة الطويلة في مكان قد اكتسب سمعة واسعة
بين المستشرقين والمهتمين بمثل هذه القضايا وربما يعتبر قوله حجة
وشهادته لا ترد •

وقول المستشرق إميل فيلكس جوتيه في كتابه (ماضي شمال
إفريقيا) ترجمة هاشم الحسيني ما يلي :

« فقد تخلى — أي سبتيموس — عن جميع حسان بلاده ليقترن بامرأة
سورية » • ص ٩٣ ويقول :

« واحتفظ سبتيموس بجوليا على الرغم من فضائحها وتآمرها
عليه • وهذا إن دل على شيء فعلى عمق الصلة بين ذلك القرطاجي وتلك
الفينيقية » • ص ٩٣ ويقول :

« ثم إن كركولا تزوج على غرار أبيه من امرأة سورية من عائلة
جوليا أمه ، أراد بذلك أن يخلق لنفسه جواً عائلياً شرقياً ، حتى إن
مؤامرات الحریم كانت كما في الشرق • أو لم تدفع جوليا ابنها كركولا
لقتل أخيه جيتا ؟ صحيح أن هناك سابقة عند آغر بين أم نيرون • ولكن
مضى عليه مائة وأربعون عاماً ، ناهيك بأن قتل الأشقاء ، وماسى الحریم
في الممالك الشرقية من الحوادث العادية التي تراهق تغير المهود » • نفس
المصدر ٩٤ ويقول :

« إبنة البطريق جرجير التي سموها آمنة وقالوا إنها كانت من

نصيب واحد من الأنصار فوضعها هذا على ظهر جمل ، وسار بها وهو يردد : يا إينة جرجير ستسيرين مشيا على الأقدام ، ففى الحجاز تنتظرك سيدتك ، حيث ستحملين الماء فى القرب » •

المصدر السابق ص ١٧٥ ويقول :

« تمثل بنوع خاص وضع امرأة أورستقراطية مرفهة وقعت فى أيدى بدو رحل ، لقد كان من الذكاء بحيث أدركوا معنى المأساة ، ومن القوة بحيث أبوا إلا يستمتعوا بها » •

المصدر السابق ص ١٧٥ ويقول :

« وقضية العائلة ووضع المرأة أمران مهمان ولا ريب وما من هوة أعمق من هذه الهوة بين الشرق والغرب » • المصدر السابق ص ١٠٢ ويقول :

« ولم يذكر غيزل سوى امرأتين لم تكونا فى عداد الحريم » • المصدر السابق ١٠٢ ويقول :

وخليق بنا هنا الى أن نشير لنقطة مهمة تتعلق بموضوع المرأة الشرقية الذى لم يتفهمه الغربيون • فصحيح أنها تعيش منعزلة ، ولكنها تحافظ على وضعها كامرأة ، وقد تكون رغم جهلها أكثر اندفاعا عنفا وشدة من المرأة الأوروبية ، وكلنا سمع بمكائد الحريم » • المصدر السابق ١٠٢ هذا مستشرق آخر بدأ خدمته للاستعمار الغربى من جزيرة مدغشقر ثم التحق بالجزائر ، قد بذل جهودا مفضية لخدمة الاستعمار تحت ثوب البحوث العلمية •

وفي أثناء كتاباته عن الشرق عموماً وعن المسلمين خصوصاً يحاول أن يدس صوراً ماثوية ، أصولها مستقاة من كتب القصص كآلف ليلة وليلة وغيرها بينما يحاول أن يشكك - بما أوتى من جهد - في المصادر الحقيقية فهو - في موضوع المرأة - يركز على فكرة الحريم كما يتصورها الغربيون :

مجموعات كبيرة من النساء يجلسن في قصر واحد ليستمتع بهن رجل واحد • فهن يعيشن في عالم الضيق في كيد ومؤامرات للحصول على قلب ذلك الرجل • وهو يلج في إعادة هذه الصورة الى الأذهان بل إنه يستشهد بنيزل الذي لم يذكر سوى امرأتين اثنتين ليستسا من الحريم • ولا شك أن تجمع النساء وصراعهن وكيدهن وممارستن للبغاء والفجور السرى والعلنى في قصور الملوك وفي قصور الأمراء والأستقراطيين في فرنسا وفي غيرها من بلاد أوروبا وصراع البنغايا والمحظيات مع الزوجات الشرعيات ، وتسلمطن على الملوك ورجال الدولة وتسيرهن في كثير من الأحيان دفعة الحكم من وراء ستار وتأثيرهن على السياسة العامة داخلية وخارجية ومظاهر الحب والخيانة وتعارض رغبات الغانيات مع أحكام الكنيسة ، وتدخل السلطة الحاكمة ضد الكنيسة لحمايةهن وحماية عبثهن • صور واضحة في تاريخ أوروبا لا يمثل ما في الشرق جميعه جزءاً يسيراً ، منها لكن كل ذلك مستساغ وحسن ما دام في أوروبا وهو يدل على تقدم المرأة الغربية وثقافتها في منطقتي المشرقين • أما المرأة الشرقية فمسخ جهلها قد يكون اندفاعها أعنف هكذا يقول جوتيه •

ولعله من السهام المسمومة التي يريد أن يوجهها الى الفاتحين المسلمين في هذا الموضوع هو تلك الصورة التي رسمها للجندى المسلم الفاتح

حين أسر ابنة جرجير ، هي كما يقول : فتاة أوروبية مرفهة فيركبها جملا ليذهب بها من إفريقيا الى جزيرة العرب ولا يكفى هذا بله يتغنى بمأساتها فيقول لها ستسيرين على الأقدام حتى تصلى الى سيدتك التى تنتظرك لتحملى لها الماء فى القرب • ويعلق على هذه الصورة بقوله إن العرب من الذكاء بحيث يدركون هذه المأساة ومن القسوة بحيث يستمتعون بها • ولا شك أن ملايين النساء الشرقيات المرفهات اللاتى لقين أسوأ فنون التعذيب بأيدي الاستعمار الغربى الممتد منذ عهود الرومان الى آخر عهود فرنسا فى الجزائر لا يلفتن النظر ولا تعتبر قضاياهن مآسى ولا معاملتهن بتلك الوحشية قسوة •

وليت شعرى كيف استطاع المستشرق غيزل أن يبحث عن المرأة فى المجتمع الشرقى كله فلم يجد فيه إلا امرأتين ليستا من الحرير ؟

هذه أساليب المستشرقين وهم يكتبون عن قضايا الشرق عامة وقضايا الإسلام خاصة ، متستريين بالبحث العلمى •

ولا شك أن بعضهم قدم خدمة قيمة فى الميدان العلمى ولكن البعض الآخر حاول أن يدس فى أبحاثه ما يظنه خدمة للأغراض الاستعمارية أو ما توحى به العصبية سواء كانت عصبية دينية أو كانت عصبية للغرب على الشرق • ولعل إميل فيلكس جوتيه يمثل الجانب المتهور فى هذا الموضوع • وكتابات لا تتسم بأسلوب الباحث وإنما تتسم بصيغة الزائد الذى يمهّد للغزو أو يبرر الغزو الواقع من دولة واقعة على شعب يرى جوتيه أنه يجب أن يخضع للحكم ويصبر عليه ويقدم السمع والطاعة •

ولعل القارئ الكريم يريد أن أضع بين يديه مقتطفات أخرى من كتابات إميل جوتيه ، يقول :

« وهنا نلقى نظرة على ما نسميه تاريخ المغرب في العهد الإسلامي لنجد أن الذاكرة لا تستطيع حصر الحوادث المتشعبة المتشابكة ، والحروب العديدة التي لا تعرف أسبابها ونتائجها في تلك الفترة » .

فما أن تقوم مملكة حتى تنهار . وتنشأ على أنقاضها أخرى بدون سبب واضح أو نتيجة ملموسة . إنه تاريخ خاو جاف بل أقول صحراء قاحلة لا تعرف أولها من آخرها . المصدر السابق ٧٧ وتقول « والواقع أن حياة البداوة هي التي ميزت التنظيم السياسي في الشرق والبداوة هي التي تميز الشرق عن الغرب » . نفس المصدر ٨٠ وتقول « ذلك إن إفريقيا قرطاجنة والاندلس بلدان عريقان ثقافيا وهما الوحيدان في المجال الإسلامي بالمغرب ، على أن العنصر الذي لعب دوره هنا هي فترة ما قبل الإسلام وما هيأتهم لاعتماد الديانة الجديدة » . المصدر السابق ص ١٠٤ ويقول :

« وأيسر ما يثير انتباهنا في زحمة الصراع بين الشرق والغرب في بلاد المغرب انهيار النفوذ اللاتيني والمسيحي في إفريقيا » . المصدر السابق ويقول :

«وقد شاعت الامبراطورية الرومانية أن تخلق ثورة مثل هذه الثورة ونجم عنها عن غير قصد هزات اجتماعية وسياسية خطيرة » . نفس المصدر ويقول :

« لقد عرفت إفريقيا عهدها الذهبى زمن الرومان فازداد عدد سكانها وانتعشت اقتصاديا وأضافت روما لمآثرها الأخرى إدخال الجمل الى البلاد » المصدر نفسه ويقول :

« إن إفريقية هي مهد المقاومة المغربية نظرا لتأثرها بالحضارة اليونانية والرومانية » • المصدر نفسه ويقول :

« وليس تصرف كهذا أمراً مستغرباً في هذه البلاد ، لكننا نستنهجه نحن الذين سرنا منذ ثلاثة آلاف سنة من مفهوم المدينة القديمة الى مفهوم الوطن » • المصدر نفسه ويقول :

« ذلك لأنها تحولت تدريجياً فأصبحت بلاد الشاوية ، وتبدد ما بقى من ثروات زراعية وفلاحين رومان في القرن السابع ، سادت حياة التنقل بين السهل والجبل » • المصدر نفسه •

ولعل من الطريف أن أختتم هذا الفصل بملاحظتين مبنيتين على استنتاجات مضحكة للمستشرق الكبير •

الملاحظة الأولى يقول في نفس الكتاب صفحة ١٥٣ ما يلي :

« ولا بد لنا هنا من ذكر القرابة بين الزناتية واليهودية في الأصل فالكاهنة أول أميرة على الزناتيين كانت تحمل اسما يهوديا ، فكاهنة تذكر بكوهين » •

أرأيت التعمق في البحث ودقة الاستنتاج وسلامة المنطق أول أميرة على الزناتيين هي الكاهنة • ولفظ الكاهنة قريب من كوهين • وكوهين

اسم يهودى إذن فالعلاقة وطيدة بين زناتة واليهود • ونسى هذا المستشرق الكبير أن اسم هذه الأميرة (داهيا) لا كاهنة وأن كلمة كاهنة كلمة عربية أطلقها عليها العرب لأنها كانت تمارس أعمال الكهان ولا بد أن لمعنى هذه الكلمة لفظا بربريا كان يطلق عليها فلما جاء العرب ترجموه إلى هذه اللفظة واختفت اللفظة البربرية ، أو أن العرب من مبدأ الأمر أطلقوا عليها لفظ الكاهنة حين لاحظوا أنها تقوم بأعمال الكهان ومهما كان الأمر وحتى لو أن اسمها كان كاهنة أو أن اليهود كانوا يسمون كوهين لما كان لتشابه هذه الأسماء معنى ولا يصح أبدا أن نربط بينها علاقة لمجرد تشابه لفظتين وإلا فالمسلمون اليوم يسمون موسى وهارون وإسحاق وسليمان وداود فما رأى المستشرق الكبير في هذا • أحسب أنه ليس أبعد في السخف من هذا •

الملاحظة الثانية يقول في نفس الكتاب ص ١٥٣ ما يلي :

« ومن المعروف أيضا أن ثورة يهودية قامت في عصر الإمبراطور تراجان انطلقت من برقة • وقد شدد رينان كثيرا على هذه الثورة • قام هؤلاء وعلى رأسهم شخص يدعى لوقوفا ، اعتبروه ملكا عليهم — بعمليات ذبح واسعة النطاق لليونانيين والرومان ، وأكلوا لحمهم ، وتلذذوا بتلطيف أيديهم بدمائهم ، منتزعين جلدهم عن أجسامهم ليجعلوا منه ثيابا يرتدونها • ويقدر عدد سكان برقة الذين قضوا على هذا النصو بحوالى مائتى وعشرين ألفا ، أى أن جميع السكان قد ذبحوا تقريبا ، وتحولت البلاد إلى صحراء قاحلة من جديد ولا تدل وقائع كهذه على مدى التعصب الدينى لليهود وحسب • بس على أن هؤلاء كانوا منظمين • أحسن تنظيم » •

إننى أتترك هذه الفقرة لحكم القارىء دون تعليق •

مع إميل فيلكس جوتييه

كتب بعض المستشرقين عن الإباضية كما كتبوا عن غيرهم من المسلمين •

ولعل نقط الانطلاق التى يبدأ منها المستشرقون مسيرتهم — حين يكتبون عن القضايا الإسلامية خاصة • وقضايا الشرق عامة — هى فنظرة واحدة ، يستطيع الدارس أن يحددها ويرسمها فى وضوح فى كتاباتهم • أما الدوافع التى تدفع أحدهم إلى الكتابة عن بلد أو قضية أو فرقة •

فهى تختلف من شخص إلى شخص • ومن دولة إلى دولة • وإن كانت غالباً ما تتلاقى فى أصول ثابتة عندهم لا تعدوها • وإنما تتسم كتابة كل واحد منهم بطابعه الخاص المميز • حسب تكوينه الخلقى ، وإدراكه لنوعية القارىء الذى يقصده بالذات ، وينتجه إليه برغبته فى إحداث التأثير عليه ، وإقرار مفاهيم معينة فى ذهنيته • ثم مدى حماسه لدوافعه الحقيقية ومدى تمكنه من السيطرة على انفعالاته ، وإحساساته ، وتأثيراته النفسية بالأحداث والقضايا التى يعالجها •

ينظر المستشرقون إلى الإباضية — عندما يتحدثون عليهم — من نفس الزاوية التى ينظر منها أكثر المؤرخين • فيعتبرونهم فرقة من فرق الخوارج وليس هذا فحسب بل إنهم ينسبون إليهم جميعاً كل ما يصدر عن شواذ الخوارج وعن المغامرين من طلاب الحكم أو المال • ممن كانت لهم حركات عنف فى جهة من الجهات •

بين يدي الآن مجموعة من كتابات المستشرقين الذين تحدثوا عن
الإباضية وسوف آخذ منهم نموذجين للمناقشة •

الأول : إميل فيلكس جوتييه كنموذج للمستشرق المتطرف الذي
لا يخفى عصبية للغرب ، ولا محبته لاستعمار الشرق ولا أسلوبه في
الكيّد •

والثاني : كارلو الفرنسو فليينو كنموذج للمستشرق الذي يسير
وفق منهج علمي واضح •

وفي هذا الفصل نقف وقفات قصيرة مع المستشرق جوتييه في كتابه
« ماضي شمال إفريقيا » والحقيقة أن القارئ المنصف عندما يقرأ
هذا الكتاب يحس بالكيّد الاستعماري في كل صفحة من الكتاب ، وتتراقص
أمام عينيه الدسائس في كل موضوع ، وإلى القارئ الكريم بعض
الصور الواضحة التي تتبدى له وهو ماض في القراءة :

١ — حرص شديد على إثارة النزعة القبلية بين البربر • والعمل
على تذكيرهم بأنهم ينتمون إلى قبائل شتى مختلفة تنتمي كل واحدة
منها إلى عرق • وأن بعض تلك القبائل كانت مؤهلة لأن تحكم وتسيطر ،
وأن قبائل أخرى لا تستحق ذلك الشرف • وأن صراعا عنيفا وقع
بينها تغلبت فيه هذه على تلك بسبب ظروف خارجية هي مجيء الإسلام
ومساعدته لبعض تلك القبائل على بعض فضيع عليها فرصا للمجد •
وهذه الصورة واضحة تقراءى لك في كل موضوع •

٢ — محاولة إثارة العنصرية بين العرب والبربر ، واعتباره المعارك

الحامية التي وقعت زمن الفتح الإسلامي ليست هي معارك بين الإيمان والكفر وإنما هي معارك بين عرق وعرق • أو هي معارك بين غاز يريد الاستعمار والاستثمار ، ومدافع عن بلاده وخيرات أرضه • وكذلك ما وقع بعد ذلك من ثورات وحروب بسبب انحراف الحكم يردّها كلها إلى صراع ، قبلى عرقى ليس أكثر •

٣ - التهوين من شأن البربر من الناحية الحضارية عند مقابلتهم بالعرب والتهوين من شأن العرب أيضا من هذه الناحية عند مقابلتهم بالرومان أو الإغريق أو حتى بالأمم الشرقية المجاورة لهم كالفرس •

٤ - الرفع من قيمة الرومان وإرجاع ما فى المغرب من مظاهر الحضارة والازدهار فى القديم إليهم وحدهم أما فى الحديث فإلى فرنسا •

٥ - الحرص على تصوير الخوارج عموما فى شمال إفريقيا بأنهم بدو ، ولا يمكن أن تقوم على أيديهم حضارة ، وإعطاء هذه الصورة نفسها عن البربر أيضا وعن العرب • وإرجاع التراث الحضارى الإسلامى إلى ما يسميه - الحس الحضارى - العميق الجذور الباقى والمترسب عن الشعوب التى استعدت المغرب قبل الفتح الإسلامى وأهمها الرومان •

٦ - الزعم بأن الحضارة التى قامت فى العهود الإسلامية إنما قامت فى نفس الأماكن التى قامت فيها الحضارة قبل الإسلام - بالحس الحضارى - السابق ، حتى أن المدن الهامة فى المغرب الإسلامى إنما قامت على أنقاض المدن الهامة فى العهد الرومانى •

٧ ب- تصوير حركة الخوارج بأنها هرطقة تستمد جذورها من
الدوناتية المسيحية .

هذه بعض الصور التي تلمسها وأنت تقرأ ما كتبه جوتييه عن
الإباضية ولا شك أن صوراً أخرى كثيرة تبدو لك وأنت ماض في قراءة
الكتاب .

أما فيما يتعلق بالإباضية فلعل القارئ يرافقني في الخطوات
القصيرة الآتية : يتحدث المؤلف عن الإباضية تارة ضمن الإطار الخارجي ،
وتارة يخصهم بالحديث حيث يقول في كتابه (ماض شمال إفريقيا) ترجمة
هاشم الحسيني نشر الفرجاني ص ٢٠٠ ما يلي : « ولكي نفهم مذهب
الخوارج ينبغي ألا نعزله عن غيره ، بل يجب أن نقربه من الثورات
الأخرى التي عرفها المغرب ، حيث نجد وراء الهيجان الديني انتفاضة
للمشاعر الطبقيّة والعرقية ، والخارجية شبه شيء بهرطقة مسيحية هي
الدوناتية ، وقد ولدت في عصر كان فيه كل شيء مطبوعاً بالطابع الديني .
وقد شدد ماسكوراى على وجود شسبه بين الدوناتية والخارجية » .
ويضيف المؤلف إلى هذا القول في صفحة ٢٠٢ ما يلي :

فماسكوراى على حق إذن في ذكر الشبه بين الخوارج والدوناتية ،
لا بل إن الخارجية هي الدوناتية عينها منقولة عن الإطار المسيحي إلى
الإطار الإسلامي » . هذا نمط من أنماط التحليل والحكم عند جوتييه
أى لكي نفهم معنى الخارجية يجب أن نقربها إلى غيرها من الثورات
الواقعة في المغرب ، وتلك الثورات إنما قامت — في نظر جوتييه — على
الهيجان الديني والمشاعر الطبقيّة . وليس في هذا ما يمنع أن تكون

الخارجية في الإسلام هي الدوناتية المعروفة في المسيحية ، وانتقلت عبر
المصور حتى وانتهت ظروف الظهور فظهرت في هذا النمط . أى أنه حتى
الانحرافات والتطرفات عند المسلمين ينبغى أن تكون مستمدة من
المسيحية ، أو من الغرب ، ذلك أن الشرق بما فيه - حسبما يريد
الاستشراق - ليس له قوة الحركة والانتفاض والحياة .

ويقول جوتيه في نفس الكتاب ص ٢٠٧ ما يلي :

« وينقسم خوارج المغرب إلى فرقتين : الصفرية والإباضية وتمثل
الصفرية التطرف ، والإباضية الاعتدال ، وهم أشبه بالبلاشفة والمناشفة ،
تباعد بينهم كراهية عميقة الجذور . لقد هاجم صفريو نغزاوة وورفجومة
مدينة القيروان بوحشية لا نظير لها » .

ثم يقول في صفحة ٢٠٩ ما يلي :

« وقد زحف أباضيو طرابلس من زناتة وهوارة لمحاربة بنى
ورفجومة ، وانتزاع بقايا القيروان منهم . على أن تدخل هؤلاء لم يكن
بدافع إنسانى محض . إذ ليس من المستبعد أن يكونوا قد شعروا بالصد
من إخوانهم في المذهب ، وأرادوا أن يظفروا لأنفسهم ببعض الفائدة »
هذا منطلق المستشرق جوتيه في مناقشة الأحداث وتحليل بواعثها وتعليل
الدوافع إليها . يفترض أولا أن الإباضية والصفرية إخوان في المذهب ،
يفترض ثانيا أن عداوة عميقة الجذور - كالتى بين البلاشفة والمناشفة -
تقوم بينهم ويذكر أن الصفرية قاموا باحتلال القيروان وارتكبوا فيه
كثيرا من الفضائح ثم يذكر أن الإباضية سارعوا إلى طرد الصفرية من
(م ١٦ - الإباضية)

القيروان • ويفترض ثالثاً أن عمل الإباضية هذا لا ينبعث من دافع إنسانى ، ويفترض رابعاً أن هذا الدافع الذى دفع الإباضية إلى استخلاص القيروان من أيدي ورفجومة إنما هو الحسد لإخوانهم فى المذاهب ثم الظفر لأنفسهم ببعض المكاسب • مقصور فى الافتراضات يرفع بعضها على بعض دون أساس أو على أساس من الوهم • وتصوير وتصوير لعلاقات بشرية ، ونوازع نفسية لاثنين على علم ولا تستند على خبر • وإصدار أحكام على حركات قامت قبل قرون تناقض كل المناقضة ما تذكرها عنها كتب التاريخ والسير العربية • فما هى الأسباب التى يستند إليها المستشرق جوتية فى افتراض الفروض وإصدار الأحكام على الوقائع وعلى دخائل النفوس • إنه لا شئ مطلقاً غير دعوى عريضة وقياسات على ما عند الغربيين ، إنه يقول إن الإباضية طردوا الصفرية من القيروان حسداً وطمعا فى بعض الفئدة • والحسد دافع نفسى خفى كيف فطن له هذا المستشرق الذكى بعد مضى هذه القرون الطويلة •

إنه لو اقتصر على دعواه أنهم يطلبون لأنفسهم بعض المكاسب — رغم أن كتب التاريخ تكاد تجمع أن الإباضية فى استيلائهم على القيروان لم يأخذوا منها شيئاً ألبتة ما عدا خرجاً سرقة أحد المقاتلين فلما انكشف عوقب عليه وعزر أمام أعين الجند جميعاً — لكان لدعواه خطأ فى النظر • لأن نظرة المستشرق جوتية إلى حركات الدول والشعوب لا تنبثق إلا من الفهم الاستعمارى ، والفهم الاستعمارى لا يتحرك إلا بعد تقدير الفوائد والمكاسب والمغانم • أما ما عبر عنه هو بالدوافع الإنسانية فقد قتلت فى الحس الغربى فى معاملته • والدوافع الإنسانية فى الحس الغربى إنما قتلها حملة الأقلام والألسنة ، قبل أن يقتلها حملة السلاح وطلاب المطامع •

وما من حملة عسكرية وجهها استعمار الغربي إلى الشرق في التاريخ القديم أو الحديث حتى تلك التي سبقت الديانات إلا وقد مهدت لها السنة وأقلام سابقة ، وبرزتها السنة وأقلام مرافقة ، وأثنت عليها ومجدتها وأقلام لاحقة . وإنك لتقرأ اليوم للمستشرق جوتيه وأضرابه فتجدهم يبررون بل يمجدون جميع الحملات الاستعمارية التي قام بها الإغريق والرومان بل ويتحدثون عنها بشيء من الفخر والاعتزاز ، ولا يبدو أنهم يحسون بأن تلك الحملات الاستعمارية في تاريخ سحيق كان الباعث عليها والدوافع إليها إنما هو الحصول على الفوائد ، ولم يزعموا أن سببها كان الغيرة والحسد . ذلك أن للمستشرقين منطقتين : منطلق يعالجون به قضايا الغرب ومنطلق يعالجون به قضايا الشرق . ولم يدخل في اعتبارهم أبداً أن الغرب والشرق يستويان في أي مظهر من مظاهر الحياة ، وإكناؤا يسبغون على جميع مواقفهم دعوى فضفاضة بأنهم متجردون للعمل تحت اسم البحث العلمي .

ويقول في صفحة ٢٢٤ ما يلي :

« وراء مملكة تاهرت شخصية مشرقة مرموقة كما هي حال المملكة الإدريسية ، والأسرة الفاطمية ، إنه عبد الرحمن بن رستم ، ويرجع أصله إلى رستم الشهير الذي قاد الجيش الفارسي في معركة القادسية ، وهو فارس من أحفاد ، كسرى ، ولا غرابة أن شاهدناه على رأس فئدة من الهراطقة في الوقت الذي ازداد فيه النفوذ الفارسي زمن العباسيين » .

هكذا يعلل جوتيه نجاح الدولة الرستمية بتغلغل التأثير الفارسي في الدولة العباسية . ولا شك أن التغلغل الفارسي — إن صح هذا التعبير — كان لتأييد الدولة العباسية وتثبيت دعائمها . ولا شك أن الدولة الرستمية

بزعامة عبد الرحمن ومن بعده كانت مناهضة للدولة العباسية فكيف استطاع جوتيه أن يوفق بين هذا ؟ فيجعل سبب نجاح الدولة الرستمية إنما يرجع الى وجود يد فارسية ، واليد الفارسية كان لها النفوذ الواسع في الدولة العباسية • فكيف سمح النفوذ الفارسي المتغلغل في السدولة العباسية أن تتشقق عنه يد فارسية لتضرب هذه الدولة المبنية على النفوذ الفارسي • إنه تناقض واضح في المنطق وفي أحداث التاريخ لأن وجود عبد الرحمن ابن رستم في المغرب العربي لم يكن له أية علاقة بالقومية الفارسية ولا الفرس الذين تغلغوا في الدولة العباسية • ولا بأمجاد الفرس التي انتهت بظهور الإسلام والسبب في هذا واضح فإن عبد الرحمن قد انقطعت صلته بالفرس تمام الانقطاع وهناك حلقة من طفولته غير واضحة إلا أن كتب التاريخ تذكر أنه حج مع والده فتوفى والده بمكة وتزوجت أمه برجل من المغرب (القيروان) فرحلت معه ورحل معها طفلها عبد الرحمن وهناك في القيروان تكون عبد الرحمن في مجتمع مسلم فقط أهله من العرب والبربر ولم يعرف أن أحداً من الفرس كان هناك فلا مجال أبداً للمحاولة في ربط هذه الحركة بحركات أخرى في الشرق تنبعث من دوافع قومية •

إن المستشرق جوتيه يضع نصب عينيه فرضاً ثابتاً لا يتحول عنه هذا الفرض هو أن الإسلام ممثلاً في مذهبها كلها أو في بعضها لا تقوم على يده حضارة • فإذا قامت حضارة في مكان ما فلا بد أن يكون هناك سبب خارج عن الإسلام والمسلمين وبما أن الدولة الرستمية قد قامت على يدها حضارة لا يمكن أن يكذبها التاريخ فالمستشرق جوتيه يعترف بوجود تلك الحضارة ولكنه ينكر أن يقوم بها الإباضية وإنما يعزوها لعاملين : الحس الحضاري الروماني ، والقومية الفارسية التي تمثلت في عبد الرحمن بن رستم •

وكانما يريد أن يقول أن بيئة المغرب الإسلامى لا يمكن أن تنجب قيادات فإذا قامت فيها حركة فلا بد أن تكون القيادة مندسة من جهة ما كما هو الحال مع الدولة الإدريسية والفاطمية والرستمية • وما دام الإباضية يمثلون في نظر (جوتيه) فرقة من الهراطقة مفتقرة الى زعيم فليكن هذا الزعيم فارسيا تغلغل في المغرب كما تغلغل في المشرق وأخوته من الفرس ، وأن معارضا للمخطط الفارسى في تأييده للدولة العباسية • وهذا التمثل والتأويل كله لتسقيم فرضيات جوتيه •

ويقول جوتيه في صفحة ٢٢٧ ما يلى :

« يقول ما سكوراى بحق ما من واحة بين قابس وفجوج وسجلمانة ألا وهى مدينة بتطورها للخوارج — صفرين كانوا أم إباضيين — لقد كانوا سادة الصحراء » •

ويقول في صفحة ٢٢٨ ما يلى :

« إن تاهرت كانت مركزا سياسيا هاما في الفترة التى رافقت ظهور الجمالين الرحل القادمين من الشرق ، والذين كان لهم شأن كبير في زعزة أركان نوميديا » ويقول بعد أسطر :

« وهكذا تعتبر تاهرت والمنطقة المحيطة بها مركزا للاصطياف يقصده سكان الصحراء مع قطعانهم هربا من الحر الشديد » •

ويقول في صفحة ٢٢٩ ما يلى :

« وتدل الطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة أن تاهرت مملكة

للبدو الأتقاح ، وقد اختفى الإباضية كفرقة دينية في تاهرت اختفاء تاما في حين استتمروا على شكل جماعات صغيرة في جبل نفوسة والزاب أي في المناطق الصحراوية ، وليس الأمر وليد صدفة لأن قوة الدولة الرستمية كانت في الصحراء » .

ويقول في صفحة ٢٢٩ ما يلي :

على أن هذه القبائل الرستمية من البدو الرحل على كل حال .

ويقول في صفحة ٢٣٠ ما يلي :

« إن مملكة الرستميين لم تتجاوز حدود الأراضي الوعبرة والصحراء » .

يفرض المستشرق جوثييه أن الإباضية عبارة عن قبائل بدوية ويركز على ذلك تركيزا شديدا ، ويدعى أن طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها طبيعة صحراوية بدوية . ولما كانت تاهرت تمثل مظهرا حضاريا واضحا لا يمكن تجاهله وأن هذا المظهر يرد دعوى المستشرق هذه فقد حاول أن يهرب من مجابهة المشكلة بنوع من الأهواء فزعم أن الإباضية بدو أتقاح وأن تاهرت هي مملكة للبدو الأتقاح يعيشون عليها . ولكن أحدا لا يفتنح أن البدو الأتقاح يكونون مملكة كما أن طبيعة تاهرت نفسها تستصمى على وصفها بالبدواة وهي التي يقول فيها هذا المستشرق نفسه في صفحة ٢٢٨ .

« تقع تاهرت على ارتفاع ١٢٠٠ متر. ولا يقل ارتفاع المناطق

المحيطة بها عن ألف متر وثشاء تاهرت يمتاز ببرودته وضبابيته ورطوبته
 وتلوجه أى على عكس الصحراء تماما * . فلما وجد أن حقيقة تاهرت
 تتعارض مع وصف البداوة ووجد أن الإباضية قد أقاموا في هذا المكان
 دولة بالفعل ظلت مزدهرة قرنا ونصف على أقل تقدير ما يبعد عنهم
 وصف البداوة افترض فرضا خياليا وهو أن الإباضية — وهم بداءة —
 كانوا يقصدون تاهرت في الصيف هربا من حر الصحراء أى أن تاهرت
 كانت مصيفا للبدو الرحل * . وكأنما كانت الدولة الرستمية قطعا من
 الأراجوز تتفرق خلال السنة في مناطق عدة فإذا جاء الصيف اجتمعت في
 تاهرت للقيام بدور الدولة لمحرك خفيف يعبث بالأزرار من وراء ستار * .

وكانما هذه الافتراضات كلها لم تتنع جوتيهه نفسه فكان يلح على
 مزيد من الافتراضات * . ولكن افتراضه الأول « الإباضية قبائل من البدو
 الرحل الأتقحاح » افتراض لا يحتمل المناقشة ولا يقبل النقد عنده ولذلك
 كان عليه أن يلتمس الحلول لما ترتب عن هذا الافتراض من مشاكل وجاءت
 الحلول بعد مجموعة من الافتراضات يبنى بعضها على بعض * .

الافتراض الأول الإباضية لا يكونون إلا بدوا رحلا * .

الافتراض الثانى البدو الرحل لا يمكن أن يتغيروا فيصبحوا بنساة
 حضارة تاهرت حقيقة واقعة * .

قيام حضارة في تاهرت حقيقة واقعة عندما كانت تحت سلطان
 الإباضية * .

الافتراض الثالث الإباضية لم يكونوا يقيمون في تاهرت وإنما كانوا

يتخذونها مصيفا فيقبلون عليها في موسم الحر ويتخلون عنها وينزحون
بعيدا في بقية المواسم والفصول •

فكيف قامت تلك الحضارة في تاهرت تحت حكم الإباضية ؟

الجواب في ذلك عند جوتيه بسبب والسبب واضح معروف •

إن الحضارة إنما قامت في تاهرت بالحس المدني الروماني السابق
كما أوضحت ذلك للقارئ الكريم من قبل • ولا بد للإباضية ولا لسكان
تاهرت ولا لدولتهم في ذلك • وليتضح لك هذا المعنى اقرأ للمستشرق
جوتيه في كتابه ص ٢٢٧ ما يلي :

وليس في تاهرت اليوم سوى آثار رومانية ، ويفترض غيزل أن
الرومان أنشأوا فيها مراكز عسكرية على الصدود ، ثم منطقة سكنية
للمدنيين ، ولم يجد الآثار الباقية ما يؤيد فكرته ، وكان لتاهرت أهمية
كبيرة في عهد السيطرة البيزنطية » •

ويقول بعد أسطر :

« ومن الناحية الأثرية البحتة هناك آثار الجدار جنوبي تاهرت في
المنيا العليا • وهي عبارة عن أضرحة شبيهة بتلك الموجودة في مدغاس
« ويقبر المسيحية » ولكنها تعود لوقت متأخر عنها وقد عثر فيها على
كتابة إغريقية ، كما استخدم في بنائها أدوات تعود لعصر سابق لها كبقايا
هندسية مسيحية وكتابات منقوشة •

« ويستنتج غيزل أنها عاصرت العهد البيزنطي وينسبها إلى أهالي
تاهروت » •

ويقول جوتيه :

وتاهرت في العهد البيزنطى كانت في نفس المكان الذى تقع فيه اليوم وعاصمة الرستميين (تاهرت الجديدة) تبعد خمسة أميال غربى تاهرت القديمة .

وإذا كان رستم قد أطلق على مدينته لقب الجديدة فهذا ما يؤكد أن المدينة القديمة ماثلة في الأذهان » .

وعندما ينتبع القارىء الكريم البحث كله في هذا الفصل يجد أن الصورة التى يرسمها جوتيه تبدو كما يأتى :

إن الإباضية باعتبارهم خوارج لا يكونون إلا بدوا وطبيعة البدو لا تستقر في مواضع الحضارة ، ولا تبني نظاما ، ولا يثبت لها حكم ، وقد قامت بالفعل تحت حكم الإباضية حضارة دامت قرنا ونصف ، وثبت لهم هناك الحكم فما هو السبب ؟

السبب أن هذه الحضارة إنما بنتها يد فارسية تجرى فيها دماء الحضارة - وفي موطن قامت فيه حضارات بيزنطية ، ورومانية قبل الفتح الإسلامى . فالمكان منبت خصب للحضارة واستقرار الحكم .

أما علاقة الإباضية بالموضوع فهى لا تتعدى رحيلهم إليها فترة من السنة ، واتخاذها مصيفا . أما البناء الحقيقى الذى قام عليه الحكم وتبحث عنه الحضارة فإنما قام على ركنين أساسيين : الحس الحضارى الفارسى الوافد من الشرق في صورة عبد الرحمن والحس الحضارى الغربى المهندس في قرية تاهرت منذ عشرات القرون عندما كان هناك

الرومان • أما ما ينسب إلى الإسلام أو إلى مذهب من مذاهبه مما يقوم به أتباعه فهو طفق ظاهري لا يتجاوز الأسماء •

بعد هذا أحب أن أقول إن هناك عدة أشياء تقوم ضد افتراضات جوتيه وتدحضها ولعلها تتلخص فيما يلي :

١ — عبد الرحمن بن رستم وإن كان فارسي الأصل إلا أنه خرج دون أن يعى أو يعرف شيئاً عن حضارة الفرس وعاش في القيوان واكتسب مواهبه في بيئة بربرية ثم عربية محضة ثم هو فرد واحد فما عساه أن ينجز من مقومات الحضارة • فإسناد الحضارة التي قامت في تاهرت إلى شخصية عبد الرحمن الفارسية ضرب من الخيال •

٢ — اعتبار أن الحضارة التي قامت في تاهرت كان من أهم عواملها ذلك الحس الحضاري المختلف في تربتها منذ قرون من حضارة الرومان • وأن الحضارة لا تنبت إلا في أماكن خاصة بها كما تنبت الأشجار في تربة معينة وأن هذه التربة المعينة لا بد أن تكون قد أعدتها في يوم من الأيام دولة تحمل مقومات الحضارة وعلى هذا الأساس فقد نبتت الحضارة في تاهرت زمن الحكم الإباضي لأن تربتها صالحة لإنبات الحضارة بعد ما أعدها الرومان لذلك في عصور سابقة وهذا المنطق هو الآخر ضرب من الوهم والخيال ولا شك أن الإنسان هو الذي يكون الحضارة وأنه هو الذي يختار لها البيئة والمكان ، ولذلك فإن المسلمين على اختلاف مذاهبهم قد كونوا حضارات مختلفة في أماكن مختلفة بمحض اختيارهم للمكان والبيئة — كما كون غيرهم — فإذا صادف أن حضارات متعددة من أمم متعددة قامت في مكان واحد • فليس

ذلك لأن ذلك المكان ينبت الحضارة • وإنما لأن الإنسان الذي يعرف
كيف يكون الحضارة قد وقع عليه اختياره •

٣ — اعتباره أن الإباضية (بدو أفجاج) فرضية لا يساعده عليها
التاريخ • ونظرة تتبعية بسنيطة إلى تاريخهم في المغرب الإسلامي
ومضطر بهم فيه منذ وجودهم فيه إلى عهد المستشرق جوتييه تدل دلالة
واضحة أنهم ليسوا كما يزعم • وأنهم إلى التخصر أقرب في جميع
مواطنهم ويتضح ذلك في الصور الآتية :

الأولى : كانوا يعمرون جبل نفوسة بمدنه وقراه في (ليبيا)
ولهم فيه حياة حضرية مستقرة إلى الآن وكانوا يعمرون جزيرة جربة
ولهم فيها حياة حضرية مستقرة إلى الآن في زوارة • وكانوا يعمرون المدن
والقرى في الجنوب التونسي. سواء ما كان منها في الجبال أو اللواحات
ولهم فيها حياة حضرية مستقرة إلى عهد قريب وكانوا يعمرون تقرب
وبغابى وما إليها ولهم فيها حياة مستقرة سجلها التاريخ وكانوا يعمرون
وارجلان وسدائرة ولهم فيها حياة حضرية مستقرة بل إن سدائرة
تعتبر من المدن الأثرية الجزائرية في العهد الإسلامي • أما وأرجلان
فقد كانت مركزا حضاريا تجاريا بين الجزائر وإفريقيا السوداء وكانت
مركز القوافل ومقرها وممرها ولا تزال • وكانوا يعمرون وادي ميزاب
ولهم فيه حياة حضرية مستقرة ربما فاقت مدن الشمال ولا تزال •

هذه أهم أماكن الإباضية في المغرب • ولا يمكن أن يقسال عن هؤلاء
— بجال من الأحوال — أنهم بدو • أما الذين سكنوا — منهم المغرب
الرقصى أو بعض بلاد الأندلس • فلا يستطيع أحد أن يصفهم بالهداوة •

الثانية : كانت هنا لك بعض القبائل البدوية التي اعتنقت المذهب الإباضي واستمرت على حياتها فترة من الزمن ولكن الإباضية كانوا يقاومون البداوة مقاومة مستمرة ويتخذون معها مواقف غاية في العنف منها إنهم يمنعون تزوج الحضرية بالبادي حتى أنهم شددوا على أبي عثمان الدجى حين زوج بنته (منزو) وبمحض رغبتها واختيارها لأحد أقربائهم من البدو وندم أبو عثمان على عمله ذلك ندما شديدا فيما بعد .

وكما قال أحد علمائهم حين وجد شخصا يعرفه يرعى غنما : نعمت الغنم التي ترعاها لحية ، وبئست اللحية التي ترعى الغنم . وعندما لا يتمكنون من إقناعه هي أو قبلة بترك البداوة كانوا يعملون على إدخال أنواع من وسائل التحضر إليهم فكانوا يكونون لهم ما يشبه ما يسمى اليوم بالمدارس المتنقلة لتعليم أبنائهم ولمساجدهم وما يتبعها من مرافق وكانوا يتعهدونها بالزيارة ودروس الوعظ والإرشاد والتثقيف .

الثالثة : حياة الإباضية على عمومها كانت تعتمد على ثلاثة أسس :

١ — التجارة : وقد اشتهر بها أهل جربة وارجلان ووادي ميزاب حتى أن الاقتصاد في كل من الجزائر وتونس كان يعتمد اعتمادا أساسيا على مواهب الإباضية في التجارة ولا تخلو مدينة أو قرية في الجزائر وتونس — في قرون طويلة — من الأيدي البارة لتجار الإباضية .

٢ — الصناعة : ولاسيما صناعة الصوف وقد اشتهر بها جبل نفوسة وجبال دمر ووادي ميزاب فكانت هذه الصناعة تكون ركنا هاما من دخل الأسرة ومن اقتصاد البلاد حتى اشتهرت في الأسواق .

٣ — الزراعة : وهى مصدر أساسى للثروة وتقوم فى جميع مواطن الإباضية لاسيما الوحدات •

ويبدو لى أن الأمة التى تبنى حياتها على الاقتصاد الذى يتكون من تجارة وصناعة وزراعة لا يمكن أن تكون أمة بدوية — وأن العبد والأقحاح لا يمكن أن يحاربوا البداوة بكل الأساليب حتى يبلغ بهم الأمر إلى منع الزواج من أهل البادية • ويكفى هذا لمناقشة هذه النقطة ويقول المستشرق جوتيه ص • ٢٣٣ ما يلى :

« وقد فرض الإباضيون عقوبات صارمة على أهل الشر • فالزانى يجرم ، والسارق تقطع يده » •

وقد يكون جوتيه لا يجهل أن هذه العقوبة هى ما قرره الإسلام • وأن جميع المذاهب الإسلامية ملزمة بهذا سواء نفذته حكوماتها القائمة أو لم تنفذه • وإنما حرص أن يذكر هذا عن الإباضية أولا لأنه يريد أن يوحى للقارىء أن الإسلام دين بشرى يفرض قوانينه ناس من البشر ، وثانيا ليوحى للقارىء الكريم أن الإباضية باعتبارهم من الخوارج المتشردين ، ومن البدو الجفاة الغلاظ ينتهجون القسوة فى أحكامهم : ومن الأمثلة على انتهاجهم هذا النهج هذا الحكم الصادر على الزناة والسراق •

ولعل مما يساعد القارىء على فهم منهج جوتيه فى مناقشة موضوع الإباضية وأسلوبه فى ذلك أن أعرض عليه صورا أجراها المستشرق فى أسلوب مقارنات •

الصورة الأولى :

يقول وهو يرسم هذه الصورة في صفحة ٢٣٠ ما يلي :

« ويساعدنا أبو زكرياء على رسم صورة عن الإباضى : شعره ذو ظفائر يحمل مهندا مستقيما طويلا ، له حدان قاطعان ، يختلف عن السيف واليطلقان • كما يحمل خنجرا مربوطا بذراعه » • إنها كما ترى تبدو صورة كاركاتورية هزلية مضحكة قد ترسم لشخص أو لعدد من الأشخاص •

وبناء على هذه الصورة التى يرسمها جوتيه بمساعدة أبى زكرياء على زعمه للإباضية — نستطيع أن نضع لها إطارا عاما كما يلي :

• شعر مظفور

• سيف طويل مستقيم ماضى الحدين يختلف عن الیطلقان •

• خنجر مربوط بالذراع •

فإذا توافرت هذه الأشیاء الثلاثة فى رجل فهو إباضى وإن تخلف بعضها فليس كذلك — هذا فى زعم جوتيه •

هذه الصورة الكاركاتورية إنما تبعث على الضحك ممن يرسمها وينسبها للإباضية أو لغيرهم فهذا كلام من الخواء بمنزلة لا يرتفع معها إلى مرتبة ما يناقش ويلتمس فيه الخطأ والصواب •

الصورة الثانية :

يقول جوتيه في صفحة ٢٣٠ من نفس الكتاب ما يلي :

« وأظن أن ماسكوراى على حق في مقارنته (١) مع ابن الطوارق حالياً ، ويذكر لنا أن المرأة الإباضية مثقفة مما يزيد في وضوح الشبه ، وذلك أن المرأة عند الطوارق تحتل في علمها وثقافتها مكانة تختلف عن مكانة المرأة في بلاد المغرب ، لقد عني ماسكوراى بالطوارق عناية كبيرة • وليس مستبعدا على كل حال أن يكون هؤلاء البدو الخوارج قد تركوا بعض مميزاتهم لطوارق الهقار وهم من تبقى من قبيلة هواره » • هكذا ترى أيها القارئ الكريم أن المستشرق ماسكوراى — وقد عني بالطوارق — يعقد بينهم وبين الإباضية مقارنة ويزعم أنه توجد بينهم وجوه شبه تتلخص في شعر مظفور ، وسيف طويل مستقيم ذي حدين قاطعين : وخنجر مربوط بالذراع • ويصحح المستشرق جوتيه تلك المقارنة بمرجح آخر وهو أن المرأة الإباضية مثقفة مما يزيد في وضوح الشبهة بين الإباضية والطوارق لأن المرأة الطارقية تحتل في علمها وثقافتها مكانة المرأة في المغرب • وبذلك فلا مانع من أن يكون الطوارق قد تسلموا عن الإباضية هذه المميزات الواضحة عندهم اليوم •

ياله من منطق سليم :

لقد غفل كل من المستشرقين الكبيرين عن دعوى هامة يدعيها كلاهما وترتكز عليها أكثر أبحاثهما وأبحاث من يجرى على نسقهما وذلك

(١) مقارنة الاباضى مع ابن الطوارق •

أنهما يدعيان - ويؤكدان ذلك - إن الإباضية بدو أفحاح • وأن البداوة لا يمكن أن تكون مصدر علم وحضارة • فكيف تأتى للمرأة الإباضية - وهى بدوية قحة - وكذلك للمرأة الطارقية التى تسلمت منها مميزاتا • وسارت بأسلوبها فى الحياة - أن تكون فى ثقافتها وعلمها فوق المرأة فى بلاد - المغرب ؟ كيف استساغ عقل ماسكوراى وعقل جوتيه أن يزعم أن المرأة الطارقية - وهى تعيش فى خيام متنقلة • المناطق الصحراوية تتبع مواقع الغيث • وتقضى أهم أوقات عمرها فى رعاية الماشية - أكثر ثقافة وعلما من المرأة التى تعيش فى تلمسان والرباط والجزائر وقسنطينة ووهران •

قد يكون كلام ماسكوراى على نوع من التأويل لأنه وصف المرأة الإباضية بالثقافة أو بأنها مثقفة • وهذا قد يكون صحيحا إلى حد بعيد - من حيث الواقع - لأن الإباضية لاسيما فى الجزائر يسكنون فى عدد محدود من المدن طيلة عدة قرون • وهم بعداء جدا عن طبيعة حياة البدو الرحل ، وإن كانوا يعيشون فى واحات فى مناطق صحراوية • ثم إن لهم مؤسسة العذابة التى تم تنظيمها فى أوائل القرن الرابع الهجرى وهى تشرك معها المرأة فى القيام بمهمة الثقافة والتعليم فى ميادين الشريعة كما أن لهم أساليب خاصة فى واجبات المرأة المنزلية والصناعية • ولا شك أن معانى الحضارة • ومظاهرها عند الإباضية من سكان الجزائر أقوى منها وأوضح مما فى كثير من مدن الشطوط والسواحل • وفى مثل هذه المجتمعات المستقرة فى مدن الواحات المريقة والمحافظة لا نجد غرابة إذا وصفت فيها المرأة بالثقافة ، والثقافة فى هذا المجال إنما تفى بالدرجة الأولى • معرفة المرأة لأحكام الدين المتعلقة بها ، ثم بالأسلوب المقبول فى السلوك الاجتماعى فى الوسط الذى تعيش فيه ،

وتكتسب المرأة كثيرا من ألوان الثقافة الاجتماعية والبيئية بالاقتراب
والمحاكاة والتقليد وهذا — لا شك — متوفر في المجتمع ومستقر ومحافظ
ومحتفظ .

فمسافة البعد المرأة الإباضية التي تعيش في هذا الوسط والمرأة
الطارقية التي تعيش وراء الموشى متنقلة في الخيام باستمرار مسافة
شاسعة لا تجدى فيها المقارنة .

وماسكوراى قد يكون على حق حينما قال إن المرأة الإباضية مثقفة .
أما جوتيه وقد وثب وثبة لا حدود لها حين تجاوز مرتبة الثقافة إلى
مرتبة العلم فزعم أن الطارقية تحتل في علمها وثقافتها مرتبة فوق
ما عند المرأة في بلاد المغرب .

وأحسب أنه من البدهانة أن وصف المرأة الطارقية بأن لها مركزا
علميا وصف لا مدلول له . أما وصفها بالثقافة فلو كان الوصف هكذا
مجردا لاحتمل النظر والبحث . أما دعوى أنها تحتل مركزا ثقافيا
فوق ما عند زميلتها المرأة في المغرب . فهي دعوى باطلة ، وحكم
لا سند له . ويعد كل هذا فإن محاولة مقارنة الإباضية بالطوارق ووجود
شبه مادي معنوي بينهم لغو من الكلام وباطل من القول وذلك أمر بديهي
لا يحتاج إلى أى بحث أو تفكر ضرورة أن الإباضية مذهب إسلامي له
قواعد وأصول . وله عقائد وعبادات وشرائع في الإمكان أن يعتنقها
بعض الطوارق أو كل الطوارق كما يمكن أن يعتنقها غيرهم من القبائل
والأجناس البشرية .

إن الطارقية جنس أو قبيلة أو نسب والإباضية فكرة أو مذهب أو دين
فما الذى يجمع بينها حتى نقول بوجود شبه أو تقارب •

هل تستطيع أن تقول أن هناك شبها بين الأوس والخزرج والمذهب
المالكي مثلا أو أن المالكية انحدروا من الأوس والخزرج — ثم ما علاقة
اللباس أو السلاح بالمذهب أو العقيدة • لا شك أن البيئات المختلفة
تختلف في لباسها وأنواع السلاح المستعمل لديها فما دخل المذهب في
ذلك • نحن نعرف أن للمغاربة والجزائريين تقاليد خاصة في اللباس
وأسلوبا خاصا في استعمال السلاح ونعرف أيضا أن لتونس أو لليبييا
أو لمصر أو لغيرها تقاليد تخالف ما درج عليه في البلاد الأولى • ونعرف
أيضا أن أصحاب المذاهب المختلفة في البيئة الواحدة يختلفون في المذهب
ويتفقون في أسلوب الحياة ومظاهرها من لباس وعادات وتقاليد •
ولباس الإباضى الذى يعيش في الجزائر غير لباس الإباضى الذى يعيش
في تونس أو في ليبيا فإذا كان للطوارق عادات خاصة في أنواع اللباس
أو السلاح فإن من يعتقد المذهب الإباضى منهم يكون على لباسهم
وقيافتهم ولذلك ثلثو وقفت بين الطوارق أو في أى مكان لما أمكنك أن
تميز بين المذاهب بمظهر اللباس ولكنك تستطيع بسهولة أن تميز بينهم
من حيث اللباس فتعرف أن هذا طارقي وهذا جزائري وهذا
ليس الخ •

إن هذه النقطة أخذت منا أكثر مما تستحق وهى دليل واضح على
أن المستشرقين يعمدون إلى توافه الأمور فيوجهون إليها عنايتهم ويولونها
جانبا من الاهتمام يشغل ذهن القارىء العادى ويصرفه عما هو أجدى
له وأحق بمعرفته •

الصورة الثالثة :

يقول جوتيه — وهو يرسم هذه الصورة — في كتابه ص ٣٣٣ ما يلي :

« وقد تحدث ماسكوراى عن التشبه بين الإباضية والوهابية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، في أواسط شبه الجزيرة ، وكتب عنها بلغريف كتابا موفقا • ذلك أن الوضع الجغرافي متشابه فهنا وهناك نجد بدوا بعبيدين عن البحر يعيشون على قحط الصحراء ، فالبدوى الذى لا يسيطر على مدينة من المدن هو أشد الناس فقرا ، وهو ميال للعزلة والتشغف ، وشديد الشغف بالفضيلة • ذلك أنه يحول بؤسه لتطرف دينى » •

هذه صورة حرص المستشرقان ما سكوراى وجوتيه وغيرهما أن تكون صورة للإباضية عندما يكون الحديث عن الإباضية والخوارج عند ما يكون الحديث عن الخوارج وللأمة الإسلامية عامة عندما يتحدثون عن حركة للأمة الإسلامية أو فيها بل أن جوتيه يركز على هذا المعنى كثيرا في معالجه لقضايا الحركات الإسلامية سواء ما كان من الإسلام عامة ، وما كان منها من ذهب خاص • فهو يريد أن يصور المسلمين في جهيم الأحوال وعلى كل الأوضاع بأن طبيعة البداوة متأصلة فيهم • عندما يتحركون فهم إنما يتحركون بدافع الفقر والحاجة للحصول على ما يخففون به شغل العيش المؤلم والحياة القاسية التى يعانونها فاذا لم يتمكنوا من ذلك حولوا مظهر الحرمان الذى يحيون فيه الى شغل بالفضيلة ، أو الى تطرف دينى يندفعون باسمه للغزو والاحتلال •

وتتخلص الصور الثلاثة السابقة من المقارنات فيما يلي :

افتراض وجود شبه يدل على انحدار الطوارق في الإباضية استنادا على القيافة الموجودة الآن عند لطوارق مع افتراض وجودها عند الإباضية في قرون سابقة •

دعوى وجود ثقافة وعلم عند المرأة الطارقية تتفوق بها على المرأة في المغرب ودعوى وجود ثقافة عند المرأة الإباضية مما يقرب الشبه بين الطوارق والإباضية •

٣ — التشابه بين الإباضية والوهابية لأن كلا منهما يعيش في منطقة صحراوية يسود فيها القحط ويغلب عليها الفقر مما يحمل أهلها على التقشف الإجبارى أو الرغبة في الغزو باسم التقوى •

واحسب أن هذه الفروض وهذه المقارنات من أسوأ ما كتبه جوتيه في كتابه هذا • وإن كان في الكتاب كثير جدا مما أملاه التحامل وأوحت به الروح الاستعمارية المترفعة • لكن هذه الفقرات تدل — فوق كل ذلك — على السطحية والغباء •

مع كرو الفونسو نلينو

كتب المستشرق كرو الفونسو و نلينو بحوثا عن المعتزلة ناقش فيها ما يلي :

١ — أصل تسميتهم معتزلة •

٢ — اسم القدرية •

٣ — الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين في أفريقيا الشمالية •

٤ — حول فكرة غريبة منسوبة الى المحافظ عن القرآن •

وقد ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي هذه البحوث ونشرها ضمن بحوث أخرى المستشرقين في كتاب سماه (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) طبعة دار النهضة العربية — الطبعة الثالثة • من هذا الفصل أحب أن أقف مع القارئ الكريم قليلا عند الفقرة الثالثة • في البحوث (الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية في أفريقيا الشمالية) لمناقشة بعض آراء المستشرق الكبير في هذا الموضوع • يقول نلينو في هذا الكتاب ص ٢٠٤ مايلي :

« لاحظ جولد تسيهر في الموضوع المذكور آنفا (مجلة تاريخ الأديان المجلد رقم ٥٢ سنة ١٩٠٥ ص ٢٣٢) إن رسالة (العقيدة الإباضية) لعمر بن جميع التي نشرها موتيلتسكي تضعنا أمام أقوال ذات طابع معتزلي واضح ويورد شاهداً على ذلك ؛ المسائل الآتية :

١ — القرآن مخلوق •

٢ — ليس من الممكن رؤية الله في الآخرة •

٣ — تأويل بعض مسائل الحياة الأخرى تأويلاً مجازياً (الميزان والصراف) •

٤ — كل تشبيه ظاهر وبخاصة استواء الله على العرش — يجب تأويله تأويلاً مجازياً •

ولكن الاتفاق بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية في شمال أفريقيا يذهب الى حد أبعد مما ذهب إليه جولد تسيهر — فكلا المذهبين على اتفاق فيما بينهما وبين بعض ، وعلى خلاف مع أهل السنة في المسائل الآتية كذلك .

٥ — الله لا يغفر الكبائر لارتكبيها إلا إذا تابو قبل الموت .

٦ — عذاب النار أبدى حتى لارتكب الذنب من المسلمين . وهو إذا مات دون أن يتوب لا تنفع له شفاعة الملائكة أو الرسل أو الأولياء .

وبعد أن يورد أقوال بعض علماء الإباضية في الموضوع يقول :

٧ — « صفات الله ليست زائدة على ذات الله » . وبعد أن يذكر شرح الإباضية لهذا الأصل من أصول عقيدتهم يقول :

« وخلق بنا أن نلاحظ أيضا أن كتاب الشيخ عامر المذكور ، والذي يقصد به مؤلفه أن يتكلم عن الأصول التسعة التي كان عليها الخلفاء بين المسلمين يستعرض هذه الأصول على النحو التالي : (١) التوحيد (٢) المعدل (٣) القدر . . . الخ .

ويقول في صفحة ٢٠ ما يلي :

« ففى كتاب (أصول الديانات) للشيخ عامر بن الشماخى (١) وهو عمدة كتب الإباضية فى جبل نفوسة) .

(١) جاء فى هامش البحث تعليقا على العبارة السابقة ما يلى : كنيته أبو ساكن عاش فى القرن الثامن الهجرى ، راجع (السير) للشماخى ص ٥٥٦ — ٥٦١ مانه يقول عنه : « وهو اعتماد أهل المغرب فى وقتنا خصوصا نفوسة » قلت قد أخطأ المؤلف والمعلق فان هذه العبارة قيلت من كتاب الايضاح لا من كتاب الديانات .

وبعد مناقشة ليست طويلة ولا عميقة يخلص الى قوله :

فكان الجزء الأكبر من مذهب الإباضية في شمال أفريقيا إذا معتزلي فهل هم أخذوه ، وهم في الشرق من قبل أن ينزحوا الى بلاد المغرب ، أم هم تقبلوه في شمال أفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارسة من الشيعة ، وبمعتزلة إقليم طنجة القديم ، مدفوعين بعاطفة رد الفعل ضد أهل السنة ، أم أن إباضية المغرب أضافوا بعد في أفريقيا عناصر معتزلية جديدة الى ما كان في الأصل مشتركا بين المعتزلة وإباضية الشرق ، وأن مذهب الإباضية في الشرق سار ومذهب إباضية المغرب بخطى واحدة متساوية تحت تأثير معتزلي ؟

مما يدعو الى التأمل أن أغلب المستشرقين يتخذون أسلوبا متقاربا في مناقشة ما يعرض من المواضيع الإسلامية فيفترون فروضا أو دعاوى يعتبرونها في مرتبة الحقائق المسلمة التي لا تحتاج الى الجدل ، الأصول الثابتة التي لا يثور حولها خلاف • ثم يفرعون عن ذلك ما يخطر لهم من نقاش • وفي هذه القضية افترض المستشرق نلينو فروضا اعتبرها حقائق غير خاضعة للفتراض ثم يرتب عليها أحكاما ويبنى عليها صروحا • فهو قد افترض أن المسلمين ينقسمون الى معسكرين كبيرين متقاتلين على الدوام هي السنة والمعتزلة وأن جميع المذاهب الأخرى تعود في أصولها الى أحد هذين القسمين • وهو قد افترض أن كلا من هذين القسمين قد اتخذ له أصولا خاصة به يتميز بها فاذا وجدت تلك الأصول عند مذهب آخر فيعنى ذلك أنه أخذها من المذهب الأصلي • وهو في غمار هذا التأسيس يفترض أن إباضية المغرب أخذوا أصول عقائدهم من المعتزلة • وهو يعتبر

هذا الغرض حقيقة مسلمة ، ولذلك فقد ذهب يتحسس ويتلمس ليعرف كيف حصل إباضية شمال أفريقيا على عقائد المعتزلة .

إن الأساس الذى بنى عليه الأستاذ نلينو بحثه — وهو اعتباره أن المسلمين قسمان كبيران هما السنة والمعتزلة وأن كلا من القسمين قد اتخذ لنفسه مبادئ معينة محددة يتناولها على أسلوب محدد معين ويتلزم بها على نفس النمط والأسلوب ، وأن المذاهب الأخرى قد انشقت عن أحد هذين القسمين الكبيرين وأن فى إمكان الباحث أن يعيد أهل كل مذهب الى قسمهم الذى انشقوا عنه أو انفصلوا منه أو أخذوا عنه — أساس وهمى قام على مريضة ذهنية لا مكان لها فى الواقع ولا حقيقة لها فى الأحداث والتاريخ . رغم أن نلينو بذل مجهودا ملحوظا فى إقرار تلك الفرضيات واعتبارها حقائق ثابتة مما دعاه أن يحاول الجمع بين الشيعة والإباضية وإرجاعهم جميعا الى المعتزلة أحد القسمين الكبيرين بسبب خصومة الجميع لأهل السنة حسبما يزعم أو حسب فرض من فروضه الوهمية . يذكر المستشرق جولد تسيهر وهو يتحدث عن كتاب (عقيدة الإباضية) أن هذا الكتاب يحمل طابعا معتزليا لأن الكتاب يذكر بعض أصول عقيدة الإباضية وهى مشابهة لأصول عقائد المعتزلة . ويذكر الشواهد على ذلك ، غير أن المستشرق نلينو لا يكتفى بهذه العلاقة البسيطة التى لاحظها تسيهر — وإنما يكشف أن الأوجه التى يشابه فيها الإباضية المعتزلة هى أكثر مما لاحظها تسيهر ، وعليه فلا بد أن يكون الإباضية فى شمال أفريقيا قد أخذوا أصول مذهبهم فى المعتزلة . إنه أسلوب طريف فى بحث العقائد ، كأنما هذه الأصول حضرت فى جدول عمل ، وعقد من أجل مناقشتها عدة اجتماعات فاتخذ فيها المعتزلة قرارات تحدد آراءهم واتخذ أهل السنة كذلك قرارات تحدد أيضا آراءهم الخاصة بهم ثم انفض المؤتمر العام

عن ذلك • فمن تكلم بعد ذلك في هذه المواضيع فلا بد أن يكون من أحد فرعى المؤتمر أو أن يكون أخذ عنه • وبهذا يسهل على الباحث أن يرجع أى مذهب إسلامى الى أصله كما أرجع نلينو تلاقى الشيعة والإباضية الى المعتزلة •

لا شك أن الإشكالات التى تعلقت ببعض أصول العقائد • والأسئلة التى أثيرت حولها ، والمناقشات التى دارت فيها ، لم تكن وليدة يوم ، أو ناتجة عن جدول أعمال مدروس فى اجتماع ، أو بحث وضع له مجمع علمى منظم ليصدر فيه قرارات نهائية • إن شيئاً من هذا لم يكن أبداً ، وإنما كانت تثور المشكلة فى مكان فيتخذ فيها من حضر من العلماء موقف — معتمداً على فهمه لكتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله ﷺ ، ومواقف الصحابة رضوان الله عليهم إن كانت لهم فيها مواقف — وقد يحدث أن يخالفه فى موقفه ذلك عالم آخر فى نفس المكان ، وقد يحدث ألا يخالفه أحد • وتنتقل المشكلة لتثور فى موضع آخر قد يكون قريباً أو بعيداً فتعرض على عالم آخر يدرسها هو الآخر ويصدر فيها حكماً ، موافقاً أو مخالفاً للاول • وعلى هذا المستوى وهذا الأسلوب تكونت آراء الأمة فى مسائل العقائد ، بل وحتى فى مسائل الفروع • ما لم تحدده النصوص •

وأكثر هذه الأصول قد تحتل وجهين أو أكثر من الآراء — وأى عالم يصدر فيها رأياً معيناً قد يكون رأيه موافقاً تمام الموافقة لرأى عالم آخر فى جهة أخرى ، ولكنه يسمع برأيه ولم يعرفه ، وإنما اعتمد فى إصدار رأيه على نفس المصادر التى استمد منها الآخر رأيه ، واتحد معه فى الفهم والاستنباط • فهل من المحتم أن نقول أن أحد هذين العالمين قد أخذ عن الآخر ما دام رأى كل منهما موافقاً لرأى

الآخر وفهمه لفهمه • من المسائل التي أثرت في عهد مبكر جداً قضية
 القدر • وقضية جواز رؤية الباري جل وعلا • وقضية الكبيرة ومرتكبها •
 فكان لعلماء الأمة فيها مواقف حسب فهمهم لنصـوص الشريعة حين
 وصول المشكلة إليهم ، فكانت المشكلة من هذه تأخذ طورا في الجـدل
 والنقاش في أماكن مختلفة حتى تتبلور الى آراء محددة يقتنع بها الناس
 ويلتزمون بها • فالمشكلة من هذه تبدأ فردية يتناولها أصحاب الشأن بالبحث
 والدراسة والاستدلال • وقد تتفق الآراء ، وقد تختلف ، ويدين بكل
 رأى جماعة من الناس لاقتناعهم بقوة الحجة وسطوع البرهان ووضوح
 الدليل فيما يعتقدون •

ثم إن المذهبية أو (الحزبية الدينية كما يفهمها المستشرقون) لم يكن
 بهذا التمييز والوضوح الذي تعرفه لها اليوم ، لأن المذهبية في ذلك الوقت
 المبكر لم تتكون بعد • ويبدو لي أنك لو جئت في أواخر القرن الأول
 وأوائل القرن الثاني ووقفت عند باب مسجد تسأل كل خارج بعد
 الصلاة عن مذهبه لم تجد من يجيبك بقوله إنه سنى أو شيعى أو معتزلى
 مثلا • ولا من يقول لك إنه حنفى أو مالكى أو إباضى • لأن هذه المذهبية
 لم تتكون بعد • ولكنك لو سألت ما تقول في القدر فقد يجيبك برأيه سواء
 كان بإثبات القدر أو نفيه • وقد ينظر إليك في اشمئزاز وينصرف ، وهو
 يعتبرك من دعاة الفتنة وقد يحملق فيك بعينين فاحصتين ثم يمضى عنك
 لأنه لم يفهم ما تريد •

ومثل هذه الصورة تحدث لك لو أجريت التجربة فيما يتعلق بموضوع
 الرؤية فلو وقفت على باب مسجد تسأل كل خارج هل رؤية الباري جل
 وعلا ممكنة أو مستحيلة ، فإنك تجد من يجيبك بأن رؤيته تعالى ممكنة في

الدنيا والآخرة ، وإن سيدنا محمد ﷺ رأى ربه • ومن يقول لك أنها مستحيلة في الدنيا جائزة في الآخرة • ومن يقول لك أنها مستحيلة في الدنيا والآخرة • وتجد فيهم من يعرض عنك لأنه يعتبرك صاحب فتنة ، أو لأنه لا يفهم ما تريد • وقل مثل ذلك في مسائل العقائد التي أثرت حينئذ ، ولو أردت أن ينتسب لك كل واحد ممن سألتهم لم يمكنه ذلك لأن هذه التسميات المذهبية جاءت متأخرة حدثت بعد ذلك ولكنك لو سألت أى واحد عن رأيه في الموضوع أو عن أخذه الأجابك بأحد جوابين : إذا كان من أهل العلم يذكر لك النصوص التي استند عليها في فهمه وحكمه • وإذا لم يكن في هذا المستوى ذكر لك عالما من علماء المسلمين المنتشرين في كل البلاد الإسلامية في ذلك الحين • أو أجابك بأنه لا يفهم هذا •

إن الأصول التي يرجع إليها علماء المسلمين — في جميع ما يعرض لهم من في مشاكل بمختلف مذاهبهم متاحة لجميعهم • بدرجة واحدة ، وليس فيها ما يمنع أحدهم من دراستها والرجوع إليها ، فهي بقدر ما كانت متاحة للحسن البصرى كانت متاحة لواصل بن عطاء ، وسعيد بن المسيب ، وجابر بن زيد ، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم • وعندما تجد فهم أحد هؤلاء لنص من النصوص موافقا لفهم الآخر فليس من الضروري أن يكون أحدهما أخذه من الثانى ، لأن الأقرب الى العقل والمنطق والواقع أن يكون أحدهما أخذه من نفس النص واتفقهما في الفهم والاستنباط لا يعنى اعتماد أحدهما على الآخر أو الأخذ عنه • كما أنه لا يوجد ما يمنع من أن يأخذ أحدهما فهم الثانى أو رأيه إذا لم يكون هو نفسه رأيا أو فهما مخالفا •

أحسب أن هذا واضح لا يحتاج الى تدليل أو برهنة ، ولا يتطرق إليه احتمال النقاش •

ومما استند إليه نلينو - في حكمه بأن الإباضية في المغرب أخذوا قواعدهم عن المعتزلة - تشابه الغرض لتلك القضايا ، واتحاد الأدلة •

وفي هذا المنطق - كما أرى شئ من القرابة - وذلك أن عرض طريقة المشكلة - أية مشكلة - ليست طابعا مذهبيا مميّزا لا ينبغى للمذهب أن يتخلى عنه ، ولا يحق لغيره أن يتخذه • وإذا فرض أن عالما من مذهب معين وفق الى عرض مشكلة أو مشاكل بتنسيق أجود فليس مما يجعل الآخرين تباعا لهذا العالم إذا هم سلكوا نفس الأسلوب في العرض ، ولا يلزم أن يكونوا أخذوا منه رأيهم في المشكلة ، إذا اتحدوا معه في منهج العرض أو منهج الاستدلال • واستفادتهم • ومن الجائز أن آراءهم في الموضوع قد سبقته بعشرات السنين وأنهم عرضوها إما بهذه الطريقة ولكنها لم تشتهر عنهم أو عرضوها بطريقة تختلف وأنهم استفادوا من غيرهم في العرض أو الاستدلال واستفادتهم من جهد غيرهم في التنسيق دليل على التفتح وعدم التعصب ، لأن الاستفادة من جهود الآخرين وتجاربهم هي مزية البحث العلمي في كل ميدان • ومما استند إليه نلينو أنهم احتجوا بنفس الحجج التي احتج بها المعتزلة ، ويستنتج نلينو حكمه هذا مما لا حظه في شرح الثلاثي عن كتاب الديانات لعامر الشماخي • والشماخي من علماء القرن الثامن الهجري • أما الثلاثي فمن علماء القرن العاشر •

أود أن أناقش هذه النقطة بشئ من الإسهاب ، حتى يعرف القارئ الكريم • مدى سلامة حكم نلينو في هذه الملاحظة •

إن أي عالم من علماء المسلمين حين تثار أمامه • أو تعرض مشكلة ،

يتجه قبل أى شىء وقبل أى رأى الى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وعلى ما يتضح له من ذلك يقرر رأيه ، ويعلم عقيدته ، محتجاً ومستشهداً بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى الموضوع . والآيات والأحاديث الواردة فى أى موضوع هى واحدة والاحتجاج بها من أطراف متعددة ليس متشابها وإنما هو متحد ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

فهل من الضرورى أن يكون المعتزلة هم أول من تنبه إلى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فقالوا باستحالة الرؤية ، وأن كل من قال باستحالتها إنما أخذ عنهم هذا الاستدلال ؟ وهل من الضرورى أن يكون المعتزلة هم أول من انتبه إلى الآيات التى وصفت القرآن الكريم بأنه محدث ومنزل ومجموع وما إلى ذلك حتى يقال ان كل من قال بخلق القرآن إنما أخذ ذلك عن المعتزلة والدليل على أخذه عنهم هو تشابه الأدلة وما دام المعتزلة قد احتجوا بآية أو حديث فإن كل من احتج بذلك يكون أخذ عن المعتزلة .

لا شك أن فى هذا من الشطط والخلو والتحكم ما فيه ، من تضيق الواسع ، وتحجير العلم ما لا يتفق مع طبيعة علماء الإسلام فى عصوره الأولى المتفتحة المشرقة المتحررة .

لقد أثرت مشاكل أصول العقائد فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة كما قلت سابقاً ، ولم تكن حينئذ الكتل المذهبية قد تكونت بعد وتميزت ، وإنما كان أفراد العلماء يصدرون آراءهم ، كل حسب فهمه واجتهاده ، ومضت فترة من الزمن تبلورت فيها تلك الآراء واتخذت لها أشكالاً مختلفة واتضح منها أن عدداً من العلماء تلتقى آراؤهم فى أصل واحد أو أصول

معينة ، ثم نشأت بعد ذلك الطبقات المتعلمة المتعصبة فكانت المذاهب ونسبتها إلى أفراد من المجتهدين ممن اشتهر فيما بعد . ثم عمل هؤلاء على جمع الأدلة والبراهين لتأييد المذاهب التي يعتقدونها فأصبحت الأدلة ولا سيما الأدلة النظرية حقا مشاعا للجميع يجمع منها كل مذهبى ما يراه مؤيدا لمذهبه . وهذه الصورة تتضح عند المؤلفين المتأخرين من القرن الثالث فيما بعد ، ولا يستطيع الباحث أن يقول هذا برهان معتزلى أو إباضى أو أشعري أو ما تريدى .

ولو رجع نلينو في قضايا أصول علم الكلام لوجد التقارب بين الماتريدية والمعتزلة أكثر من التقارب بين المعتزلة والإباضية بل ربما يجد التقارب بين الأشاعرة والإباضية أكثر من التقارب بين الأشاعرة والماتريدية رغم أن كتاب المقالات وأكثر المؤرخين يحشرون الماتريدية في طابور أهل السنة ويحشرون الإباضية في طابور الخوارج وهاهو المستشرق نلينو يحاول أن يحشر الإباضية والشيعة في طابور فرعى ينفصل عن طابور المعتزلة . ولو تأمل الأدلة والبراهين التي يستند إليها كل من هؤلاء لوجدها تتفق وتتشابه في الأصل الذى يتفقون عليه ولربما كان أسلوب الماتريدية والمعتزلة في الاستدلال والمناظرة يجرى على منهج واحد في أكثر القضايا الكلامية .

فدعوى الأستاذ نلينو أن إباضية شمال إفريقيا أخذوا أصول عقيدتهم من المعتزلة دعوى لا تستند إلى أساس سليم . لا لأن الفرق الإسلامية لم يتأثر بعضها ببعض ، أو أن الإباضية لم يتأثروا بغيرهم من المذاهب الإسلامية أو يتأثر بهم غيرهم . فهذا زعم لا يخطر على البال . وإنما الذى أريد أن أنفيه في هذا الفصل هو زعم نلينو أن

الإباضية أخذوا أصولاً معينة من المعتزلة مع العلم أن هذه الأصول كانت مطروحة للنقاش — إن صح هذا التعبير — قبل أن تكون المذهبية الملتزمة وقد كان علماء الإباضية يناقشونها بنفس المستوى الذى يناقشها به علماء المذاهب الأخرى حين أثبتت * وحتى لو تحددت الأسبقية فى قول من الأقوال ونسبت إلى عالم معين من مذهب معين * فلا يعنى ذلك أن المذاهب التى جاءت من بعد واتخذت لها نفس الآراء ، أنها بالضرورة أخذت عنه لأنها فى الغالب تكون أخذت من نفس المصدر الذى أخذ هو منه — الكتاب والسنة — ونحن لا نزعم أن المعتزلة أخذوا من الإباضية لأن — وإصلاً بن عطاء — إمام المعتزلة كان تلميذاً فى مجلس الحسن البصرى حين كان إمام الإباضية جابر بن زيد زميل الحسن وصديقه قد استقر على عقائد محددة فى المشاكل التى أثبتت فى تلك الفترة واتخذ فيها موقفاً نقله عنه طلابه فلا شك أن جابراً سبق وإصلاً ولكننا مع ذلك لا ندعى أنه أخذ عنه * ولعل من الأمثلة التى توضح هذه النقطة هو موقف الإباضية والمعتزلة من مشكلة الرؤية مثلاً *

إن عقيدة الإباضية بأن إمكان رؤية البارى جل وعلا مستحيل فى الدنيا والآخرة كان واضحاً شديداً الوضوح فى النصف الثانى من القرن الأول وقد ناقشه بعض أئمة الإباضية وتأييد فيها موقفهم بتأييد بعض كبار الصحابة كعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس فهل يحق للباحث أن يزعم أن المعتزلة أخذوا رأيهم فى موضوع الرؤية من الإباضية لأن هؤلاء سبقوهم إلى ذلك القول ولأن المعتزلة يحتجون بنفس الأدلة التى يحتج بها الإباضية *

لا شك أن الباحث المنصف لا يستطيع أن يزعم هذا الزعم لأن

المصادر التي كانت موضوعة بين يدي جابر بن زيد ، والحجج العقلية التي استنبطها وهو يدرس هذه المشكلة كانت مطروحة بين يدي غيره من علماء الأمة • فإذا انتهى هو إلى رأى معين ، فليس من اللازم أن يكون كل من انتهى إلى ذلك الرأى آخذاً عنه •

بعد هذا ننتقل إلى مناقشة نقطة أخرى عرض لها أن الأستاذ نلينو ولم يكن - حسب نظرى - موافقاً فيها •

يصل نلينو بسرعة غير متوقعة إلى الحكم على أن الجانب الأكبر من المذهب الإباضى معتزلى ، وهو لكى يصدر هذا الحكم دون أن يتعرض لنقد لا يعرف مصدره ، يفصل إباضية شمال أفريقيا عن إباضية الشرق بدعوى أنه لا يملك مصادر عن إباضية الشرق تتيج له الحكم عليهم بحق • وتبدو هذه الدعوى غريبة ، فإن المستشرق الكبير لم يذكر من مصادر الإباضية المغاربة إلا كتاب عقيدة التوحيد لعمرو بن جميع وكتاب الديانات لعامر الشماخى بشرح الثلاثى وكل من الكتابين مختصر صغير جداً وضع للاستذكار فى صفحات قليلة لا تبلغ جميعها عشرين • ثم إن كلا الكتابين - إن صح أن نسميهما كتابين - من المؤلفات فى العصور المتأخرة أعنى بعد القرن السابع • وهذا يعنى أنها ألغت بعد التمييز المذهبى وعندما أصبحت حجج العقائد الدينية لمختلف المذاهب والعلماء معروفة ومدروسة ومنقولة يستعين بها من توافقه للاحتجاج بها ويذكرها من تخالفه لنقضها والرد عليها •

وإذا كانت هذه كل مصادره فإنه لا يملك مصادر عن إباضية شمال إفريقيا أيضاً اللهم إلا ما قاله عنهم غيرهم وهذا متوفر حتى بالنسبة

لإباضية الشرق ، لأن المصدرين اللذين اعتمد عليهما مختصران لا يعطيان صورة حقيقية للموضوع • وعلى كل فلا داعى أبداً للفصل بين إباضية المشرق أو إباضية المغرب ومع ذلك فقد وقع نلينو فى خطأ له قيمته فى هذا البحث فقد كتب أبو العباس أحمد الشماخى ترجمة للشيخ عامر الشماخى وتحدث عن كتابه الإيضاح — الذى يقع فى أربعة أجزاء ضخمة — ووصفه وقال عنه إنه — أى الإيضاح — هو اعتماد إباضية المغرب وهذا صحيح وكتاب الإيضاح كتاب فقه خالص يبدأ بالطهارات ولا يتعرض لمسائل علم الكلام ولكن نلينو — فيما يبدو ظن أن المقصود بهذه العبارة هو ذلك المختصر الذى يسمى بالديانات فجعله معتمد إباضية المغرب لاسيما نفوسة • وهذا الوهم يغطى كتاب الديانات حقيقة أضخم مما هو عليه فقد سبق الشيخ عامر فى موضوع العقائد وعلم الكلام عدد من أئمة العلماء كانت كتبهم مراجع له يستمد منها ويستند عليها وذلك مثل عبد الخالق القزائى وعمروس النفوس وتيجورين المشوطى وأبى عمار عبد الكافى والمارغنى وغيرهم • وقد استفاد الشماخى — ولاريب منهم جميعا ولخص عنهم مختصره (الديانات) • ثم إن المستشرق نلينو بعد أن عمل عملية الفصل بين إباضية المشرق والمغرب وزعم أنه لا يعرف عن أولئك ما يعتمد عليه للحكم عليهم ، وأنه يملك ما يعتمد عليه للحكم على تأثر هؤلاء بالمعتزلة ، وقد أثار مجموعة من الأسئلة تحتمل على عدد من الفروض •

١ — هل هم أخذوه وهم فى الشرق من قبل أن ينزحوا إلى بلاد

المغرب ؟

(م ١٨ — الإباضية)

٢ — أم هم تقبلوه في شمال إفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارة
من الشيعة؟

٣ — أم أن إباضية المغرب أضافوا من بعد في أفريقيا عناصر
معتزلية جديدة إلى ما كان في الأصل مشتركا بين المعتزلة وإباضية
الشرق؟

٤ — أو أن مذهب الإباضية في الشرق سار ومذهب إباضية المغرب
بخطى واحدة متساوية تحت تأثير معتزلى؟

إن موقف نلينو في هذه القضية غريب حقا فهو يفترض أن الإباضية
تأثروا بالمعتزلة وأخذوا عنهم ويجعل هذه الفرضية حقيقة ثابتة مهما كان
موقف الإباضية وهو لا يعرف كيف يبرهن أن الإباضية أخذوا من المعتزلة
ولكنه رغم ذلك يصر على هذه الفرضية ويعطى لها عددا من الاحتمالات :
أخذوها من الشرق ونزحوا بها ... تقبلوها في شمال إفريقيا عن طريق
الإدارة ... أضافوا إليها في المغرب عناصر معتزلية .. سار الإباضية
في المشرق والمغرب بخطى واحدة تحت تأثير معتزلى؟

ومع هذا الإصرار على هذه الفرضية يعترف أنه لا يعرف شيئا عن
مسلك الإباضية عموما في تقرير عقائدهم في تلك العصور الأولى التي كان
يثور عليها الجدل وتتقرر في قلوب الناس فهو يذكر أنه لا يعرف شيئا
عن مصادر إباضية المغرب فلم نتقعه يدها إلا على ملخصات مختصرة ألفت
في القرن السابع فما بعد .

كنت أحسب أن من يتعرض لموضوع سائلك مثل هذا يريد أن يثبت
أن إحدى الطائفتين كانت عالة على الأخرى ينبغي له أن يدرس دراسة

عميقة كل ما عند الطائفتين وأن يقارن المشاكل العقائدية بينهما مشكلة مشكلة ويتبع تطورها في البيئتين حتى يعرف أنها وليدة في بيئة معتزلية وانتقلت منها إلى الإباضية أو هي وليدة بيئة إباضية وانتقلت منها إلى المعتزلة أو أنها وليدة في كتلا البيئتين نمت فيهما حتى استقرت على وضعها الأخير. عن كليهما • ولكن نلینو لم يفعل شيئاً من هذا لأنه لا يعرف عن عقائد الإباضية شيئاً في خمسة قرون سابقة حتى عثر على ملخص العقيدة وملخص الديانات •

إن السؤال الأول من تلك الأسئلة يكاد يكون صورة هزلية مضحكة فهو يصور الإباضية لمجموعة من الناس — كمجموعات القبائل البدوية — قوضوا خيامهم وحزموا حقائبهم ، وركبوا جمالهم وخيولهم ثم ارتحلوا من المشرق إلى المغرب ولكن نلینو لم يتأكد حين ارتحلوا هل كانت معهم بعض هذه الخصائص الموجودة عندهم اليوم أم أنهم ارتحلوا متجردين ثم كونوا لأنفسهم هذه الخصائص الموجودة معهم فيما بعد • أعد قراءة الفقرة وتأملها إن شئت تتضح لك الصورة أكثر •

والسؤال بهذه الصورة وهذه الصيغة تعطينا انطباعاً معيناً عن تصور نلینو •

والسؤال الثاني يفترض أن الإباضية حينما ارتحلوا من المشرق إلى المغرب إنما جاءوا بدون أصول وإنما اقتبسوا لهم أصولاً في المعتزلة عن طريق الأدارسة من الشيعة أو من معتزلة طنجة مباشرة وإنما حملهم على إقتباس الأصول من هؤلاء ودفعهم إلى ذلك رد الفعل ضد أهل السنة واشتراكهم مع الشيعة والمعتزلة في مقاومة أهل السنة • الواقع أن هذا الكلام لا ينبغي الوقوف عنده طويلاً لأنه ليس فيه ما يستدعي ذلك

وهو مبنى على فروض وتقديرات وهمية ليس لها ما يبررها مطلقا فلا معنى لأن نفتروض أن الإباضية عندما — نزحوا — من الشرق تركوا هناك عقائدهم لأن الإباضية لم ينزحوا من الشرق إلى الغرب كمجموعات بشرية متنقلة ولكن الأصول التي يعتنقونها للعقائد قد انتشرت في المغرب الإسلامي عن طريق الأفراد سواء كانوا علماء جاءوا في الشرق أو وفودا طلابية ذهبوا من المغرب إلى المشرق فطلقوا تلك الأصول فيما تلقوه في علوم ثم عادوا به أو كان ذلك في صورة دعاة يدعون إلى تلك الأصول •

ولأن أصول العقائد ليست أمتعة ثقيلة يتخفف منها من يريد أن يرتحل يتخذ بدلها عندما يستقر في مكانه الجديد فحتى على فرضية وقوع هذه الصورة التي تخيلها نلينو وهو ارتحال الإباضية من المشرق إلى المغرب لا يمكن أن يدخل في التصور أنهم ارتحلوا بدون عقائد فلما وصلوا إلى المغرب جعلوا يستميرون أو يقتبسوا أو يسترقون • ان العقائد محلها القلوب وهي لا تخرج عنها في حل ولا ترحال •

ولا معنى لأن نفترض أن رد الفعل حمل الإباضية على اقتباس أصول المعتزلة من الأدارسة الذين اقتبسوها هم الآخرون عن المعتزلة • وهذه السلسلة من الافتراضات • في الحقيقة — موزعة في الخيال ، فإن أدنى من عنده إلمام بتاريخ المغرب الإسلامي يعرف حقيقتين لا تقبلان النقاش •

الحقيقة الأولى أن الإباضية قد انتشروا في المغرب الإسلامي اجتداء من ليبيا إلى الأجزاء الشرقية من المغرب الأقصى قبل الأدارسة

بزعم طويل ، وقبله أن يصل مؤسس دولة الأدارسة إلى المغرب سنة ١٧٢ هـ كان الإباضية. قد قاموا بأربع محاولات لإقامة دول كانت ثلاث منها في ليبيا وكانت المحلولة الرابعة هي قيام الدولة الرستمية التي انتصبت في تاهرت قبل اثني عشر عاما من قيام الأدارسة وكانت قد استقرت وكمل نظامها واستتب لها الأمن ومعنى هذا أن الإباضية بعقائدهم وفقههم في التشريع والسياسة قد استقروا وثبتوا عليها وفرغوا من دراستها قبل مجيء الأدارسة من الشيعة إلى المغرب الإسلامي . فكيف يتسنى لهم أن يكونوا رابطة لانتقال العقديين المعتزلة والإباضية . ؟ الحقيقة الثانية أن التجهم والتباعد الذي كان بين الإباضية والشيعة . أقوى وأوضح من التجهم أو التباعد الذي كان بين الإباضية وأهل السنة أو المعتزلة . والمؤرخون الذين تحدثوا عن الدولة الرستمية وهي إباضية ذكروا بإسهاب واختصار كثيرا من المناقشات ومجالس المناظرات التي كانت تقع في تاهرت وهي عاصمة الإباضية في ذلك الحين كانت تجري بين الإباضية وبعض مذاهب أهل السنة وبين الإباضية وبعض فرق المعتزلة أو بين بعض مذاهب أهل السنة و فرق المعتزلة أو حتى بين بعض فرق أهل السنة كالأشاعرة والماتريديه .

ولم تذكر مصادر التاريخ التي بين أيدينا أية مناظرة أو نقاش جرى بين الإباضية وأحد من الشيعة وهذا يدل على الانقطاع الكامل بين المذهبين أو الفرقتين . فدعوى أن الإباضية أخذوا من الشيعة أو أن الشيعة أخذوا من الإباضية كلام لا يجد لنفسه أي مستند يقوم عليه ، أضف إلى هذا أنك لو أخذت أي كتاب من كتب الإباضية المطولة سواء كانت في أصول العقائد أو كانت في الفقه فإنك تعثر فيها على كثير من آراء

المعتزلة أو أهل السنة سواء كان ذلك في معرض الاستدلال وعرض الآراء ، أو في معرض النقد والرد ، ولكنه يندر أن تجد في كتب الإباضية شيئاً عن آراء الشيعة . ويبدو من هذا أنه لم يكن في المغرب أى احتكاك بين الإباضية والشيعة يسمح باقتباس أحدهما عن الآخر ، فضلا عن أن يكون وسيلة لاقتباس آراء الآخرين . أما الجدل بين الإباضية والمعتزلة فقد كان عنيفا في الشرق والغرب ، ولعل الجدل قد بدأ بين الإباضية والمعتزلة قبل أن يبدأ بين المعتزلة وأهل السنة . وكتب التاريخ والعقائد تذكر طرفا من تلك المناظرات ، حينما تذكر مواضيعها وبعض ما جرى فيها ، وأحيانا تشير إليها إشارة أو تقتصر على ذكر أسماء المتناظرين من المذاهبين وهذا يدل أن المذهب الإباضى قد استقرت نظريته على الأصول التي اقتنع بها عند التمييز المذهبي في القرن الثانى الهجرى وليس به حاجة إلى التأثير والاقْتباس .

أما السؤال الثالث فهو أيضا يفترض أن تلك المجموعة البشرية التي نزلت من الشرق قد حملت معها بعض معتقداتها ولكنها أيضا أضافت إليها من عقائد المعتزلة في المغرب . وقد ناقشنا هذه الافتراضات في الصور السابقة فلا داعى لأن نعود إليها .

أما عن السؤال الرابع فهو يفترض أن المذهب الإباضى في الشرق وفي المغرب سار بخطى متحدة بتأثير معتزلى .

إن نلینو قد حكم أن إباضية المغرب أخذوا أصولهم العقائدية عن المعتزلة ، وقد استقرت في ذهنه هذه الفرضية فهو لا يريد أن يناقشها وكأنما اعتبرها حقيقة ثابتة فذهب يتلمس الطرُق التي تسربت معها

آراء المعتزلة إلى الإباضية فجعل يتخبط بين مجموعة من الفروض لا تقوم على أى أساس •

ويقول الأستاذ نلينو ص ٢٠٧ ما يلي :

« إلا أن هناك مسألتين اختلف فيهما مذهب الإباضية في شمال إفريقيا عن مذهب المعتزلة ، أولاهما بالضرورة هي تلك المتعلقة بالطريقة التي يعتبر بها مرتكب الكبائر : وإلا كان على الإباضية — وهم خوارج — أن ينكروا أصلهم إنكارا تاما إن شاءوا إن يعتبروا مرتكب الكبيرة المسلم مؤمنا كما فعل أهل السنة والجماعة أو إن قالوا بالمذهب القائل بأن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا كافر • بل هو في منزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة » • وبعد أن يورد كلاما لبعض علماء الإباضية في مناقشة الموضوع يقول :

« والمسألة الثانية التي كانت موضوع الخلاف بينهما هي مسألة القدر وحرية العبد في أفعاله ، فالمعتزلة يقطعون بحرية العبد بينما يقول الإباضية في شمال إفريقيا بالحرية المحدودة في صورة الكسب أو الاكتساب عند الأشاعرة » •

إن الالتواء في منطق نلينو — وهو يعالج هذا الموضوع — واضح بين فهو عندما لم يجد ما يتحملة مبررا للبعد بين آراء الإباضية والمعتزلة في : قضيتي مرتكب الكبيرة والقدر ، التجأ الى التحاليل في التبرير ، فزعم أن الإباضية إنما خالفوا المعتزلة في موضوع مرتكب الكبيرة حفاظا على أصلهم باعتبارهم (خوارج) ولا بد أن نلينو يعرف معرفة تامة أن الإباضية يختلفون اختلافا كبيرا عن الخوارج في هذه القضية — بل لعلها أشد مواضع

الخلافاً بينهم وأكثرها إثارة للخصومة والعنف أحياناً — فبينما يحكم الخوارج على مرتكب الكبيرة بأنه مشرك تنطبق عليه أحكام المشركين — وينفذون تلك الأحكام عليه — لا يرى الإباضية في مرتكب الكبيرة إلا أنه أخ لهم في الإسلام له جميع حقوق المسلمين وتطبق عليه جميع أحكام المسلمين ، إلا أنه بارتكابه للمعصية يستحق منهم الجفاء والمخاشنة في المعاملة ولا يستحق منهم الاستغفار — وما إلى ذلك مما لا يكون أهلاً له إلا الموفى بدينه الحريص على إسلامه — حتى يتوب •

ولكن نلینو يتغاضى عن هذا الفارق الهام — في موضوع ارتكاب الكبيرة — بين الإباضية والخوارج ويبنى حكمه على أن الإباضية خالفوا المعتزلة في هذه المسألة حفاظاً على أصلهم • مع العلم أن هذا الأصل الذي يشير إليه نلینو لا أصل له عند الإباضية ، ولم يقوموا به في يوم من الأيام ولا أحسب أحداً ممن ينتسب إليهم في القديم أو الحديث ذهب إليه • بل إن كتب التاريخ وكتب العقائد تذكر أن عبد الله ابن إباض حكم على نافع وأصحابه بالكفر بعد الإسلام بسبب قول نافع في مرتكب الكبيرة إنه مشرك وقد كانت شدة خصومة الإباضية للخوارج في موضوع مرتكب الكبيرة لا تضارعها عنفاً إلا خصومتهم للمعتزلة في موضوع القدر وخصومتهم للامويين في خروجهم في أحكام الشريعة وإذا كانت قضية مرتكب الكبيرة هي أهم ما يميز الخوارج فإن الإباضية — فيها — يخالفون كل المخالفة ما عند الخوارج وقد أورد نلینو في كتاب الديانات لعامر الشماخي جملة مبتسرة ظهر أنها تفي بالفرض وتدل على المقصود ولكن الجملة ناقصة لأنه نقل شطراً منها وترك الشطر الآخر والتعبير السائد في جميع كتب العقائد بما فيها كتاب الديانات : « وندین بالمنزلة بين المنزلين ، وأن لا منزلة بين منزلتين » •

وشرح هذه العبارة باختصار أن الإباضية يدينون بأن هناك منزلة بين الشرك والإيمان هي منزلة النفاق أو كفر النعمة • فقد يكون الرجل ليس مشركاً وليس مؤمناً وإنما هو منافق أو كافر كفر نعمة • وهذا الصنف من الناس داخل مع المسلمين في جميع المعاملات والأحكام الدنيوية كما كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين ومع مرتكبي الكبائر (كفار النعمة) وهذا معنى قولهم تدين بالمنزلة بين المنزلتين •

أما العبارة الثانية : أن لا منزلة بين المنزلتين فيقصدون بذلك أنه لا توجد منزلة بين الإيمان وبين النفاق أو كفر النعمة فالرجل السذي يقر بكلمة الشهادة إما أن يوفي بها فيكون مؤمناً وأما أن يخونها بالعمل أو الاعتقاد فيكون منافقاً (كافراً كفر نعمة) وليس بينهما مرتبة أو درجة • وملخص هذا عند الإباضية أن الناس قسمان : مسلمون ومشركون : المسلمون هم الذين أقرروا بكلمة التوحيد وهم قسمان : قسم وفى بما عليه الله قولاً وعملاً واعتقاداً وقسم خان فى بعض ذلك فالأولون هم المؤمنون والآخرون هم المنافقون أو كفار النعمة أو الفساق أو العصاة هؤلاء جميعاً تنطبق عليهم أحكام واحدة فى الدنيا ويتساوون فى الحقوق والواجبات اللهم إلا الاستغفار فإنه حق للمؤمنين فقط •

أما المشركون فهم غير المسلمين سواء عبدوا الأصنام أو عبدوا الطبيعة أو لم يعبدون شيئاً أو كانوا أهل كتاب فتمسكوا بدينهم الباطل ولم يؤمنوا بالإسلام وهؤلاء كلهم تنطبق عليهم أحكام الشرك اللهم إلا بعض المزايا أو الاستثناءات التى جعلها الله لأهل الكتاب أحسب أن هذا يكفى لايضاح هذه النقطة وربما تناولتها بمزيد من التفصيل فى فصل آخر معتمداً على النقول والنصوص •

أما القضية الثانية التي أشار إليها نلينو — وهي قضية القدر — فلم يجد قيما يبدو أى شىء يستند إليه ولذلك فقد عرضها ثم تركها دون أن يقول عنها شيئاً •

ولا شك أن سؤالاً لا يتردد في ذهن القارئ وهو يقرأ ما عرضه نلينو يقول : ما دام الإباضية قد أخذوا جميع أصولهم في التوحيد عن المعتزلة ، ولم يخالفوهم إلا في حكم مرتكب الكبيرة حفاظاً على الأصل — أو في القدر فلماذا لم يأخذوا عنهم أيضاً رأيهم في القدر • وهو سؤال سيقى بدون جواب لأن الشخص الوحيد الذى يمكن أن يجد له جواباً هو المستشرق الكبير نلينو ونلينو قد انتقل الى عالم غير هذا العالم •

ويختتم الأستاذ نلينو بحثه بما يلى :

ليس لدينا في المصادر المطبوعة ما يسمح لنا بتعيين الزمن الذى اتخذ الإباضية المغاربة أقوال المعتزلة المذكورة آنفاً وكل ما نعرفه في يقين هو أن القول بأن القرآن مخلوق قول قال به السلطان الرستمي في تاهرت أفلح بن عبد الوهاب الذى حكم بين سنة (١٩٠ — ٢٤٠) كما يستنتج من صفحة ٥٤١ تعليق ١ — من كتاب موتيلنسكى ، وإن مذهب الإباضية المغاربة قد يكون نهائياً في القرن السادس الهجرى والثانى عشر الميلادى •

المستشرق نلينو يعترف أنه ليس لديه من المصادر المطبوعة ما يستطيع أن يعين به الزمن الذى اتخذ فيه الإباضية المغاربة أقوال المعتزلة • فما هي المصادر التى استطاع — اعتماداً عليها — أن يقرر أن الإباضية في المغرب قد أخذوا أصولهم من المعتزلة ؟

إذا كانت المصادر غير متوفرة لديه فكيف استطاع أن يكون رأيه على هذا الوجه • ولم لا تكون الحقيقة على الوجه العكسي (١) ؟ أى أن المعتزلة هم الذين أخذوا أصول عقائدهم من الإباضية إذا كان لا بد من افتراض أخذ أحدهما عن الثاني ؟

والحقيقة — كما ذكرنا أكثر من مرة — أن الافتراض بأن أحد المذهبين أخذ أصوله من الثاني لا أساس له ولا داعى إليه واعتراف نلينو بعدم توفر المصادر لديه اعتراف سليم وصحيح • لأن مصادر الإباضية التي ذكرها لا تتيح له أن يحكم حكما سليما في الموضوع الهام الذي تحدث عنه • فهو لم يذكر إلا عقيدة التوحيد لا بن جميع وهي متن وضع للحفظ والاستظهار وما يعالج منها قضايا التوحيد الصرفة لا يعدو صفحتين أو ثلاثا وكتاب الديانات لابن ساكن الشماخي هو الآخر متن وضع للحفظ والاستظهار لا يتجاوز صفحتين أو ثلاثا وقد وضع عليه الثلاثي شرحا لغويا موجزا لا يتعرض للقضايا الكلامية إلا نادرا •

أما كتاب المصعبى وهو شرح لقصيدة أبى نصر الموشانى — والقصيدة أيضا متن وضع للحفظ والاستظهار فقد عنى العناية الكاملة بالجوانب اللغوية والبلاغية ثم يذكر مجمل المعنى بإيجاز وهكذا فى أغلب الأحوال فإذا ناقش بعض المواضيع لم يتعرض لتاريخها ولا لحركة النقد والرد والأخذ والعطاء التي رافقت تلك المواضيع عند تكونها • وجميع هذه المؤلفات كانت بعد القرن السابع الهجرى وبعد التمييز المذهبى

(١) يقول استاذنا الفاضل الامام : بيوض ابراهيم بن عمر فى جواب له عن سؤال للسيد منير عبد القادر سلطان ما يلى :
« وبناء على ما تقدم يمكن أن تعتبر الإباضية استاذة الفرق الاسلامية فى تأصيل قضايا العقيدة » •

والاستقرار العقيدى لجميع الفرق الإسلامية • فهي لا تعنى غالباً بعرض الأدلة المتداولة التي تؤيد وجهة نظر معينة • ولا شك أن تلك الكتب لا يهمها أن تعرف أول من احتج بدليل ما لأن جميع الأدلة والبراهين في ذلك الحين أصبحت حقاً مشاعاً بين علماء كل الفرق • وهذا الموقف — بطبيعة الحال — لا يساعد على معرفة تكون الآراء والعقائد متى حدث ؟ ولا على الأصول التي انبنت عليها • ولا من سبق إليها ومن اقتبس منه •

بقيت نقطة أخيرة ينبغي أن نمر بها قبل أن نختم هذا الفصل هذه النقطة هي دعوى نلينو أن المذهب الإباضى تكون نهائياً في القرن السادس الهجرى فماذا يعنى بالتكون النهائى • وما هي المصادر التي استند إليها في هذا الحكم ؟ إذا كان يعنى بالتكون النهائى — الانتشار العددي ، فإن الإباضية قبل هذا التاريخ بقرن أو قرنين كانوا أكثر انتشاراً في المغرب الإسلامى وتوزعا فيه • وأنهم في هذا العصر — القرن السادس — قد تقلصوا الى التجمع في بعض الواحات فقط • وإن يكن المقصد هو التكون العلمى في مسائل الفروع والاجتهاد فإن هذا التكون لم يتم حتى الآن ولن يتم أبداً لأى مذهب من مذاهب الإسلام لأنه يسير مع الحياة ويتجدد مع الأحداث التي تتطلب من أولى الاجتهاد إعطاءها أحكامها الشرعية • حتى تنتهى حياة الإنسان أما إذا كان يقصد بذلك تكون أصول العقائد وهو المتبادر الى الذهن فالمستشرق نلينو ليس لديه المصادر الكافية — كما يقول — يمكن أن يبنى عليها حكمه ، فكيف يحدد هذا بالقرن السادس • وهو لا يعرف متى اتخذ الإباضية هذه الأصول عقائد لهم ، سواء استنبطوها من المصادر الإسلامية الأصيلة أو اقتبسوها من غيرهم — المعتزلة أو الشيعة — والحقيقة أن نلينو لو وجد في البحث قليلاً لوجد أن كثيراً من كتب علم الكلام قد ألفت قبل هذا العهد بأزمته. طويلة قد تتجاوز

القرنين • منها المختصر ومنها المطول ، كما أن حلقات المناظرة والنقاش كانت لا تنفك تجرى بين الإباضية والمعتزلة قبل هذا الأوان بمدة وأنها بلغت من العنف في عهد الدولة الرستمية ما جعلها تستقدم علماء للجدل والمناظرة من ليبيا إلى الجزائر •

ثم إن الإمام عبد الرحمن بن رستم أجد حملة العلم إلى المغرب كان طلبه أبي عبيدة في البصرة ولا شك أنه حضر كثيراً من مجالس الجدل والخصومة بين الإباضية والمعتزلة وبين الإباضية والخوارج أما الأشاعرة فلم يظهروا بعد في ذلك الحين بل إن أبا عبيدة هو الذي طرد من مجلسه من يقول بالقدر وهكذا يتضح أن أصول عقائد الإباضية في المشرق والمغرب قد تم تأصيلها والإستدلال عليها في عهد الأئمة — جابر وزملائه ثم في عهد أبي عبيدة وزملائه وعندهم نقلها طلاب العلم إلى المشرق والمغرب ربما قبل أن يتم تأصلها عند المعتزلة وبالتأكيد قبل الأشعرية ولا شك أيضاً أن من جاء بعد الأئمة الأولين قد استفاد من بقية علماء الأمة وفرقها ، وربما اقتبس منهم حجة أو دليلاً أو أسلوباً فأضافه إلى ما عنده من حجج وأدلة •

ولعل مما يفيد القارئ أو يهمه أن نقل له فقرات من رسالة أستاذنا الفاضل الإمام بيوضى إبراهيم بن عمر — مد الله في حياته — التي أجاب بها عن أسئلة الأستاذ منير عبد القادر سلطان • فيإلى القارئ الكريم منها ما يلي :

« وتعلمون أن أول مسألة عقائدية اتهترق بسببها المسلمون (بعد —
الخلافة السياسي الذي بدأ في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان)

هى مسألة القدر التى عبرتم عنها فى كتابكم (الإرادة الإنسانية والعدل الإلهى) والذى تولى كبرها واصل بن عطاء الغزال إمام الواصلية أو المعتزلة ، ثم مسألة تحديد معنى الكفر والإيمان والمنزلة بين المنزلتين ولا منزلة بين المنزلتين والى تولى كبرها هم الخوارج المستحلون الأموال البغاة من المسلمين وسبى ذراريهم تبعا لدمائهم إذا حلت بالبغى • ثم مسألة خلق القرآن أو قدمه ، التى أثارها أو شاعر الديصانى الفارسى الذى تظاهر بالإسلام ليفتن المسلمين ويفرق كلمتهم ، فاعتز به المغفلون من الدهماء وأثاروها فتنة شعراء •

فأما واصل بن عطاء فقد قال عنه الشهرستانى صاحب الملك والنحل :
الواصلية أصحاب أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزالى كان تلميذ الحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والأخبار وكان فى أيام عبيد الملك وهشام بن عبد الملك • ا ه • وولاية عبد الملك — كما يذكر المؤرخون كانت سنة خمس وستين ، ووفاته سنة ست وثمانين وولاية هشام من ١٠٥ الى ١٢٥ فيكون اتصاله بالحسن البصرى فى النصف الأخير من عمره • ويروى — كما ذكر الشيخ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم فى كتابه (الدليل والبرهان) — إن واصل بن عطاء لزم مجلس الحسن البصرى عشرين سنة قبل أن يعتزله • لا نعلم على وجه التحديد السنة التى اعتزل فيها واصل مجلس الحسن ويستفاد من مجموع الروايات والتواريخ إن ذلك كان فى أواخر أيام الحسن وفى أواخر القرن الأول للهجرة وعلى ذلك يكون إمام الإباضية متقدما (١) كثيرا على إمام الواصلية المعتزلة • وتكون فلسفة الإباضية فى

(١) ولد جابر بن زيد سنة ١٨ هـ وتوفى سنة ٩٣ هـ على ما رجحه الإمام بيوض ولا أعرف متى ولد الحسن البصرى ولكنه توفى عام ١١٠ هـ وولد واصل بن عطاء سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٣١ هـ .

الإرادة الإنسانية والمعدل الإلهي (القدر) قد تبلورت قبل أن يظهر راصل .
ابن عطاء لذهبه » •

وبعد أن يشرح فلسفة الإباضية في القدر يقول :

« وعن هذه الفلسفة كان الإباضية ينافحون ويكافحون ، ضد الفرقتين
الضاليتين اللتين أحدثتا بدعة الجبر ، وبدعة خلق الأفعال » •

فأنت ترى أن المذهبين حادثان وأن فلسفة الإباضية أقدم منها ،
وهي متمسكة بالأصل الذي سبق الإجماع عليه •

وأما بدعة الخوارج الذين جعلوا المعاصي كلها شركا يحل بها
الدم والمال وسبى الذرية فإنها محدثة كذلك • وكان جابر بن زيد ، وأبو
عبيدة مسلم من أكبر تلامذته وعبد الله بن إياض وغيرهم من أتباع الإمام
جابر يناظرون الخوارج • وقد نقلنا فيما نقلناه لك قبل • قول صاحب السير
في عبد الله ابن إياض : وله مناظرات مع الخوارج وغيرهم ا ه • وفي السير
أيضا ٧٦ قال ضمام : كان جابر يأتى الخوارج فيقول لهم : أليس قد

وبهذا تعلم أنه عندما توفي امام الإباضية جابر بن زيد كان راصل بن
عطاء مراهقا دون البلوغ • وأنه لا يزال في الخطوات الأولى من الدراسة وإذا
صح أنه لازم الحسن البصرى مدة عشرين سنة فإنه يكون قد التحق بمدرسته
وعمره أقل من عشر سنوات ضرورة أنه انفصل عنه قبل وفاته ومهما يكن
فإن جابرا كان قد بلغ الى حد الاستقرار في تلك المشاكل وإن راصل لم يبدأ
التفكير فيها بعد • أما ما ذكره الشهرستاني عن وجود راصل أيام عبد الملك
مغير واضح لأن عبد الملك توفي سنة ٨٦ هـ وعمر راصل حينئذ يكون ست
سنوات • وغير معقول أن يكون راصل في تلك السن المبكرة قد اشتهر وعرف
في المجالات العلمية •

حرم الله دماء المسلمين بدليلته . . . الخ ا ه . فأنت ترى أن جابر أسبق هذه الفرق وكان يناظرها ، وسلك تلامذته طريقته هذه في المناظرة في حياته وبعد وفاته » . ثم عرض لموضوع خلق القرآن : فشرح رأى الإباضية في الموضوع بإيجاز ووضوح ثم قال : « وبناء على ما تقدم يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية في تأصيل قضايا العقائد » . انتهى المقصود منه .

ويسرنى في ختام هذا الفصل أن أذكر بالثناء الجم . هذا المجهود القيم الذى بذله المستشرق الكبير نلينو فى هذا البحث الذى كان يهدف منه - فيما يبدو - الى كشف علمى محض ولا يضير هذا المجهود القيم أننا نختلف معه فى بعض الكليات أو الجزئيات ، أو وجهات النظر ، وأن ما كان هو مقتنعاً به ويراه حجة ، لم نقنع نحن به ، ونراه شبهة تتضاعل عند المناقشة والبحث ، فإن الإخلاص العلمى فى البحث والتجرد له ، كفىل بأن يبعث على الشكر والتقدير .

وهذا ما بدا لنا فى أسلوب نلينو وهو يعالج هذه القضية فنحن نشكره على المجهود القيم . ونختلف معه فى افتراضاته ونتائجها .

اللقاء بين الإباضية وأهل السنة (١)

إن المسائل التي لخصها المستشرق نلينو في سبع نقاط ثم ذكرها كنماذج للخلاف والتباعد بين الإباضية وأهل السنة وزعم أن الإباضية فيها قد تأثروا بالمعتزلة أو استمدوها منهم — هي في الواقع مسائل أخذت كثيراً من الجهد والوقت بين علماء المسلمين كافة بمذاهبهم المختلفة وقد جرى فيها النقاش الدقيق بين علماء المذهب الواحد كما جرى بين علماء المذاهب المختلفة ومحاولة تصوير المذاهب الإسلامية كمعسكرات متناحرة محاولة يسر لها المستشرقون كثيراً ويعملون على تركيزها وقد ساعدتهم على ذلك بعض السطحيين من علماء المسلمين في القديم والحديث * ويمثل هذا صارت تلك المسائل بمثابة الشعارات التي يرفعها أصحاب المذاهب ، وكان المتعلمون في المراحل الأولى من الطلب وأشباه العلماء من محبي الظهور يجدون فيها وسائل طيبة ومساعدة على الجدل والشغب والشهرة وحب الظهور تماما كما يجد العوام في بعض الخلافات الفقهية العملية — كرفع الأيدي عند التكبير ، وتحريك السبابة عند التشهد ، وقراءة البسملة

(١) قال الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه اسلام بلا مذاهب طبعة دار النهضة العربية ص ٣٤٩ ما يلي :

« على أن الشيء الجدير بالمعرفة والاعتبار أن هؤلاء الأئمة ممن ذكرنا لم يعرفوا في زمانهم أو بعده بعدة قرون باسم أئمة أهل السنة ، وإنما كانوا أئمة لعامة المسلمين الا من رأى غير رأيهم . ذلك أن تسمية جمهرة المسلمين بأهل السنة تسمية متأخرة يرجع تاريخها الى حوالى القرن السابع الهجرى اى بعد عصر آخر الأئمة المشهورين وهو ابن حنبل بحوالى أربعة قرون . »

(م ١٩ — الإباضية)

في أول الفاتحة - وسيلة لإظهار المعرفة وبيان شدة التمسك بالدين
والمحافظة على السنة .

فإذا ارتفعنا عن هذه المستويات قليلا إلى مستوى أهل العلم
وأصحاب التحقيق وجدنا هذه المسائل تدور فيما بينهم على طرفين متطرفين
ووسط معتدل يلتقى عليه المذهبان . ولعل أولئك العلماء الذين يتكون
منهم الطرف المعتدل هم المحققون حقيقة وأن الطرفين المتطرفين قد أثرت
عليهما مؤثرات ذهبت بهما إلى حيث انفتحت بسببهما بين صفوف الأمة
ثغرة وجد فيها أصحاب المصالح الخاصة من المسلمين وغيرهم مدخلا لشق
العصا وتفريق الكلمة . وبقطع النظر عما إذا كان الإباضية تأثروا في
النقاط السابقة بالمعتزلة أو لم يتأثروا بهم وهل هم يتفقون فيها معهم
كل الاتفاق أو يختلفون اختلافا جزئيا أو كليا فيأى أحب أن أعرض
في هذا الفصل على القارئ الكريم وجوه اللقاء بين الإباضية وأهل
السنة في هذه المسائل نفسها . وسوف نعرضها في إيجاز شديد نقطة
نقطة كما ذكرها نلينو فيما يلي :

١ - القرآن مخلوق أو قديم .

بدأ الشغب حول هذه الكلمة حين أثارها أبو شاعر الديصاني حسب
ما يقول بعض أصحاب المقالات فقال بعض الناس عنه إنه مخلوق! وقال
آخرون غير مخلوق أو قديم واشتد الجدل بين الطرفين ، فتطرف جانب
حتى زعم أن المصاحف والحروف قديمة وتطرف الجانب الآخر حتى نفى
صنعة الكلام عن الله تبارك وتعالى وكان بين مجموعة الآراء آراء تقترب
من هنا أو من هناك . وقد انتهى المحققون من الإباضية وأهل السنة
إلى معرفة ما ينبغي أن يوصف بالقديم وما ينبغي أن يوصف بالحدوث
فأثبتوا لله تبارك وتعالى صفة الكلام وقالوا هي صفة ذات كالسمع

والبصر والعلم وعبر عنها بعضهم بالكلام النفسى وما عدا ذلك فهو حادث
 وظهر لهم أن الخلاف بينهم خلاف لفظى - إذا أهملنا جانبى
 التطرف - وزيادة على هذا اللقاء على مستوى التحقيق فإن من علماء
 أهل السنة من يقول دون تحرج أو احتراز القرآن مخلوق فقد ذكر
 الخطيب البغدادى من طرق متعددة عن أبى يوسف أن أبا حنيفة كان
 يقول القرآن مخلوق أما أبو منصور الماتريدى فقد كان يقول إنه
 محدث ولم يحفظ عنه أنه قال مخلوق * وقد كان أبو النضر العمسانى
 من أئمة الإباضية يقول إن القرآن غير مخلوق وأنكر إنكارا شديدا على
 من يقول بخلق القرآن * وذهب القطب من أئمة الإباضية أن هذه
 المسألة ليست من الأصول وقال أبو إسحاق طفيش إن الخلاف فيها
 لفظى * وهذا القدر كاف للدلالة على اللقاء بين المذهبين فى هذه المشكلة
 التى أخذت جهدا غير قليل من علماء الأمة واعتبار الخلاف فيها خلافا
 لفظيا حين تجرد من أطراف التطرف والعصبية * ويكفى أن يلتقى
 المسلمون على حقيقتين فى هذا الموضوع هى أن الله تبارك وتعالى
 سميع بصير متكلم * وأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل أنزله على
 رسوله صلى الله عليه وسلم *

٢ - هل رؤية البارى جل وعلا فى الآخرة ممكنة ؟

أحسب أن ما وقع فى مشكلة الرؤية هو نفس ما وقع فى مشكلة
 الكلام - وإن كانت مشكلة الرؤية قد أثبتت قبل مشكلة الكلام - فقد
 كان فيها هى أيضا طرفان متطرفان ووسط معتدل هو مكان اللقاء
 بين المذهبين وذلك أن طرف الإثبات يبالغ حتى يصل به التطرف إلى
 حد التشبيه والتمثيل والتحديد وطرف النفى يبالغ حتى يصل به

التطرف إلى حد نفى حصول كمال العلم • وبينها يقف أصحاب التحقيق في الجوانب المتقاربة التي تلتقى في المعنى الواحد لقاء كاملا أو لقاء متقاربا وهذه الصورة تتمثل فيما ذهب إليه بعض علماء أهل السنة من أن الرؤية معناها حصول كمال العلم بالله تبارك وتعالى وعبر عنها آخرون منهم بأن الرؤية تقع بحاسة سادسة هي كمال العلم واختلفت تعابير الكثير منهم ولكنها تتلائم في النهاية على نفى كامل الصورة التي يتخيلها الإنسان لصورة رائي ومرئي وما تستلزمه من حدود وتشبيه وتتفق في النهاية على الابتعاد عما يشهر بأى تشبيه في أى مراتبه وبالحدودية في كل أشكالها ومنهم من التجأ لكى لا يصطدم بنصوص النفى والإثبات إلى أن هذا من أحوال يوم القيامة وليس لنا أن نخوض فيه بغير القدر الذى جاءت به النصوص والمعتدلون من الإباضية لا يمتنعون أن يكون معنى الرؤية هو كمال العلم به تعالى ويمنعون الرؤية بالصورة المتخيلة عند الناس فإذا كانت هنا ك حالة لا تدخل تحت هذه القيود ولا تؤدي إلى التحديد أو التشبيه وإنما هي شئ يشبه ما يقوله بعضهم من حصول كمال العلم فلا مانع من ذلك يضاف إلى هذا اللقاء إن الإمام الغزالي يميل في أغلب كتبه إلى نفى الرؤية مطلقا ومنطلق الجميع في الواقع هو الفرار من التشبيه فالمتطرفون من الإباضية يفرون من كل ما يوهم التشبيه ولو بتأويل بعيد فرارا شديدا ويكتفى المتطرفون من أهل السنة بنفسى التشبيه بالنفى القولى وإن دلت عليه الفاظهم وأدت إليه تعابيرهم وأحسب أن اعتقاد التنزيه والفرار من التشبيه ثم التماس الحلول التي تلتقى عليها النظرتان في إيضاح مدلول النصوص المتعارضة في الظاهر هو مقدر كاف للدلالة على أن المذهبين ملتقيان لقاء قريبا يمكن أن يعتبر به كلاهما نابعا من نفس الاتجاه الذى نبع منه الآخر •

٣ - معنى الميزان والصراف :

هذه مسألة من المسائل التي استنفدت جهدا ووقتا ووصلت بها التحدى الى صور تكاد تكون هزلية أو بهلوانية • يصر فيها بعض الناس أن يكون الميزان يوم القيامة ذا كفتين ولسان ثم يختار كيف يقع الوزن فيذهب في التصور شوطا بعيدا ويصر بعضهم أن يكون الصراف جسرا فوق جهنم وأن يكون أرق من الشعرة وأحد من السيف ثم يتسابق الناس عليه فمن وقع منهم كان مصيره إلى النار وهم في سباقهم هذا بحسب أعمالهم أحسب أن هذا التصور يجب أن يرتاح اليوم وإذا كان العلم البشرى منذ ذلك العهد إلى هذا العهد قد اكتشف أنواعا من الموازين والمقاييس لم يبلغ إليها خيال المتخيلين في ذلك العصر وأنه يصور البحث عن مقاييس للذكاء والعقل وما إلى ذلك - فكيف للإنسان اليوم أن يصف موازين الله لأعمال الإنسان يوم القيامة • إن كلا من الإباضية وأهل السنة مؤمنون أن الله سبحانه وتعالى يوم الجزاء يفصل بين عباده وأن قوله تعالى الفصل ، ووزنه الحق ، وحكمه العدل •

ويكفى هذا اللقاء بينهما •

٤ - تأويل ما يفهم التشبيه :

هذه النقطة أصبح أغلب أهل السنة من الأشعرية والماتريدية يقولون فيها بما يقول به الإباضية واللقاء بينهما فيها تام • وكلهم يرى أن كل كلمة وردت في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة تشعر بالتشبيه يجب أن تقول بما يؤدي المعنى ولا يدل على التشبيه •

هـ — مرتكب الكبائر :

يقول الأستاذ على مصطفى الغوابى فى كتابه تاريخ الفرق ص ٨٩
ما يلى :

- (أ) الخوارج تقول ان مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره كافر •
- (ب) المرجئة تقول هو مع فسقه وفجوره مؤمن •
- (ج) الشيعة تقول هو مع فسقه وفجوره فاسق •
- (د) الحسن البصرى يقول هو مع فسقه وفجوره منافق •

هذا ما يقوله الأستاذ الغوابى ويبدو لى أنه لم يذكر أهل السنة
لأنه يرى أنهم يدخلون فى قسم المرجئة ولم يذكر الإباضية لأنه يرى
أنهم يدخلون فى قسم الخوارج • ولكن الواقع ليس كذلك فأهل السنة
ليسوا مرجئة والإباضية ليسوا خوارج • لأن أهل السنة لا يذهبون
إلى ما ذهب إليه المرجئة من قولهم « لا نضر مع الإيمان معصية »
بل إن الماتريديّة منهم يرون كما يرى الإباضية أن الوعيد لا يتخلف
كما لا يتخلف الوعد ولأن الإباضية لا يرون رأى الخوارج وإنما
يرون رأى الحسن البصرى فيعتبرون مرتكب الكبيرة منافقاً وليس
مشركا • وهنا يلتقى الإباضية وأهل السنة لقاء كاملاً — بقطع النظر
عن التسميات — فيتفقون جميعاً أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتنب يدخل
النار • أما معاملته فى الدنيا فهي لا تختلف عن غيره من السلمين •

فاللقاء فى هذه النقطة بينهما كامل •

٦ — عذاب النار أبدى (الطلود) :

هذه قضية متفرعة عن القضية السابقة وقد جرى فيها جدل كثير
 وضح الإمام الغزالي إلى جانب الخلود وقال قطب الأئمة من الإباضية
 في رسالته إزالة الاعتراض أن خلود الموحد وعدمه ليس من الأصول
 التي يكون بها تنسيق معتقد أحدهما •

ويكفى هذا لقاء بين المذهبين •

٧ — صفات الله ليست زائدة على ذات الله :

موضوع الصفات من أهم المواضيع التي جرى فيها النقاش الكثير
 والجدل المتواصل فبينما يقول بعض الأشاعرة أن صفات الله تبارك
 وتعالى غير ذاته يقول الماتريدية من أهل السنة أن الصفات ليست
 شيئاً غير الذات فهي ليست صفات قائمة بذاتها ولا منفكة عن الذات
 فليس لها كينونة مستقلة عن الذات • وهذا هو ما يقوله الإباضية في
 الصفات أيضاً وربما يلتقى الإباضية والماتريدية في هذه المسألة حتى
 في التعبير واختيار الكلمات وهناك من الأشاعرة من يقول بقول الإباضية
 في بعض الصفات كالوجود والبقاء ومنهم من يقول بذلك في جميع الصفات
 ولعل الإمام الغزالي يميل إلى هذا الجانب • أحسب أن هذا المقدر
 يكفى في اللقاء بين أهل السنة والإباضية في موضوع الصفات •

٨ — القدر :

يبدو أنه لا خلاف بين الإباضية وأهل السنة في موضوع القدر
 وأن المستشرق نلينو مقتنع بذلك •

بعد هذا العرض الموجز أريد أن أقول إن المنتسبين إلى أهل السنة عدد كبير من الفرق الإسلامية وهي تختلف اختلافاً بيناً في جميع هذه المشاكل وفيها متطرفون إلى كلا الجانبين فمنهم من يتطرف إلى التشبيه أو قريب منه ومنهم من يتطرف إلى الجانب الشائى حتى يكاد يكون صدى للمعتزلة ولعل الظاهرية وبعض المتشددين من الحنابلة والتهيين يمثلون الجانب الأول ، الجانب المحافظ أو الجاحد إن أبحدنا لأنفسنا أن نستعمل هذا التعبير ولعل الماتريديية والإمام الغزالى يمثلون الجانب المتحرر •

والإباضية في جميع المسائل السابقة يلتقون مع بعض الأئمة أو الفرق من هؤلاء ، فلو أردنا التفصيل لقلنا إنهم يلتقون مع الأغلبية المطلقة في تأويل التشابه والقدر •

• يلتقون مع الكثير في الصفات ومرتكب الكبائر •

ويلتقون مع بعض الأئمة في صفة الكلام (القرآن مخلوق أو غير مخلوق) والرؤية والخلود •

وأعنى باللقاء أن أحد الفرقتين تقول بنفس ما تقول به الأخرى أحياناً وتختلف عنها أحياناً في الإجمال وتلتقى في التفصيل وتختلف عنها أحياناً في المشهور ويوجد في إحدى الطائفتين علماء يميلون إلى ما تقول به الطائفة الأخرى في كثير من الأوقات ولن تجد عند التحقيق انقطاعاً كاملاً بينها أبداً في جميع المسائل اللهم إلا إذا سلكت مسلك المتطرفين من أحد الفريقين ولا شك أن هذه المقارنة يمكن أن

تجرى أيضا مع أهل السنة والمعتزلة أو مع الإباضية والمعتزلة وربما يكون فيها اللقاء مثل هذا أو قريبا من هذا • فإن جميع هذه الفرق إنما تصدر عن منبع واحد هو كتاب الله وسنة رسوله رغم ما يقوله القائلون في الخلاف ورغم ما أدى إليه الاجتهاد بسبب اختلاف الفهم والافتتاع بمنطقية الدليل •

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

٥	يا أخى فى الله
٦	قيل عن الإباضية
٩	مقدمة
١٢	الباب الأول
١٤	الإباضية فى قفص الاتهام
١٩	القسم الأول (مع القدماء)
٢١	الإباضية عند الأشعرى
٢٩	تشنيعات الأشعرى على الإباضية
٣٧	مقالات الإباضية عند الأشعرى
٤٣	البغدادى والإباضية
٥٢	ابن حزم والإباضية
٦١	أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية
٦٦	أبو الفتح الشهرستانى والإباضية
٧٣	الباب الثانى
٧٥	مع المعاصرين
٧٦	مع الأستاذ على مصطفى الغوابى
٩٧	مع أبى زهرة
١١٣	مع عبد القادر شيبية الحمد
١٢١	خلاصة مذهب الإباضية
١٢٥	مع الدكتور هويدى

رقم الصفحة

١٣٤	مع الدكتور هويدي أيضا
١٤٤	هويدي في تبعية المستشرقين
١٥٨	عز الدين التنوخي
١٧٥	مع ابراهيم عبد الباقي
١٧٥	طرف من عقائد الخوارج
١٨١	مع الأستاذين : التنوخي و ابراهيم عبد الباقي
١٩٧	الباب الثالث
١٩٩	القسم الثالث (المستشرقون)
٢٠١	المستشرقون
٢٦٥	مع كرلو الفونسو نلينو

رقم الإيداع: ٩٤/٢٤٠

